

الإسلام والعولمة..

المنازلة

**العالمية الإسلامية والعولمة البشرية
بين السنن الربانية والتدافع الإنساني**

تأليف الدكتور

سامي محمد صالح الدلال

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م

ح مجلة البيان ١٤٢٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الدلال، سامي محمد صالح

الإسلام والعولمة .. المنازلة - العالمية الإسلامية والعولمة البشرية

بين السنن الربانية والتدافع الإنساني - سامي محمد صالح

الدلال - الرياض ١٤٢٥هـ

٣٣٨ ص؛ ١٧ × ٢٤

ردمك: ٦ - ٥ - ٩٤٤٩ - ٩٩٦٠

١ - الإسلام والعولمة. أ - العنوان

١٥٦ / ١٤٢٥

ديوي ٣٢٧، ٢١٤

رقم الإيداع ١٥٦ / ١٤٢٥

ردمك ٦ - ٥ - ٩٤٤٩ - ٩٩٦٠



المقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وبعد :
تشغل قضية العولمة حيزاً كبيراً من الدراسات والبحوث والمؤلفات ؛ فضلاً
عن كونها تفرض نفسها بقوة دفع كبيرة على ساحة الواقع .
إن العالم الإسلامي بمقوماته العقدية والتشريعية والسلوكية ؛ هو من أبرز
المستهدفين بهذا التيار العولمي .

ولقد ظن كثير من الناس أن هذا التيار من القوة والاندفاع ؛ بحيث لا يمكن أن
يحد من اندفاعه شيء بله عن إيقافه ، ولقد انبنى هذا الظن على حالة الانبهار التي
اكتنفت هؤلاء الناس بما رأوه من القوى العالمية الداعمة للعولمة ، وقد غاب عنهم
أن هذا الكون يجري وفق سنن إلهية ، تجرف في طريقها كل من يقف أمامها ، وأن
هذه السنن قد بينها الله - تعالى - في كتابه المنزل على سيد الأنام محمد بن عبد الله
عليه أفضل الصلاة والسلام ، وأن شريعته قد جاءت في جميع مقاصدها متسايرة
ومجارية لهذه السنن . ولقد تصدى أعداء الأنبياء لدعوة رسلهم مضادين في ذلك
السنن الإلهية ، فحصل التدافع الشديد بين الأنبياء وأقوامهم ، والذي ما لبث أن
انتهى بنصر المؤمنين واندحار المشركين . ونظراً لأن دعوة النبي محمد ﷺ ماضية
إلى يوم القيامة ؛ فقد اقتضت الحكمة الإلهية أن يجعل انتصار النبي ﷺ نهاية
مرحلة نموذجية من التدافع ؛ لينسج المؤمنون بعد ذلك تدافعهم مع أعدائهم على
منوالها .

وهذه الدراسة تركز على التدافع بين السنن والعولمة ، إن السنن ربانية
المصدر ، أصيلة المنبع ، ثابتة الاتجاه ، وأما العولمة فهي بشرية ، طارئة ، وافدة .

نريد من خلال هذا المبحث ؛ أن ندلف إلى ساحة الخلق الرحيبة ، وننظر

بعيني البصر والبصيرة إلى احتدام التدافع، وحرارة التفاعل، سلباً وإيجاباً، بين «السنن» و«العولمة»؛ فما «السنن»؟ وما «العولمة»؟ وما آثار التدافع بينهما في المسيرة البشرية، وفي صياغة العلاقات الإنسانية، ونشر الثقافات المعرفية، وبناء الشواهد الحضارية؟ وهل هما في كل ذلك متسايرتا الاتجاه أو متعاكستاه؟! أو يجمعان بين هذا وذاك بحسب الظروف في الزمان والمكان وطبيعة الإنسان؟! سألقي بإذن الله - تعالى - على كل ذلك أضواء ساطعة؛ من خلالها تنجلي الحقائق الباهرة، وذلك عبر عدة محاور، أفردت لكل محور منها فصلاً مستقلاً، وهي كالآتي:

الفصل الأول: السنن. الفصل الثاني: العولمة. الفصل الثالث: التدافع.
الفصل الرابع: المدافعة الحضارية وبناء المشترك الإنساني بين العالمية والعولمة.

وقد بذلت جهدي أن لا أذكر في هذا الكتاب حديثاً إلا أن يكون صحيحاً أو حسناً (سواء بنفسه أو بغيره). وما رواه البخاري ومسلم أو أحدهما؛ فقد استغنيت بذلك عن ذكر من رواه سواهما.

وقد عزوت الأحاديث إلى مصادرها؛ ما عدا ما جاء تصحيحه أو تحسينه في صحيح الجامع الصغير؛ فقد اكتفيت بعزو ذلك إليه فذكرت رقمه؛ إذ المقصود تأكيد صحة الأحاديث التي تم الاستشهاد بها، وليس التوسع في تخريجها.

وما كان من الحق في هذه الدراسة فمن الله - تعالى - وحده ومن توفيقه وتسديده، فله الحمد والمِنَّة والفضل والثناء الحسن، وما كان غير ذلك فمن نفسي ومن الشيطان، وأستغفر الله العظيم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،،،

د. سامي محمد صالح الدلال

٢٤ جمادى الآخرة ١٤٢٤هـ

٢٢ أغسطس ٢٠٠٣م

الفصل الأول

السنن

- السنن لغة واصطلاحاً.
- مراتب علم السنن الربانية.
- ما علاقة الإنسان فرداً ثم جماعة بتلك السنن؟
- السنن والمصالح.
- السنن الربانية في المسيرة البشرية.
- السنن الربانية ومقاصد الشريعة.
- السنن ومقاصد الشريعة ومستقبل الإسلام.

السنن

السنن: جمع «سنة»، وسنمر على معانيها لغة واصطلاحاً عبر الإمامة سريعة .
 لغة: في (لسان العرب) لابن منظور: سنّ الله سنة؛ أي بين طريقاً قوياً .
 التهذيب: السنة الطريقة المحمودّة المستقيمة . وسنن الطريق سننه وسننه وسننه :
 نهجه . شمر: السنة في الأصل سنة الطريق، وهو طريق سنه أوائل الناس فصار
 مسلكاً لمن بعدهم . وسن فلان طريقاً من الخير يسنه : إذا ابتدأ أمراً من البر لم
 يعرفه قومه فاستسنوا به وسلكوه، وهو سنين . والسنن القصد . قال أبو عبيد:
 سنن الطريق وسننه : مَحَجَّتْهُ، وتَنَحَّ عن سنن الجبل؛ أي عن وجهه . الجوهري:
 امض على سننك وسننك؛ أي على وجهك^(١) .

وفي (إرشاد الفحول) للشوكاني: «هي الطريقة المسلوكّة، وأصلها من
 قولهم: سنتت الشيء بالسنن؛ إذا أمررت عليه حتى يؤثر فيه سناً؛ أي طريقاً .
 وقال الكسائي: معناها الدوام، فقولنا سنة معناه الأمر بالإدامة؛ من قولهم:
 سنتت الماء؛ إذا واليت في صبه . قال الخطابي: أصلها الطريقة المحمودّة، فإذا
 أُطلقت انصرفت إليها»^(٢) .

اصطلاحاً: جاءت ألفاظ «السنن» و «السنة» في الكتاب العزيز والحديث
 الشريف بالمعاني اللغوية التي ذكرناها، وربما اصطبغت أحياناً باختصاصات تفيد
 تخصيص العموم أو تقييد الإطلاق، قال ابن منظور: «وإذا أُطلقت في الشرع
 فإنما يراد بها: ما أمر به النبي ﷺ ونهى عنه وندب إليه قولاً وفعلًا مما لم ينطق به
 الكتاب العزيز، ولهذا يقال في أدلة الشرع: الكتاب والسنة؛ أي القرآن

(١) لسان العرب، ابن منظور، (١٣ / ٢٢٥، ٢٢٧، ٢٢٨)، باختصار .

(٢) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، للشوكاني، ص ٣٣ .

والحديث»^(١). ومما جاء في الكتاب الكريم قوله - تعالى -: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ [الكهف: ٥٥]؛ أي الطريقة والمنهج الذي أخذ الله - تعالى - به عباده المكذبين من إنزال العذاب بهم وغشيانهم به . وأيضاً قوله - تعالى -: ﴿وَيَهْدِيكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٦]، قال ابن كثير: «يعني طرائقهم الحميدة واتباع شرائعه التي يحبها ويرضاها»^(٢)، وقال ابن الجوزي: «معنى الكلام: يريد الله ليبين لكم سنن من قبلكم من أهل الحق والباطل؛ لتجتنبوا الباطل، وتجيئوا الحق، ويهديكم إلى الحق»^(٣).

ومن السنّة أسوق حديثاً واحداً يوضح المراد، وهو قوله ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»^(٤).

ثم أسوق تعريفها عند الأصوليين، قال الأمدى في (الإحكام في أصول الأحكام): «وأما في الشرع فقد تُطلق على ما كان من العبادات نافلة منقولة عن النبي عليه السلام، وقد تُطلق على ما صدر عن الرسول ﷺ من الأدلة الشرعية، مما ليس بمبتلو ولا هو معجز ولا داخل في المعجز، ويدخل في ذلك أقوال النبي - عليه الصلاة والسلام - وأفعاله وتقاريره»^(٥). وقال الشيخ أبو زهرة في (أصول الفقه): «السنّة النبوية هي أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقاريراته»^(٦). وقال الشيخ الدكتور محمد سليمان الأشقر: «سنّة النبي ﷺ هي طريقته التي مهّدها

(١) لسان العرب، ابن منظور، (١٣ / ٢٢٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (١ / ٤٧٩).

(٣) زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، (٢ / ٥٩).

(٤) صحيح مسلم، (٢ / ٧٠٥)، رقم ١٠١٧.

(٥) الإحكام في أصول الأحكام، الأمدى، (١ / ٢٤١).

(٦) أصول الفقه، د. محمد أبو زهرة، ص ١٠٥.

للمسلمين ليسيروا عليها في دينهم . اصطلاحاً : ما أُثر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو ترك أو تقرير . وبعضهم يزيد على ذلك : أوصاف النبي ﷺ الخلقية والخلقية . وبعضهم يضيف إليها ما كان عليه الصحابة - رضي الله عنهم - من الأقوال والأفعال والأحوال^(١) .

مراتب علم السنن الربانية(*) :

فأما قولنا «سنن» فهي جمع «سنة» ؛ وهي الطريقة المتبعة والمطردة . وأما قولنا «ربانية» فبمعنى أنها منسوبة إلى الله ؛ فهي في إطار الحكمة الربانية ، وتحافظ على وتيرة واحدة في عملها بما أودعه خالقها فيها من خصائص ، فهي محفوظة فيها بأمر ربها الذي خلقها . إن انضباط حركة النجوم والكواكب والمجرات والسيارات السماوية كافة ؛ إنما هو ناشئ عن اتساق هذه الحركة في إطار ضوابط السنن ، سواء كانت هذه السنن متعلقة بالجوانب النووية أو الضوئية أو الكهربائية أو الجاذبية أو ما سوى ذلك .

ولولا أن الله - تعالى - قد «سير» هذه الأجرام بحيث لا تخرج عن «سننه» ، أو ما يسميه أهل الاصطلاح عن «قوانينه» ، لأدّى ذلك إلى انهيار كوني شامل غير منضبط ولا منظم .

لذلك فإن «حالة الاتزان» هي تعبير عملي عن وجود القوة الخارجية ، والتي رتبت عملية التناسق بين السنن وتأثيراتها في الأجرام ؛ لتصبح في تلك الحالة المتزنة ، وهذا المعنى مندرج تحت قوله - تعالى - : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلَّكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [الحج : ٦٥] ، وقوله - تعالى - : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا

(١) الواضح في أصول الفقه ، د . محمد سليمان الأشقر ، ص ٩٤ .

(*) اعتاد بعض الناس تسميتها بـ «النواميس الكونية» ، وهذا غير صحيح ؛ لأنه يُشعر بأنها مبنوتة الصلة عن خالق لها ، وهو الله تعالى ، وأنها مقتصرة على الجمادات والأحياء غير ذات الإرادة .

إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ﴿٤١﴾ [فاطر: ٤١] .

وكما أن الله - تعالى - جعل «سنناً» تنضبط بها حركة الأجرام السماوية وكذا مفرداتها التكوينية ؛ كذلك جعل الله - تعالى - «سنناً» تنضبط بها حركة الجموع البشرية وكذا آحادها الإنسانية . ولأجل أن تكون حركة الجموع البشرية وآحادها الإنسانية حركة «متزنة» ؛ فلا بد لها أن تسير منضبطة بـ «السنن الربانية» . ولقد جعل الله - تعالى - انضباط الأجرام السماوية بتلك السنن مثلاً شاخصاً لبني الإنسان ؛ ليروا بأم أعينهم الحالة المثلى التي يمكن أن يصلوا إليها لدى انضباطهم بالسنن الربانية . ومن اللافت للنظر حقاً ؛ أن حالة الاتساق السماوي وهي تلي امتثال السنن واتساقها ؛ لا تحقق فقط مجرد الاتزان والانضباط بل تضيف إلى ذلك الجمال والمتعة ، فهو ليس اتزاناً مجرداً بل هو اتزان جميل أخاذ ، وفي غاية الروعة والحسن ، قال - تعالى - : ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ [ق: ٦ - ٧] ، فالسما مبنية ، وهذا اتزان ، ولكنها مزينة ، وهذا جمال . وكذلك الأرض فيها رواس لضبط حركتها وثبات قشرتها ، وهذا اتزان ، ولكنها أيضاً تحمل من كل زوج بهيج ، وهذا جمال .

ومعنى هذا الكلام فيما يخص الإنسان ؛ أن انضباطه بالسنن الربانية يحقق له أمرين :

— الاتزان ، ومعناه التفكير السديد والعيش الكريم .

— والجمال ، ومعناه السعادة والطمأنينة .

وكما أن خروج الأجرام السماوية عن ضوابط التوازن يؤدي إلى الانهيار الكوني ؛ كذلك فإن خروج البشر عن ضوابط التوازن ، وذلك بخروجهم عن السنن الربانية ، يؤدي إلى الانهيار البشري . وكما أن الانهيار الكوني للأجرام السماوية يؤدي إلى تبديد توازنها الجمالي (لأن الجمال له توازن أيضاً) ؛ كذلك

فإن الانهيار البشري يؤدي إلى تبديد السعادة البشرية . وكما أن الانهيار الكوني للأجرام السماوية يؤدي إلى تخطيمها وتدميرها ؛ كذلك فإن الانهيار البشري يؤدي إلى تخطيم وتدمير الأفراد الإنسانيين . إن اختلال توازن البناء وتوازن الجمال وحجم الخسائر الناجمة عن ذلك ؛ يتناسب طردأً مع مقدار الاختلال في اتباع السنن الربانية . وعندما يكون الإعراض عن الأخذ بالسنن الربانية شاملاً ؛ فإن التخطيم والتدمير الناشئ عن ذلك يكون شاملاً أيضاً .

لماذا لا نسمي «السنن» قوانين؟ الجواب : لأن القوانين قابلة للتغيير والتبديل بحسب المتطلبات والظروف ، وأما السنن فتأخذ تسميتها من طابع الاستمرار والتواصل والاضطراد ؛ أي أن السنن ثابتة ، وهذا يفهم مباشرة من قوله - تعالى - : ﴿ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ [فاطر : ٤٣] . إن ثبات السنن أمر أساسي في استبقاء الاتزان الكوني ؛ لأن هذا الاتزان قائم على أساس توازن عمل السنن الثابتة فيما بينها ؛ وفق ترتيب محكم بحكمة عظيمة من خالق تلك السنن .

ما علاقة الإنسان فرداً ثم جماعة بتلك السنن؟:

إن العلاقة مباشرة ؛ إذ إن الإنسان جزء من هذا الكون ، فهو محكوم بهذه السنن لا محالة ، ولما كان الأمر كذلك ؛ فإنه يجب على الإنسان أن يعرف تلك السنن ؛ لتأتي حركته متوافقة معها توافقاً شمولياً متوازياً ، وبقدر ما ينحرف خط سيره عن اتجاه تلك السنن ؛ بقدر ما يتولد من احتكاك يبعث طاقة ذات طابع تخريبي ؛ تعمل على تآكل الجوانب الإيجابية في معالم سعادة ذلك الإنسان ، وبقدر الفاقد من السعادة يكون المتولد من الشقاء ، حتى إذا ما بلغت بوصلة الانحراف درجة التعاكس المباشر مع خط سير السنن ؛ حصل التدمير الكلي والشامل ؛ أي انمحت السعادة وحلَّ بدلها الشقاء .

ثم إن عمل هذه السنن ليس فيه محاباة لأحد إلا إذا أراد الله - تعالى - أن يخرق تلك السنّة لأمر ما يعلمه ؛ لذلك فإن هذه السنن تتناول الجميع . وجهل الإنسان أو تجاهله لتلك السنن ؛ لا يوفر له حماية منها ، فالذي يجهل سنّة عمل الجاذبية ثم يرمي نفسه من شاهق سيتحطم ولن ينقذه جهله من التهشم ، ثم إن النتيجة واحدة فيما لو كان الذي ألقى بنفسه رئيس جمهورية أو حملاً في سوق الهال^(١) ، فتلك السنن لا تعمل على الهوية .

إن تعلّمي للسنن على ثلاث مراتب :

المرتبة الأولى :

هي السنن التي لو جهلتها لكانت حياتي في شقاء دائم ، أو هي قريبة من ذلك ؛ لهذا فإن تعلّمي لهذا النوع من السنن يكون على مستوى الضروري .

المرتبة الثانية :

هي السنن التي لو جهلتها فإن ذلك لا يسبب لي شقاء ، ولكن في الوقت نفسه لا أشعر بالسعادة ؛ لذلك فإن تعلّمي لهذه السنن يكون على المستوى الحاجي .

المرتبة الثالثة :

هي السنن التي لو عملت بها لكان ذلك مسلكاً لشعوري بالسعادة والرفاهية ؛ لذلك فإن تعلّمي لتلك السنن يكون على المستوى التكميلي أو التحسيني .

فعندما أعمل متوافقاً مع سنن المرتبة الأولى ؛ أكون قد حققت الحد الأدنى من التوازن الضروري ، وأي خلل في هذا التوافق سيُخرجني حتماً عن التوازن ؛ في

(١) سوق مشهورة في وسط دمشق .

اتجاه الهلاك والضياع والاندثار، وعندما أعمل متوافقاً مع سنن المرتبة الثانية أكون قد تجاوزت الحد الأدنى، أي الحافة، إلى نقطة في داخل مساحة الاتزان، أشعر من خلالها بأنني قد حصلت على احتياجاتي التي تفوق حد الضرورة. وعندما أعمل متوافقاً مع سنن المرتبة الثالثة؛ فإنني أكون في نقطة آمنة في مساحة الاتزان؛ أشعر من خلالها أنني استكملت رغبتني وحسنت وضعي.

مثال:

لو أن إنساناً أوشك على الهلاك من شدة الجوع، فقدّمنا له علبة سردين صغيرة؛ فإن أكله لما في العلبة هو على مستوى الضرورة لئلا يموت، لكنه حتماً لن يشبع وسيبقى شعوره بالجوع قائماً، إلا أنه لن يهلك، فإذا قدّمنا له علبة ثانية؛ فإنه سيأكل ما فيها على سبيل الحاجة ليقضي على الجوع، وليس على سبيل الضرورة لئلا يموت، فإذا قدّمنا له بعد ذلك الفاكهة والحلوى؛ فإن أكله لها لن يكون على سبيل الحاجة لسد الجوع، بل على سبيل الانتشاء والبجبة؛ لذلك فإنّ علم هذا الإنسان بسنة «تناوله للطعام ينقذه من الهلاك جوعاً» يعتبر علماً ضرورياً، ثم إنّ علمه بسنة «الازدياد من تناوله للطعام يقضي على الجوع» يعتبر علماً حاجياً، ثم إنّ علمه بسنة «الفاكهة والحلوى تُشعره بالنشوة والطلاقة» يعتبر علماً تكميلياً وتحسينياً. انتهى المثال..

بعد ذلك أقول: إن علاقة الإنسان بـ «السنن الربانية» على وجهين:

الأول: سنن يكتشفها الإنسان؛ إما بفطرته، وإما بإعمال عقله في اكتشافها، ثم الاستفادة منها لخدمة حياته، وهذه السنن تتناولها المراتب الثلاث المذكورة، فإكتشافه سنة «أكله الطعام ينقذه من الهلاك جوعاً» - سواء بإعمال عقله أو بأصل فطرته - هي مرتبة العلم الضروري، ولا يحتاج إلى معلم. واكتشافه سنة «التعاون مع أخيه الإنسان يساعده في أداء كثير من أعماله التي يحتاج إليها»؛ هي في مرتبة العلم الحاجي ولا تحتاج إلى معلم، ولو جهلها لما هلك، ولكنه يعيش

حياة تعيسة . واكتشافه سنن عمل الجاذبية والكهرباء والمجال المغناطيسي والضوء ؛ هي في مرتبة العلم التكميلي والتحسيني ولا تحتاج إلى معلم خارجي ، بل يستطيع الإنسان أن يترقى في تعلمها والتعامل معها ؛ مستفيداً من قيومية الحياة فيه الناشئة من تناوله للطعام على المستوى الضروري ، ثم مستفيداً من تعاونه مع الآخرين على المستوى الحاجي .

إن هذا النوع من السنن لا يختص به شعب دون شعب ، فهو معلوم لدى جميع الشعوب بالنسبة لمرتبة السنن الضرورية ومرتبة السنن الحاجية ، ولكنها تتفاوت فيه بالنسبة لمرتبة السنن التحسينية ؛ سواء في الوقت نفسه أو بتعاقب الأجيال .

وقد سُمّيت دول العالم الثالث أو الدول النامية بذلك ؛ لتخلفها في أخذها بالسنن التحسينية التي تفوق الغرب في الأخذ بها بالنسبة لغيره من الشعوب ؛ فأصبحت دول ذلك العالم المتخلفة عن الأخذ بتلك السنن في المرتبة الثالثة . وبحسب أحوال الأمم ؛ قد ينتقل العلم بالسنن من مرتبة إلى التي أعلى منها ، مثال ذلك : في وقتنا المعاصر أصبح العلم بسنن عمل الجاذبية والكهرباء والضوء والذرة وغيرها ؛ في مرتبة الحاجة لدى بعض الأمم ، وفي مرتبة الضرورة لدى غيرها ، فتأمل !!

الثاني : سنن تختص بمحتاج حياة الإنسان ، ولكنه لا يحسن بإمكاناته الذاتية من عقل وقلب وجوارح ؛ أن يتعامل معها على الوجه الصحيح ، فاقضى ذلك أن يرسل الله - تعالى - الرسل ليبينوا للناس كيفية التعامل مع هذه السنن ؛ بما يحقق التساير مع اتجاهها ، ويمنع الانحراف عن استقامتها فضلاً عن الاصطدام بها .

والفرق بين هذا النوع من السنن والنوع الأول منها ؛ هو أن السنن في النوع الأول جارية بما يكفل للإنسان عند الأخذ بها أن يبقى حياً ، ثم متفاعلاً مع غيره

في إطار الحاجة والتكميل .

وعند التحقيق نرى أن الحيوان بل جميع الكائنات الحية تشترك مع الإنسان في التعامل مع هذه السنن (النوع الأول) .

أما النوع الثاني من السنن ؛ فإنها جارية بما يكفل للإنسان أن يحقق «الغاية» من حياته و «الهدف» من تفاعله .

ولذلك فإن الإنسان أو الأمة التي تُعرض عن اتباع الرسل ؛ لا تحسن التعامل مع النوع الثاني من السنن ، ولهذا تبقى في إطار النوع الأول فقط ، مشتركة في ذلك مع كل المخلوقات البهيمية ، قال - تعالى - : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٩] ؛ أي أن هؤلاء تجاهلوا المنهاج الذي إذا ساروا وفق خطه حققوا غاية حياتهم والهدف من اجتماعهم وتفاعلهم . فهؤلاء من حيث أصل الخلقة لهم عقول وأبصار وآذان ، ولكنهم وظفوها فقط في اتجاه التعامل مع النوع الأول من السنن ، فاستعملوها في سبيل تحقيق أصل بقاء الحياة ، ولم يستعملوها في سبيل تحقيق الهدف منها . وليس ممكناً استعمالها في سبيل تحقيق الهدف منها ؛ إلا باتباع الرسل الذين بينوا الوجه الذي إذا استعمل به العقل والبصر والسمع كان ذلك متوافقاً مع السنن الربانية ، وإذا لم تُستعمل على ذلك الوجه ارتكس الإنسان إلى مستوى الأنعام التي في رؤوسها أمخاخ ، وفي وجوهها أبصار وأسماع ، لكنها لا تتعدى باستعمالها النوع الأول من السنن .

والإنسان قادر على الأخذ بنوعي السنن في آن واحد ، لكن اقتصار بعض بني الإنسان على الأخذ بالنوع الأول منها فقط ؛ ناشئ عن غفلته واستكباره وجهله .

ثم إن النوع الثاني من السنن له ميزتان :

الأولى : أن الله - تعالى - هو الذي يُبينه للإنسان ، وذلك من خلال إرسال الرسل .

الثانية : أن هذه السنن مطردة في كل الأمم ؛ أي غير مقيدة بالزمان أو المكان .

وقد ذكر الله - تعالى - هاتين الميزتين في آية واحدة ؛ حيث قال الله - عز وجل - : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النساء : ٢٦] ، فقلوه - تعالى - : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ ﴾ ؛ تناول الميزة الأولى ، وقلوه - تعالى - : ﴿ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ ؛ تناول الميزة الثانية ^(١) .

السنن والمصالح:

كل الناس في الأرض يسعون ، وكل يرمي إلى تحقيق مصالحه الخاصة ، لكنهم وهم يغذون السير في سعيهم ذاك ؛ فإن الطريق يجمعهم في محاولة الوصول إلى تحقيق مصالح مشتركة يهدفون إليها جميعاً .

ومن أهمها وأبرزها :

١ - الحرية : قال - تعالى - : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ ﴾ [الإسراء : ٨٤] ، قال ابن الجوزي - رحمه الله - : «وتحرير المعنى : أن كل واحد يعمل على طريقته التي تشاكل أخلاقه ، فالكافر يعمل ما يشبه طريقته من الإعراض عند النعم واليأس عند الشدة ، والمؤمن يعمل ما يشبه طريقته من الشكر عند الرخاء والصبر عند البلاء ، والله يجازي الفريقين» ^(٢) . وقال - تعالى - : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ [الكهف : ٢٩] ، إن هذه الآية وإن كانت تتضمن الوعيد لمن خالف منهاج الله - تعالى - ؛ لكنها تفيد حرية الاختيار للإنسان ؛ مع ما يترتب على ذلك الاختيار من مسؤوليات وتبعات ؛ سواء في المأمورات أو المنهيات .

(١) الانهيار ، د . سامي الدلال ، (١ / ٢٠ ، ٢٦) .

(٢) زاد المسير في علم التفسير ، ابن الجوزي ، (٥ / ٨١) .

وقال - تعالى - : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] ،
قال الأستاذ سيد قطب - رحمه الله - : « وفي هذا المبدأ يتجلى تكريم الله للإنسان واحترام إرادته وفكره ومشاعره ، وترك أمره لنفسه فيما يختص بالهدى والضلال في الاعتقاد ، وتحميله تبعة عمله وحساب نفسه ، وهذه هي أخص خصائص التحرر الإنساني »^(١) .

٢ - العدالة : قال - تعالى - مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿ وَأَمِرْتُ لَأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ [الشورى: ١٥] .

٣ - الأمن : قال - تعالى - : ﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّنْ جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش : ٤] .

٤ - الكفاية المتوازنة بين الجهد والثمرة : قال - تعالى - : ﴿ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ [النجم: ٣٩] .

٥ - الخصوصية في التملك والاختيار : قال - تعالى - : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾ [يس: ٧١] ، وقال - تعالى - : ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾ [البقرة: ٦١] ، فقوله - تعالى - : ﴿ فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾ تفيد الخصوصية في التملك ، وقوله - تعالى - : ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ﴾ يفيد الخصوصية في الاختيار .

٦ - إشباع حاجات الروح والجسد : فأما إشباع حاجة الروح فتكون بالعبادة ، والناس في ذلك قسمان : منهم من يعبد الله فهم يقولون : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاحة: ٥] ، ومنهم من يعبد الذين من دونه ، وهم الذين قال الله - تعالى - فيهم : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ [٢٢] مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ [الصفات: ٢٢ - ٢٣] .

(١) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، (١ / ٢٩١) .

وأما إشباع حاجة الجسد فتكون بالطعام والشراب واللباس والنكاح ، قال - تعالى - : ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾ [البقرة : ٦٠] . وقال - تعالى - : ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا﴾ [الأعراف : ٢٦] ، وقال - تعالى - : ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [النساء : ٣] .

٧ - العلم : قال - تعالى - : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر : ٩] .

إن هذه المصالح السبعة ، لكي يتحصل عليها الإنسان بما يحقق مصلحته ؛ لا بد له من مطابقة خط سيره مع السنن المتعلقة بهذه المصالح ؛ إذ إن كل مصلحة منها تسير وفق خطة سننية جارية ، لا تتضح معالمها الرئيسة إلا من خلال الوحيين الكتاب والسنة ؛ لأن الذي أنزل الوحيين هو الذي خلق هذه السنن وجعلها طرائق الحركة الكونية في إجمالها وتفصيلها ، فهي لا تكون مصالح بالمعنى الحقيقي إلا إذا تحققت فيها هذا الشرط .

إن بإمكاننا الإسهاب في تفاصيل هذه المقولة لكل مصلحة من المصالح السبعة التي ذكرتها ، لكن ذلك سيطيل الأمر على القارئ ؛ لذا سأكتفي بمثال واحد من هذه المصالح المذكورة ، وهي المصلحة السادسة .

مثال : مصلحة التوازن بين الروح والجسد :

الإنسان روح وجسد ، ولا يشك ذو لب بهذه المسلّمة . وتتوازن مسيرة الإنسان ، وبالتالي مسيرة الحياة الإنسانية ؛ بقدر التوازن بين هاتين الكفتين : الروح والجسد ، وتختل مسيرة الإنسان ، وبالتالي مسيرة الحياة الإنسانية ؛ بقدر ما يختل ذلك التوازن . إذا قويت الروح على حساب الجسد ؛ فإن الجسد يضعف عن التجاوب مع متطلبات الروح ؛ فيختل التوازن الإنساني لحساب الروح ؛ مما يعيق الحركة الفاعلة للجسد ، ولذلك منع الإسلام الصيام حال القتال ؛ لأن القتال

يتطلب حالة جسدية ناجزة مدعومة بحالة روحية مكثزة، وعندما تنساب تلك الطاقة الروحية في عروق الجسد المستعد؛ ينشأ من ذلك تفاعل متوازن يُسمَّى شجاعة وإقداماً واستبسالاً، وعلى العكس؛ فلو كان الجسد ضامراً فإن الطاقة الروحية المكثزة لن تجد فيه عروقاً متسعة تنساب خلالها؛ فينشأ عن ذلك تفاعل غير متوازن يُسمَّى جبناً أو هزيمة أو انكساراً، ولذلك وجب الإفطار عند القتال.

أما إذا قوي الجسد على حساب الروح؛ فإن الروح تضعف عن التجاوب مع متطلبات الجسد؛ فيختل التوازن الإنساني لحساب الجسد؛ مما يعيق الحركة المؤثرة للروح.

ولما كان الجسد يخضع للتغذية من طعام وشراب ثلاث مرات في اليوم أو أكثر من ذلك؛ فإن خلافاً محققاً سيحدث في ذلك الإنسان إن لم تُوازن تلك التغذية الجسدية بتغذية روحية مناسبة، ومن هنا وازن الإسلام غذاء الجسد اليومي بغذاء روحي يومي وهو الصلاة، ووازن الاكتناز الغذائي السنوي بالصيام السنوي، وليس المقصود من الصلاة أو الصيام هضم الفائض الغذائي؛ بل المقصود زيادة الجانب الروحي ليوازي الجانب الجسدي فيتم التوازن؛ وإلا انعكس ذلك على تباطؤ في الأداء وتثاقل عن القيام بالطاعة المفروضة لله - تعالى -.

من الذي يحدد نوعية ومقدار الغذاء الجسدي؟ إن معظمه يحدده الإنسان نفسه^(١)؛ لأن ذلك واقع في إطار محسوساته المادية، لكن من الذي يحدد نوعية الغذاء الروحي ومقداره ليتم التوازن؟ ليس الإنسان قطعاً؛ لأن الروح لا تقع في إطار محسوساته المادية (بل الذي يقع في إطار محسوساته المادية هو آثارها)، إن الذي يحدد نوعية الغذاء الروحي ومقداره ليتم التوازن؛ هو خالق الإنسان الذي

(١) المقصود الإنسان بإطلاق، وأما الإنسان المسلم؛ فإنه يختار طعامه وشرابه في إطار ما حلله له الشرع.

خلق شقيته : الجسدي والروحي .

ولا تتم للإنسان معرفة ذلك إلا عن طريق الرسل ، ولذلك فإن الإسلام عندما بين الجوانب العبادية من صلاة وصيام وغيرها ، وحددها كما وكيفاً ؛ فإنه جعل من المسلم إنساناً متوازناً ، إن هذا التوازن هو تعبير حقيقي عن اتباع «السنن الربانية» .

وقد لاحظ الإسلام طبيعة معاركة الجسد للحياة المادية اليومية ؛ وما ينتج عنها من مؤثرات مختلفة ومتفاوتة بين الأفراد ، فأضاف للفرائض (وهي الحد الأدنى لإبقاء التوازن بين الروح والجسد) ما سمّاه بالنوافل ، والنافلة هي الزيادة .

فالنوافل في الصلاة ، والنوافل في الصيام ، والنوافل في غيرهما ؛ تضمن زيادة في الجانب الروحي ؛ تكافئ الطوارئ الناشئة من زيادة معاركة الجسد للجانب المادي - هذا من جهة - ، ومن جهة أخرى فإن الزيادة في الجانب الروحي - ضمن الحدود المسموح بها شرعاً - ؛ مع كون الجسد سليماً صحيحاً لا تعني خلافاً في التوازن ؛ لأن تلك الزيادة الروحية تتخذ مسارها في الجسد ؛ فتنعكس على الإنسان بصورة مزيد من الصفاء وتوقد الذهن وتدفع الحيوية ، ولذلك يلاحظ أن المستزيدين من النوافل وخاصة الصيام وقيام الليل ؛ يمتازون عن المسلمين الآخرين بزيادة في تلك الصفات . أما الزيادة في التغذية المادية للجسد فإنها لا تجد لها مسرباً في الروح ؛ فتنعكس على الإنسان بصورة انحطاط في الحركة وكسل في الأداء ؛ فضلاً عن قساوة في القلب وشدة على الخلق ؛ إضافة إلى القلق والتوتر والعصبية .

بل الملاحظ أن النقص في الحالة الجسدية هو الذي يفتح مساراً للروح .

فعندما يتعرض الجسد لخطر داهم لا يستطيع بما فيه من قوى ذاتية اتقاءه ، أي أن الحالة الجسدية فيها نقص إزاء حجم الخطر ، عندها ينشأ عن هذا النقص شعور

يفتح مسرباً للروح ، فتنسب حركة الروح من خلال ذلك المسرب الذي انفتح بهيئة دعاء ، قال - تعالى - : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ ﴾ [الإسراء : ٦٧] . وربما إذا زال الخطر انغلق ذلك المسرب وعاد الإنسان لحالته الأولى التي كانت قبل الخطر ، قال - تعالى - : ﴿ فَلَمَّا نَجَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٦٧] .

ولذلك يلاحظ أن بعض الذين يبغون الموازنة بين الروح والجسد يعمدون لتقليل الجانب الغذائي المادي ، وهو ما يُسمّى بالزهد ، لكن ذلك لا يحقق المطلوب والمراد إلا إذا وافق «السنن الربانية» ، فإذا خالفها فإن ذلك الزهد ينقلب إلى سلبية وخروج عن الطريق المستقيم . ولذلك عندما جاء ثلاثة نفر وسألوا عن عبادة الرسول ﷺ فكأنهم تقالّوها (أي كأنهم وجدوها قليلة) ، فقال أحدهم إنه سيقوم ولا ينام ، وقال الآخر إنه سيصوم ولا يفطر ، وقال الثالث إنه لن يتزوج النساء ، فلما بلغ ذلك الرسول ﷺ بين لهم أنه يصلي وينام ويصوم ويفطر ويتزوج النساء ثم قال : «من رغب عن سنتي فليس مني»^(١) ، فهؤلاء الثلاثة أرادوا الزهد على حساب الجسد يبتغون تنقية أرواحهم والارتقاء بها ، ولكنهم لم يصيبوا السنن الربانية الموصلة لما يريدون ، فهأهم الرسول ﷺ ، وبين لهم أن السنّة الربانية هي التي يفعلها هو ﷺ ، وهي قائمة على الموازنة بين حاجة الروح من صلاة وصيام وامتناع عن النساء ، وبين حاجة الجسد من نوم وإفطار وإتيان النساء ، كل ذلك مقيد كيفاً وكماً بالتوجيه الرباني المحدد .

ها قد تبين لنا أن الإنسان يتكون من نظيرين : الجسد والروح ، وبتوازنهما يتوازن ذلك الإنسان ، ولا يتم هذا التوازن إلا باتباع السنن الربانية ، فإذا ما أصبح توازنه توازناً مطمئناً (أي أنه يعبر عن منهج حياة له طابع الاستمرار وليس توازناً

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ، محمد فؤاد عبد الباقي ، ص ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، رقم . ٨٨٥

عابراً)؛ كان بذلك مستحقاً للفوز في الآخرة، قال - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠].

والآن: هذه المصلحة الملحة، وهي مصلحة تغذية الجانب الروحي، أين كانت منها شعوب الاتحاد السوفييتي ودول أوروبا الشرقية - مثلاً؟

إن تلك الشعوب عندما أخذت بمبدأ (لا إله والحياة مادة)؛ ألغت نصف الإنسان!! والنصف الذي ألغته هو النصف الموجه، وأبقت النصف الموجه، ألغت الروح وتعاملت فقط مع الجسد، فكيف تسير السفينة بلا ربان؟ إن مثلهم في ذلك كمثل إنسان قُطعت إحدى رجلَيْه من الفخذ، ويريد أن يمارس المشي الطبيعي بقدم واحدة دون أن يعوّض الرجل المقتطوعة ولو بعكاز!! فهل يستطيع؟ قطعاً لا.

إن إلغاء الجانب الروحي من حياة الإنسان هو اصطدام مباشر مع «السنن الربانية»، لا ينفع مع غيابه تحصيل جميع المصالح الأخرى.

وهذا يعني أن مواطن تلك الدول يعاني من خلل شديد وفاحش في التوازن الإنساني، وبالتالي فإن مجتمعات تلك الدول هي مجتمعات غير متوازنة، وهي تعاني من اضطراب عنيف بسبب عدم التوازن، وإن مسيرتها الإنسانية التي خططت لها الأحزاب الشيوعية الحاكمة آنذاك تتجه بها نحو التدمير الذاتي!!

إن الضغط المادي على الجسد يتسم بالشدة والتواصل، ومع عدم وجود ما يعادله من الضغط الروحي؛ فإن الضغط المادي يكاد يدك ما تبقى من تصلب جسدي، وعندما يبلغ ذلك الضغط مداه لا يجد الجسد مفرّاً أمامه إلا مسارب التغيب العقلي، فيقبل على الخمر والمخدرات والغناء الجنوني والرقص المجنوني والانفعال الهياجي.

كل ذلك لا يعدو إلا أن يكون محاولة لتهريب الجسد من حالة الضغط المادي، إن كثيراً من غير المسلمين يفعلون ذلك بشكل جماعي يوماً أو يومين في الأسبوع.. تدار الكؤوس وتهوى الرؤوس!!

إن تلك الشعوب تمر فيما يمكن أن نسميه بالجوع الروحي، فكما أن الجسد يطلب التغذية ليتغلب على حالة الشعور بالجوع، كذلك فإن الروح لها المتطلبات نفسها ولكن بنوع آخر من الغذاء يناسبها.

أين تكمن الخطورة؟!

إن الخطورة تكمن بالنسبة للجسد عندما يكون الجسد بحاجة إلى التغذية، ولكن الشعور بالجوع لديه معطل، فيبدأ الجسد بالخمول والضمور ثم الموت!! ومثال هذا يقال عن الروح عندما تكون بحاجة إلى التغذية وصاحبها فاقد الشعور بذلك، فهذا سيؤدي حتماً إلى خمولها وضمورها ثم موتها.

هل الشعوب غير الإسلامية في حالة جوع أو في حالة «موت» روحي؟ لا أملك جواباً دقيقاً، ولكن يظهر لي أن بعضها يمر في حالة «شدة الجوع» الروحي وبعضها قد مات!!

ولكن من فضل الله - تعالى - على البشر أن جعل للروح مساراً يمكن إعادة تغذيتها منها، وإن كانت في حالة شدة الجوع، بل أكثر من ذلك أنه يمكن إعادة تغذيتها وإن كانت قد وصلت إلى حالة الموت؛ خلاف الجسد الذي مات نهائياً بانفصال الروح عنه!!

ألا ترى أن المشركين والكفار من أهل الكتاب وغيرهم كانوا في حالة موت روحي فأحياهم الله بالإسلام!! وقد بين الله - تعالى - ذلك فقال: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

كذلك فإن ذلك الجوع أو الموت الروحي الذي تمر به تلك الشعوب وغيرها؛ لا يمكن الانتقال منه إلى الحياة الروحية أو الإيمانية إلا باتباع الإسلام، وهذا واضح الدلالة من الآية المذكورة.

إن انقطاع تلك الشعوب عن تلمس طريق الوحي الإلهي، وقبولها أن تكون ضحية العولمة؛ قد فوت عليها مصالح عظيمة، وجعلها فريسة لشياطين الإنس والجن يلعبون بها كما يلعب الطفل بكُرته يدرجها كيفما يشاء!! وسبب ذلك أنهم عندما تجاهلوا حقيقة دور الجانب الروحي؛ فإنهم أبقوا طرق الشياطين سالكة دون عوائق أو عراقيل؛ كيف؟ وما النتائج؟!

أما كيف؟ فأقول: كما أن في الجسد جهازاً دفاعياً مكوناً من جيوش من الكريات البيض وغيرها لتدافع عنه ضد الجراثيم والميكروبات؛ فكذلك الروح محفوظة مساربها بالإيمان يرد عنها هجمات الشياطين التي تريد التغلب عليها. وكما أنه في حالة ضعف أو موت الكريات البيض تتغلب الجراثيم والميكروبات على الجسد بسهولة ويسر؛ كذلك فإنه في حالة ضعف أو غياب الإيمان فإن الشياطين تتغلب على مسارب الروح بسهولة ويسر.

وأما النتائج؛ فأقول: أما في الجسد؛ فإنه عندما تكون الغلبة للجراثيم والميكروبات فإنها تفتك به وتورده الردى. وأما في الروح؛ فإنه عندما تكون الغلبة للشياطين فإنها تفتك بالإنسان جسداً وروحاً معاً وتهوى به إلى المهالك!!

وإذا كان نتاج الإيمان أن يكون منهج حياة المؤمن منهجاً «إيمانياً»؛ فإن نتاج حلول الشياطين بدل الإيمان؛ أن يكون منهج حياة الإنسان منهجاً «شيطانياً»؛ بمعنى أن أسس حياته تقوم على التخبط والحيرة والشك والريبة؛ مما يجعله وسطاً ملائماً لتعشيش الجريمة، ومحلاً موبوءاً بالذائل، ومكاناً قفراً من المثل العليا!! فتراه وقد استكان لحيرته ورفض الاستجابة للذين يدعونه إلى الهدى، قال - تعالى -: ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى

الْهُدَى اثْنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ [الأنعام: ٧١].

لذلك أقول إن تلك الشعوب في روسيا والصين وأوروبا وأمريكا وغيرها، حال كونها متخلفة عن الإيمان، أي صادة عن اتباع «السنن الربانية»، فإنها بهذا الوصف تكون ممن استهوته الشياطين فسار في ركابها.

إن تفريغ مسارب الروح لتكون مسالك واسعة للشياطين لا يعود خطره على الإنسان الفرد وحده، بل تتناول الجماعات والشعوب فتدخلها في صراع دموي وحشي يأتي على خضرائها، ولا يخرج صراعها مع بعضها عن دائرة صراع المصالح المادية البحتة كصراع الوحوش على اقتناص الفريسة.

وهذا يفسر لنا حقيقة مباحث الحروب العالمية السابقة، وكذا الحروب المحلية، خلافاً لحروب المسلمين مع أعدائهم، فإنها كانت في دائرة صراع المبادئ والقيم، صراع الحق مع الباطل، صراع المناهج: منهاج الإيمان ومناهج الشياطين، الإيمان يحمل المبادئ الحق والقيم العليا، والشياطين تدافع عن المصالح الدنيا.

ولقد ذكر الله - تعالى - في كتابه طبيعة ذلك الصراع ونتائجه وماذا يريد كل فريق منه، قال - تعالى -: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٦]، ذلك عن منهج ونتيجة متبعي شياطين العولمة، فماذا عن المؤمنين؟ قال - تعالى -: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾ [البقرة: ٢٠٧]، فالدلالة والمقارنة واضحة.

وقبل أن أغادر محطة الجانب الروحي أتساءل فأقول: ثارت سابقاً الجماهير في الدول الشيوعية ونادت بالمصالح التي ذكرتها سابقاً؛ فما أثر غياب الجانب الروحي (المعنوي) عن حس الجماهير وهي تطالب بتلك المصالح؟ ثم ما أثر

غياب الجانب الروحي عن تلك المصالح بذاتها؟

للجواب عن الشق الأول من السؤال أقول: إن الجانب الروحي الموافق - للسنن الربانية - يؤدي دورين:

الأول: ضبط الحركة حال الأداء لتكون في تفاصيل تنفيذها مقيدة بالدقائق الملازمة للسنن؛ أي أن الدور الروحي هنا وظيفته ضبط الإيقاع الحركي في حس الجماهير.

ومع غياب هذا الجانب الموافق لـ «السنن الربانية» في اندفاع الجماهير وهي تتصدى لأنظمتها الحاكمة (كما حدث في الدول الشيوعية مثلاً)؛ فإن دماراً هائلاً يمكن أن يحدث للممتلكات العامة والخاصة؛ تعبيراً عن حالة ممارسة «الحرية» التي كُبتت عبر عقود عدة، وإن أعداداً كبيرة من الناس، ومنهم أبرياء، يمكن أن تُسفك دماؤهم بغير ضابط ولا تحرج تعبيراً عن ممارسة «العدالة» الغائبة كما يتصورها هؤلاء، فمن كان قد قُتل له قريب فهذه فرصته لقتل من يشاء، وإن لم يكن له ذنب في موت قريبه، ولكنه القصاص غير العادل باسم ممارسة العدالة. كما أن أعداداً كبيرة من المتاجر والمحلات والبنوك يمكن أن تتعرض للسطو والسرقة؛ انتقاماً من حالة «انعدام الأمن» السابقة قبل أن يأتي الأمن اللاحق!!

وهكذا تتوالى الممارسات الخاطئة تغذيها الكوامن النفسية التي تجمدت خلال تلك العقود، لقد حدثت جميع هذه الأعمال خلال أحداث التغيرات المتتالية في الدول الشيوعية، لماذا حدث ويحدث كل ذلك؟ إنه بسبب غياب الدور الروحي السنني الذي يضبط تفاصيل الإيقاع الحركي، فتكون الأحداث بسبب ذلك الغياب خاضعة لمعادلة «الغاية تسوّغ الوسيلة»!!

الدور الثاني الذي يؤديه الجانب الروحي الموافق للسنن الربانية هو: ضبط الهدف وتحديد مدى الغاية؛ بمعنى: ما الهدف بالضبط الذي تريده الجماهير من

تحركها؟ ثم ما مدى الغاية التي يمتد إليها هذا الهدف؟ أقول : كلا الأمرين غائب عن حسّ الجماهير التي تمارس حركة التغيير!! «مصلحة الحرية» التي تريدها الجماهير؛ من الذي يحدد عناصرها الفاعلة لتكون هي مصلحة حقيقية لها، ومن الذي يحدد المدى الذي تمارس فيه هذه الحرية لتبلغ غايتها؟ مع غياب الجانب الروحي الموافق للسنن الربانية؛ يصعب على البشر الاتفاق على ذلك بسبب تفاوت المصالح واختلاف النظرة التحليلية، ومثال على ذلك : فإنه بعد سقوط «شاوشيسكو» في رومانيا قامت مظاهرات تنادي ببقاء حكم الحزب الشيوعي لكن مع تغيير ممارسته!! حتى جبهة الإنقاذ الوطني في رومانيا لا تملك إطاراً محدداً لمعنى «مصلحة الحرية» التي قامت الجماهير للمطالبة بها، فمنهم من يريد الديمقراطية، وهو الجناح الذي تغلب في النهاية، ومنهم من يريد إعطاء الحزب الشيوعي دوراً قيادياً، وهو الجناح الذي هُزم في النهاية. وفي كل الأحوال فإن الجانب الروحي الموافق للسنن الربانية والذي تنضبط به بوصلة الهدف والاتجاه السليم والصحيح منحصراً حكماً في دائرة الإسلام؛ لأنه من الله - تعالى - خالق السنن ومبينها. ومثل هذا يقال في أثر الجانب الروحي الموافق لـ «السنن الربانية» في ضبط هدف وتحديد غاية المصالح الأخرى.

أنتقل إلى الشق الثاني من السؤال، وهو المتعلق بأثر الجانب الروحي من تلك المصالح بذاتها، فأتساءل :

مصلحة الحرية : هل لها جانب روحي (معنوي) وآخر مادي؟

مصلحة العدالة : هل لها جانب روحي (معنوي) وآخر مادي؟

وكذلك التساؤل قائم بالنسبة لباقي المصالح : هل لها جانب روحي (معنوي) وآخر مادي؟

الجواب : نعم!! ولكن كيف؟

أقول: الجانب الروحي (المعنوي) في الحرية هو المعنى الذي تنطوي عليه، والجانب المادي هو إسقاط مفردات ذلك المعنى على الواقع. ولتكون مصلحة الحرية محققة للمعنيين الروحي (المعنوي) والمادي؛ فلا بد من أن تتوافق مع «السنن الربانية»، وأضرب على ذلك مثالين:

الأول: مثال خاص بالفرد:

الإنسان «حر» في أن يعتقد ما شاء إلهاً له، هذا هو الجانب الروحي من الموضوع، ثم هو «حر» في أن يمارس ما شاء من الطرق للتعبير عن عبادته لهذا الإله، فهذا الجانب المادي من الموضوع. فإذا كان «الله» - تعالى - هو الإله الذي يعتقد واحداً لا شريك له ويكفر بما عداه من الآلهة؛ فإنه يكون بذلك قد وافق «السنن الربانية» في الجانب الروحي من «الحرية»، فإذا مارس عبادته لله وفق ما شرع في الكتاب والسنة؛ فإنه يكون قد وافق «السنن الربانية» في الجانب المادي من «الحرية»، ولكن إذا كان الإله الذي يعتقد الفرد هو الحزب الحاكم أو الزعيم القائد أو الصنم الهامد أو البقرة المجتررة أو النار الموقدة أو ما سوى ذلك؛ فإن الجانب الروحي في ممارسته للحرية لن يكون موافقاً لـ «السنن الربانية». ومثل ذلك يقال في ممارسته للتعبير عن هذه العبادة سواء بالطقوس أو بقوانين التشريع أو غيرها مما هو تعبير عن الجانب المادي في مصلحة الحرية. وكذلك إذا كان الفرد يعتقد وحدانية الله؛ أي أنه موافق في الجانب الروحي من مصلحة الحرية لـ «السنن الربانية»، إلا أنه يمارس عبادته لله على وفق هواه لا على وفق الشرع؛ أي مخالف لـ «السنن الربانية»؛ فإنه عندها لا يكون قد حقق الجانب المادي من مصلحة الحرية؛ أي أنه جزئاً مصلحة الحرية فجعل جانبها الروحي موافقاً لـ «السنن الربانية» وجانبها المادي غير موافق لها، فهذا الفرد يصيبه من الخلل في منهج حياته بقدر ما أحدث من شرخ في الجانب المادي من الحرية الموافق لـ «السنن الربانية».

وأيضاً: إذا كان الفرد لا يعتقد وحدانية الله؛ أي أنه غير موافق في الجانب الروحي من مصلحة الحرية لـ «السنن الربانية» لكنه يخضع في قوانينه وتشريعاته لمثل ما هو عند المسلمين؛ فإنه يكون بذلك قد حقق الجانب المادي من مصلحة الحرية؛ أي أنه أيضاً جزءاً من مصلحة الحرية فجعل جانبها الروحي غير موافق لـ «السنن الربانية» وجانبها المادي موافقاً لها، فهذا الفرد يصيبه من الخلل في منهج حياته بقدر ما أحدث من تضاد في الجانب الروحي من الحرية الموافق لـ «السنن الربانية»، وخلل هذا الفرد خلل عظيم لا يغفره الله - تعالى - إلا إذا تاب العبد منه، قال الله - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

المثال الثاني: مثال خاص بالجماعات:

الجماعة «حرة» في أن تعتقد ما تشاء أنه نظام حكم لها، هذا هو الجانب الروحي من الموضوع، ثم هي «حرة» في أن تمارس ما تشاء من السبل للتعبير عن كيفية إنشاء أو تكوين نظام الحكم الذي اعتقدته، فهذا هو الجانب المادي من الموضوع.

فإذا كان نظام الحكم الذي اعتقدته هو النظام الإسلامي القائم على الاستقلالية الربانية بالتشريع؛ فإن الجماعة تكون بذلك قد وافقت «السنن الربانية» في الجانب الروحي من «مصلحة الحرية»، فإذا ما طبقت هذه التشريعات الربانية في واقع حياتها؛ فإنها تكون بذلك قد وافقت «السنن الربانية» في الجانب المادي من «مصلحة الحرية».

وبذلك تكون هذه الجماعة قد حققت المعنيين المتلازمين من مصلحة الحرية: الاعتقاد والعمل؛ أي أن الجانبين الروحي والمادي كليهما موافق ومساير لـ «السنن الربانية».

أما إذا كان نظام الحكم الذي اعتقدته هذه الجماعة هو النظام الديمقراطي القائم على الاستقلالية البشرية بالتشريع بعيداً عن تشريع الله وتوجيهه ؛ فإن الجماعة تكون بذلك قد خالفت «السنن الربانية» في الجانب الروحي من «مصلحة الحرية» ، فإذا ما طبقت تلك التشريعات البشرية في واقع حياتها مستدبرة التشريعات الربانية ؛ فإنها تكون بذلك قد خالفت «السنن الربانية» في الجانب المادي من «مصلحة الحرية» ؛ أي أن «مصلحة الحرية» لهذه الجماعة ستصطدم بـ «السنن الربانية» في كلا معنيي المصلحة : الروحي ، والمادي .

أما إذا كان نظام الحكم الذي اعتقدته هو النظام الإسلامي القائم على الاستقلالية الربانية بالتشريع ؛ أي أنها قد وافقت «السنن الربانية» في الجانب الروحي من «مصلحة الحرية» ، ولكن عند التطبيق العملي أخذت هذه الجماعة بالتشريعات البشرية في واقع حياتها مهملة التشريعات الربانية ؛ فإنها بذلك تكون قد خالفت «السنن الربانية» في الجانب المادي من «مصلحة الحرية» ، وهي بذلك تكون على شفا خطر عظيم .

أما إذا كان نظام الحكم الذي اعتقدته هو النظام الديمقراطي القائم على الاستقلالية البشرية بالتشريع ؛ أي أنها قد خالفت «السنن الربانية» في الجانب الروحي من «مصلحة الحرية» ، ولكنها عند التطبيق رأت أن التشريع الإسلامي مناسب لها فأخذت به (وهذا مجرد افتراض) ؛ فإنها تكون بذلك قد وافقت «السنن الربانية» في الجانب المادي من «مصلحة الحرية» ، وهذا لا يفيداً عند الله - تعالى - لتخلفها عن تحقيق الأصل وهو الجانب الروحي من «مصلحة الحرية» .

ومثل الذي قلته في جانبي «مصلحة الحرية» الروحي والمادي ؛ أقوله في جانبي باقي المصالح الروحي والمادي ^(١) .

(١) الانهيار، د. سامي الدلال، (١ / ٥٧ - ٧٠) .

السنن الربانية في المسيرة البشرية :

كل حركة في الكون تسير وفق السنن الربانية طوعاً؛ إلا مسيرة الحركة البشرية، فإن الله - تعالى - منحها إرادة الاختيار، فهي إما سائرة باتجاه السنن فتتناولها «سنن التأييد»، وإما منحرفة عنها فتتناولها «سنن التجريد»(*)، وإما عكسها فتتناولها «سنن التعذيب»؛ إما مؤقتاً وإما على التأييد، قال - تعالى -: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨] .

وبناءً على ذلك؛ فإنه ضمن «إرادة حرية الاختيار» في المنظور البشري نستطيع تبين قسمين رئيسين:

الأول: المسلمون.

الثاني: غير المسلمين.

وجميعهم يتوزعون من حيث النظرة السننية بين سنن التأييد والتجريد والتعذيب، ولكل منها، أي من السنن، إسقاطاتها من منظوري الدنيا والآخرة:

فأما «سنن التأييد»؛ فأعظم ما تتحصل به هو الانتظام في المسار الإيماني (أركان الإسلام وأركان الإيمان)، وهذه مقصورة على المسلمين، فلهم فيها الحظ الأوفى في الفانية والباقية، وليس لغير المسلمين فيها نصيب، قال - تعالى -: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠] .

وأما «سنن التجريد»؛ فهي ماضية في المسلمين وفي غيرهم؛ بيد أن تأثيرها في الطرفين يعتمد على الأحوال، فمن جهة النظر إليها بخصوص المعاصي (*) أي تجريدها من أسباب حصول كمال الفلاح ونظام النجاح.

فتأثيرها في المسلمين أقل من تأثيرها في سواهم لأن المعاصي لديهم، وإن كانت كثيرة بذاتها، لكنها في كل حال هي أقل منها لدى غير المسلمين.

ومن جهة النظر إليها بخصوص الأخذ بأسباب القوة والمنعة؛ فتأثيرها في غير المسلمين أقل من تأثيرها في المسلمين؛ لأن غير المسلمين أكثر أخذاً بتلك الأسباب من المسلمين حالياً (يدخل في أسباب القوة والمنعة العلم الديني والتقدم التقني والانضباط الإداري والتسلح العسكري وغيرها) وهكذا، فالتعرض لسنن التجريد متداولة بين المسلمين وسواهم بحسب الحالات وظروف المكان والزمان.

وأما «سنن التعذيب»؛ فلغير المسلمين من أسباب إيقاعها فيهم الحظ الأوفى، ولكن أيضاً للمسلمين منها نصيب بحسب قربهم أو بعدهم عن امتثالهم لشرع ربهم.

والخلاصة: أن سنن التأييد والتجريد والتعذيب جارية على نسقها في كل البشرية، ولكل إنسان وشعب وأمة منها ما هو أهل له، قال - تعالى -: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ [١٨] وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ [الإسراء: ١٨ - ١٩]، هذا في مآل الطائفتين (المسلمين وغير المسلمين)، ثم قال - تعالى -: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [٢٠] انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ [الإسراء: ٢٠ - ٢١].

وهذا في حال الطائفتين في الدنيا؛ من حيث تمليك الله لهم أسباب إرادة حرية الاختيار والأسباب المادية والمعنوية لتنفيذ تلك الإرادة، بحسب حال الصراع والاختلاف والافتراق وأخذ كل طائفة سبيلاً خاصاً بها تستمطر به سنن التأييد أو التجريد أو التعذيب، ثم من حيث ما ينتهي إليه الأمر بسبب التفاضل الديني الذي تنعكس نتيجته على التفضيل الكبير في المآل الأخروي.

السنن الربانية ومقاصد الشريعة:

في عالم يحتكم إلى الإسلام ويصدر في عقيدته وسلوكه منه ؛ فإن الناس جميعاً سينعمون بالسعادة الحقيقية ، وتكتنف حياتهم الطمأنينة ، فتتفجر فيهم طاقات الخير ، لتنساب من بين أيديهم الطاهرة سلسيلاً مباركاً ، يفرح به قاطن الأرض ويرضى عنه الرب الذي في السماء ؛ ذلك أن هذا الدين الرباني العظيم يلبي جميع المصالح البشرية الحققة ، ويحافظ على توازن هذه المصالح في أثناء الحركة العامة للمسيرة الإنسانية ؛ إضافة للحركات التفصيلية التي تتشكل من مجموعها تلك الحركة العامة ، فهو توازن محكم بالتفصيل والإجمال .

لقد أخفقت جميع النظم البشرية المبتوتة عن صلة السماء في تحقيق ما يصبو إليه الفرد الإنساني من حياة هائلة سعيدة مطمئنة متوازنة ، وذلك لجهل تلك النظم بالسنن الربانية التي لا يكون التوازن الحقيقي للموكب البشري إلا بمسايرتها ، والتناسق مع خط سيرها والالتزام باتجاهها .

وقد جاءت الشريعة الإسلامية بما يضبط توازن الحركة الإنسانية من خلال حفظ مقاصد الشريعة الخمسة ، والتي بحفظ كل منها منفردة ، وبحفظ طريقة تعاطي كل منها مع بعضها ، وبحفظ كل ذلك في النفس الواحدة ، سواء منفردة أو وهي تتعامل مع باقي النفوس البشرية كأفراد ومجتمعات ، تتم المقاصد الشرعية في إسعاد الإنسان منفرداً ، وكذلك في حفظ المجتمع الإنساني في دائرة التعايش الهنيء الذي ترفرف على أرجائه أعلام السلام .

تلك المقاصد هي :

حفظ الدين ، حفظ النفس ، حفظ النسل (أو العرض) ، حفظ المال ، حفظ العقل .

وقد رتبها آخرون هكذا: الدين ، النفس ، العقل ، النسل ، المال .

إن قدراً من السعادة ، أو كل السعادة ، سيفقدها الفرد الإنساني إذا فقد أيّاً من تلك الكليات كاملة أو فقد بعضاً من إحداها ، أو أبعاضاً من مجموعها ، على أي

من مستويات الضرورة أو الحاجة أو التحسين .

وقد جاءت نصوص الشريعة حافظة لهذه المقاصد الخمسة على كل مستوياتها، متحررة في ذلك من المكان؛ إذ هي مضمونة لكل فرد مسلم أينما وجد، ومتحررة أيضاً من الزمان، فهي إلى قيام الساعة من حيث التطبيق العملي لنصوصها، ثم هي تمتد إلى الآخرة من حيث الآثار النهائية المترتبة على ذلك التطبيق العملي، سواء كان ذلك التطبيق كاملاً أو ناقصاً، جامعاً لكل تلك المقاصد أو مجتزئاً لها، شاملاً لكل المستويات أو مقصوراً على بعضها .

وقد جاءت النصوص الشرعية لضمان أداء تلك المقاصد الخمسة، على الوجه الذي تضمن به المصالح البشرية على كل المستويات الثلاثة، من حيث الوجود ومن حيث العدم(*) .

إن حدود الوجود والعدم هي ما ذكره الشاطبي بقوله: «والحفظ لها يكون بأمرين: أحدهما ما يقيم أركانها ويثبت قواعدها، وذلك بمراعاتها من جانب الوجود، والثاني ما يدرأ عنها الاختلال الواقع أو المتوقع فيها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب العدم»^(١) .

وقد بين الشاطبي في «الموافقات» أن العلاقة بين المستويات الثلاثة تقع في خمسة مطالب؛ هي:

- ١ - أن الضروري أصل لما سواه من الحاجي والتكميلي (أي التحسيني) .
- ٢ - أن اختلال الضروري يلزم منه اختلال الباقي بإطلاق .
- ٣ - أنه لا يلزم من اختلال الباقي اختلال الضروري .
- ٤ - أنه قد يلزم من اختلال التحسيني بإطلاق أو الحاجي بإطلاق اختلال الضروري بوجه ما .

(*) انظر إلى الرسم التوضيحي في صفحة رقم ٣٨ .

(١) الموافقات، الشاطبي، (٢ / ٨) .

٥ - أنه ينبغي المحافظة على الحاجي وعلى التحسيني للضروري^(١).

فإذا أراد «الفرد الإنساني» أو «المجتمع الإنساني» أن يكون متسايراً ومتوافقاً في منهج حياته مع السنن الربانية؛ بحيث لا يقع بينه وبينها أي صدام جزئي أو كلي؛ فلا بد له من مراعاة التقيد بالضوابط الشرعية للمقاصد الخمسة المذكورة، مع فهم لما وضحه الشاطبي لطبيعة العلاقة بين المستويات الثلاثة: الضروري، والحاجي، والتحسيني.

ومعنى ذلك أن الإسلام يلبي بتشريعه جميع كليات وتفصيل الحياة الإنسانية مع ما تتضمنه من تجدد عبر القرون ومن تنوع عبر المكان؛ إذ لا يمكن أن تكون هناك جزئية إلا ولها في الإسلام حكم؛ إما عن طريق النص من كتاب وسنة، وإما عن طريق الإجماع، وإما عن طريق القياس، ومن مجموع ذلك انبنت النظرة الإسلامية في تقويم المصالح النافعة للعباد حقاً لا توهمًا^(*).

قال ابن القيم - رحمه الله - في (أعلام الموقعين): «إن الشريعة مبناها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد. وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث؛ فليست من الشريعة، وإن أدخلت فيها بالتأويل»^(٢).

وقال الأستاذ البوطي: «لا بد إذن أن يعرض نتاج خبرات الناس وتجاربهم وعلومهم على نصوص الشريعة وأحكامها الثابتة، فإذا كان بينها اتفاق أخذ بها،

(١) الموافقات، الشاطبي، (٢ / ١٦، ١٧).

(*) الفرق بين «التشريع» و «السنة» بمعناها اللغوي هو أن:

- التشريع: هو ما ورد عن الله - تعالى - أو رسوله ﷺ بشأن بيان الحكم الشرعي في مسألة ما.

وهذا إما أن يكون له متعلق بالزمان والمكان أو أحدهما، وإما لا يكون له متعلق.

- وأما السنة: فهي الحالة المضطردة التي إذا تحققت مضامينها ظهرت آثارها. و «التشريع» يقع

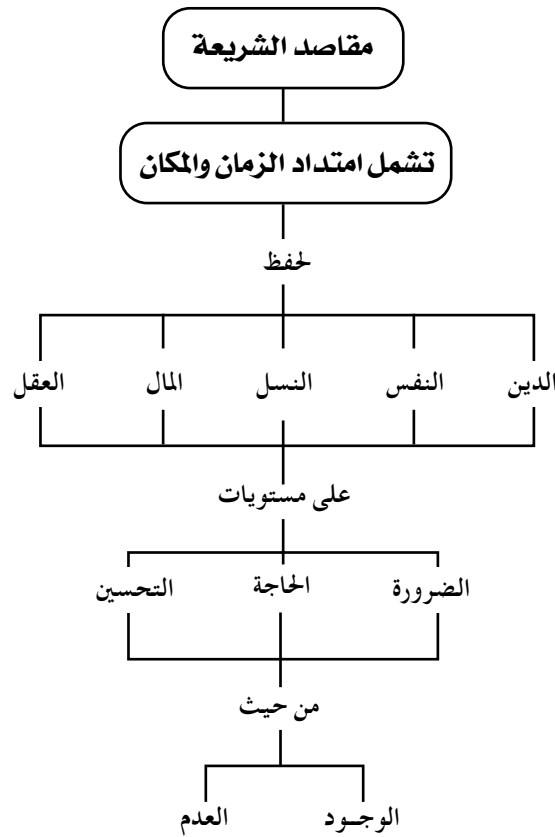
في إطار «السنة» بذلك المفهوم من حيث اتصاف كل جزئية فيه بمضمون من مضامين «السنة»،

مثل «العدالة» في كل شيء؛ بما في ذلك الأمور الخمسة التي ذكرتها، فالمسايرة التامة للسنن

الربانية تقتضي حكماً الأخذ بالتشريع الرباني في مجمله وتفصيله.

(٢) أعلام الموقعين، ابن القيم، (٣ / ٣).

وكان النص هو الحكم في ذلك ، وإن كان بينها تعارض - بأن كان ما رآه الناس مصلحة يعاكس النص الشرعي الثابت - وجب إهمال تلك المصلحة . وليس معنى ذلك أن الشارع قد أهمل مصلحة للناس دلت عليها علومهم وتجاربهم ، بل المعنى أن تقدير هؤلاء الناس لهذه المصلحة لا بد أن يكون قد اتصل به نوع من الخلل والفساد^(١) . وكنت قد بيّنت أن العلم بالسنن الربانية هو على ثلاث مراتب : ضروري ، وحاجي ، وتحسيني .



نلاحظ في الشكل السابق :

أن مقاصد الشرع لها طابع العموم ، فهي تشمل الامتداد المكاني والتتابع

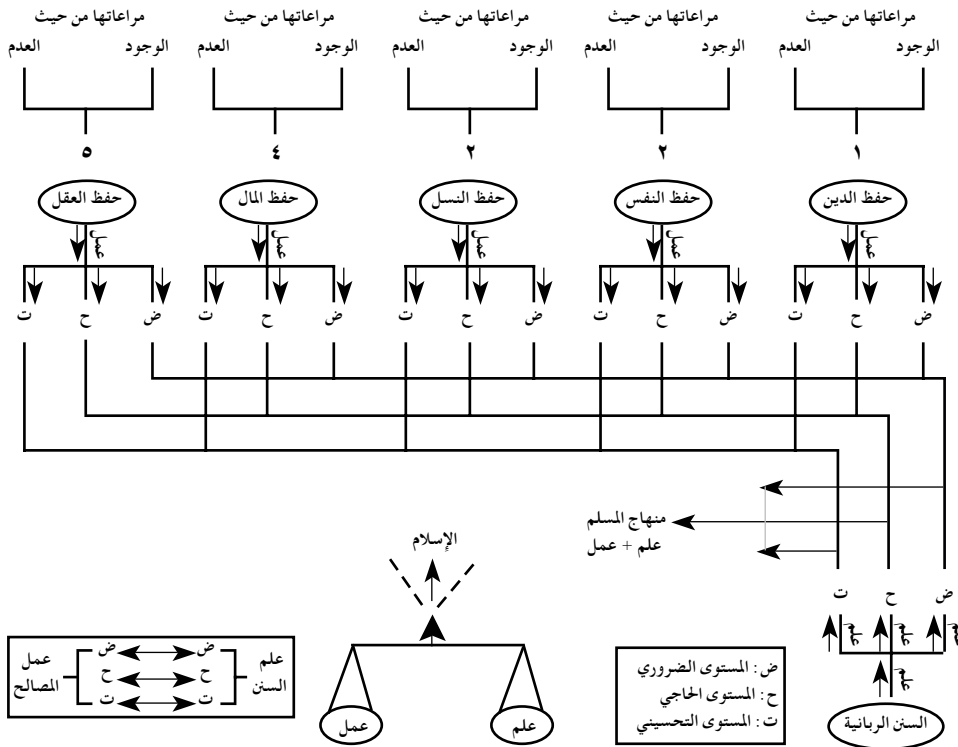
(١) ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية ، د . رمضان البوطي ، ص ٦٧ .

الزماني في آن واحد، متكفلة في حال الأخذ بها تحقيق الحفظ المؤكد للكلية الخمس، وهي: الدين والنفس والنسل والمال والعقل؛ على جميع المستويات الضرورية والحاجية والتحسينية، متوفرة لها جميع الأسباب التي تضمن وجودها، دائرة عنها جميع الطوارئ التي تؤدي إلى عدمها.

السنن ومقاصد الشريعة ومستقبل الإسلام:

قد يظن بعض الناس بسبب المعطيات المعاصرة أن المستقبل للعولمة، ولكننا نقول إن المستقبل للإسلام؛ لأنه ذلك الدين الرباني الذي تكفل الله - تعالى - بجعل المستقبل له، ثم لأنه انبنى على توازن العلم بالسنن(*) مع العمل بالمصالح، كل ذلك، أي العلم والعمل، في إطار الكتاب والسنة. ويوضح الرسم الهيكلي الآتي معنى هذا التوازن وكيفيته:

مخطط العلم والعمل



(*) معنى «السنن» الذي نأخذ به هنا يتضمن أحكام الله - تعالى - وأمره ونهيه حسب ما بيناه في الاصطلاح.

ويلاحظ من الرسم السابق ما يأتي :

١ - أن المؤشر الصحيح للإسلام قائم على توازن العلم مع العمل ، فلو زاد العلم بالسنن عما ينبغي أن يقابله من العمل المقتضى من ذلك العلم ؛ لمال المؤشر عن استقامته التي تمثل الإسلام الصحيح . ولو زاد العمل عما اقتضاه العلم بالسنن ؛ لمال المؤشر عن استقامته التي تستدیم بالعمل الصحيح .

مثاله : أن سنة الله - تعالى - جارية لهذه الأمة في قبول الصلوات المفروضة أن تقع كل منها في وقتها المحدد ابتداءً وانتهاءً ، قال - تعالى - : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ [النساء : ١٠٣] ، فلا بد للمسلم ليكون متوازناً أن يعلم أن سنة الله - تعالى - جارية لهذه الأمة على هذا النحو بخصوص الصلوات المفروضة (إلا ما ورد فيه استثناء) . ثم إن عليه أن يعمل وفق علمه بهذه السنة الجارية ، فمع حصول العلم والعمل يتم التوازن ويأخذ المؤشر وضعه الصحيح ، فلو كان يعلم بهذه السنة الجارية في قبول الصلوات ثم لم يعمل وفق ذلك العلم - بأن صلى الصلاة في غير وقتها المحدد من غير عذر - فإن حاله سيختل وسيميل المؤشر عن وضع التوازن ، وهذا حال من لم يعمل بعلمه .

وعلى الجهة المقابلة ؛ لو كان هذا المسلم لا يعلم بسنة الله الجارية في قبول الصلوات فصلّى ثلاث صلوات في وقت واحد من غير عذر ، أي أن عمله زاد عما ينبغي أن يكون عليه فيما لو كان يعلم بسنة الله الجارية في قبول الصلوات ، فإن هذا المسلم سيختل حاله أيضاً - إلا أن يُعذر بالجهل أو بعذر معتبر شرعاً - ، وسيميل المؤشر عن وضع التوازن ، ومثاله من السنة على المستوى الحاسي خبر الثلاثة الذين سألوا عن عبادة رسول الله ﷺ فكانهم تقالّوها ، وقد مرّ .

٢ - أن العلم بالسنن الربانية على مستوى الضروري يقابله العمل بالكليات الخمس على مستوى الضروري ، فلو تخلف العمل بالكليات الخمس على

مستوى الضروري، أو تخلف العمل بإحداها أو ببعضها، عن العلم بالسنن الربانية على مستوى الضروري، أو حصل العكس؛ فإن مؤشر الإسلام الصحيح سيميل عن وضع التوازن بالنسبة للمسلم الذي وقع منه ذلك.

فالعلم بسنة الله الجارية في أن الله - تعالى - لا يغفر أن يُشرك به؛ يقابله من العمل في كلية حفظ الدين التلطف بالشهادتين، فلو حصل العلم والعمل فإن مؤشر التوازن سيكون باتجاه الإسلام الصحيح. وهذا من معاني حفظ الدين من حيث الوجود. فإن حصل العلم وتخلف العمل، أو العكس، فإن مؤشر التوازن سينحرف عن استقامة الإسلام الصحيح باتجاه ينبغي أن يقوم لدرء الخلل الذي حصل بسبب ذلك. وآخر ما يمكن أن ينحرف إليه المؤشر هو ما يتوجب معه إقامة حد الردة. وأيضاً؛ فإن العلم بسنة الله الجارية أن النفس الإنسانية لا تُستبقى فيها الحياة إلا بأصل الطعام والشراب؛ يقابله من العمل في كلية حفظ النفس تناول الطعام والشراب المشروعين، فلو حصل العلم والعمل فإن مؤشر التوازن سيكون باتجاه الإسلام الصحيح (لهذه الحالة)، وهذا من معاني حفظ النفس من حيث الوجود.

فإن حصل العلم وتخلف العمل، أو العكس، فإن مؤشر التوازن سينحرف عن الاستقامة باتجاه ينبغي أن يقوم لدرء الخلل الذي حصل بسبب ذلك. وآخر ما يمكن أن ينحرف إليه المؤشر هو ما يتوجب معه إقامة حد القتل إن أزهق شخص هذه النفس ورفض الأولياء الفدية أو العفو. فإن قتل نفسه بالانتحار؛ فله مثل فعله في الآخرة - كما ورد في الحديث -.

وعلى شاكلة ذلك يكون القول بشأن توازن العلم بالسنن الربانية - حسب ما هو في الكتاب والسنة - على مستوى الضروري، والعمل بالمصالح على مستوى الضروري؛ لكل من «النسل» و«المال» و«العقل».

٣ - أن العلم بالسنن الربانية على مستوى الحاجي ؛ يوازنه العمل بالكليات الخمس على مستوى الحاجي . وكذلك فإن العلم بالسنن الربانية على مستوى التحسيني ؛ يوازنه العمل بالكليات الخمس على مستوى التحسيني .

فلو اختل التوازن بين العلم والعمل لأي منهما ؛ فإن المؤثر سينحرف عن وضع الاستقامة بمقدار الخلل الذي حصل .

٤ - في كل الأحوال ؛ فإن العلم بالسنن الربانية - يتضمن العلم بأوامر الله تعالى ونواهيه - يقع مقدماً على العمل ؛ بمعنى ألا يكون العمل إلا بعلم ، فالعلم سابق والعمل لاحق . والعلم بالسنن الربانية فيما يخص إقامة منهج الحياة الإنسانية ؛ لا يكون إلا عن طريق الشرع ولا تستقل العقول به ابتداءً ، ولهذا كان أول ما نزل على رسول الله ﷺ قوله - تعالى - : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق : ١] ؛ ذلك أن الذي خلق هو الذي يضع المنهج لخلقه .

٥ - أن الذين تناط بهم عملية التغيير في مجرى الحياة الإنسانية لإعادة البناء وفق المعايير الربانية ؛ هم العلماء العاملون الذين يحققون التوازن بين العلم بالسنن الربانية - المتضمنة للتشريع الرباني - والعمل بالمصالح وفقها ؛ سواء على مستوى القضايا الكلية أو القضايا التفصيلية .

٦ - أن المنهج الإسلامي باعتبار كونه من الله - تعالى - ؛ فإنه هو وحده فقط مؤهل باستمرار لإفراز ما يلائم الأوضاع المتغيرة ، وهؤلاء هم المجددون ؛ سواء كانوا أفراداً أو جماعات ، وسواء كانوا في بلد واحد أو في بلدان متعددة .

٧ - أن هذه الاجتهادات المتجددة على مر الزمن تضيف الحيوية المتجددة في سريان هذا الدين في شرايين الحياة البشرية ؛ بما يجعله متفوقاً باستمرار على تقييدات المكان أو تحديدات الزمان . ومعنى تفوقه على تقييدات المكان ؛ أنه قابل لشمول كل الأرض ، ومعنى تفوقه على تقييدات الزمان ؛ أنه قابل لفعل ذلك

مرات كثيرة متجددة ومتكررة، ومن خلال ذلك نفهم قوله - تعالى -: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩]؛ ولذلك دائماً يكون قولنا: إن المستقبل للإسلام وليس للعولمة أو غيرها؛ هو قول مستند إلى الحقائق الذاتية التي يحملها الإسلام في طياته؛ بما في ذلك إفرازه للرجال الذين يعبرون عنه، فمن قال في القرن الأول: «إن المستقبل للإسلام» صدق، ومن قال ذلك الآن - أي في القرن الخامس عشر الهجري - صدق. ولكن تبقى لكل عصر خصوصياته؛ إذ إن سياق الركب البشري لا يثبت على حال، بل هو في تغير مستمر وهو يطوي بساط التاريخ^(١).

لقد تبين لنا في هذا الفصل أن السنن الجارية ربانية المصدر، أصيلة المنبع، ثابتة الاتجاه، وأن الجمع بين العلم بها وبين العمل بمقاصد الشرع (وهو العمل بمقتضاها) يقود إلى المستقبل المشرق للإسلام. ولنا عودة مع هذه النتيجة عند حديثنا عن التدافع.

(١) الانهيار، د. سامي الدلال، (١/٩٧، ١٠٧)، بتصرف.

الفصل الثاني

العولمة

- تعريف العولمة .
- تاريخ العولمة .
- المشرفون على العولمة المعاصرة .
- مؤسسات العولمة .
- وسائل نشر العولمة .
- قصور العولمة المعاصرة عن بلوغ غاياتها .
- مفرزات العولمة المعاصرة :
 - أولاً : عقد مؤتمرات عالمية .
 - ثانياً : العولمة الاقتصادية .
 - ثالثاً : العولمة الثقافية .
 - رابعاً : طمس هوية الشعوب وتشويه عقائدها وثقافتها وتاريخها .
- خامساً : عولمة مناهج الحكم .
- سادساً : العولمة الاستراتيجية .

العولمة

تعريف العولمة:

هي تعريب لكلمة «Globalization» في اللغة الإنكليزية، وهذا التعريب مشتق من لفظة «العالمية»، ومعناها بالمفهوم المطلق: «تعميم شيء ما على البشرية على مستوى العالم»، فيصبح هذا الشيء بعد التعميم عالمياً، ومنها اشتقت كلمة العولمة.

إن هذا «الشيء» انقسم أصحاب الفكر والاختصاص في تعيينه، وأوجد كل منهم مدرسة خاصة به (أو بهم) ينطلق من خلالها لتحديد مفهوم العولمة.

ويمكننا أن نرصد اتجاهين رئيسين في تحديد هذا «الشيء».

الاتجاه الأول: الشيء المحدد، كالقول بالعولمة العقدية أو العولمة الفكرية أو العولمة الثقافية أو العولمة الاقتصادية أو العولمة السياسية أو العولمة الإدارية أو العولمة التقنية، أو مزج بعض هذه العولمات مع بعضها الآخر؛ كالقول بالعولمة الاقتصادية السياسية أو العولمة الإدارية التربوية، وهكذا. وقد انتقى بعض المهتمين تعريفات للعولمة في إطار هذا الاتجاه، كقولهم:

* «هيمنة النزعة السوقية الكونية، وظهور السوق الاقتصادي بوصفه مبتدأ الموقف ومنتهاه»، وهي «طبعة جديدة من نظرية ملء الفراغ التي فرضت على مسرح الساحة الدولية قبل خمسين عاماً، ثم أعيدت صياغتها بما يتلاءم ومقتضيات الوضع العالمي الجديد» (د. عبد العزيز التويجري، المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة إيسيسكو).

* «سيادة العنصر الاقتصادي وتهميش الجانب الثقافي والسياسي» (د. كمال

أبو المجد).

* «حقبة التحول الرأسمالي العميق للإنسانية جمعاء في ظل هيمنة قوى جبارة تقود عمليات التنمية الاقتصادية عالمياً، وتشكل اتجاهاتها الرئيسية» (رئيس غرفة تجارة وصناعة البحرين).

قال آخرون:

* «إنها تعبير عن السياسات الرامية إلى إلغاء القيود التي تعوق حركة السلع والمنتجات والأفراد؛ لدمج جميع الأسواق في سوق رأسمالية مفتوحة».

* «إنها التعبير الفكري عن مشروع الرأسمالية متعدد الجنسيات».

الاتجاه الثاني: الشيء بمعناه الشامل، فإذا قالوا «عولمة» قصدوا بها جميع «العولمات» التي ذكرناها، فهي عولمة شاملة غير متجزئة. ومن تعريفاتهم قولهم: «إنها تشكيل وبلورة العالم بوصفه موقفاً واحداً، وظهور لحالة إنسانية عالمية واحدة» (روبرتسون)^(١).

ضمن هذا الاتجاه تولّد اصطلاح جديد يعتني بتحديد المفهوم والمصادر، وقد نصَّ على هذا التوجه زبغنيو بريجنسكي عندما عرّف مفهوم العولمة بأنه «المدينة الكونية»، وأن مصدرها هو الولايات المتحدة؛ لأنها «المجتمع الكلي» الأول في التاريخ^(٢).

وبعد أن سُقت تعاريف العولمة ضمن إطار الاتجاهين المذكورين؛ فإنني أثبت هنا تعريفني الخاص بالعولمة التي أَخَذَت الآن منحها العالمي في جميع الاتجاهات، فأقول: إن العولمة هي صيغ تنفيذية عملية تنبثق من أفكار مسبقة؛ بغية إعادة صياغة الهوية الخصوصية للأفراد والشعوب جميعاً في كل المناحي

(١) ظاهرة العولمة، رؤية عقدية، د. بركات محمد مراد، ص ٩١.

(٢) المصدر السابق، ص ٩٥.

الحياتية (فكرية، سلوكية، سياسية، اقتصادية، تربوية اجتماعية، إدارية، قانونية، ثقافية، وغيرها)؛ وفق منظور بشري بحث لتحقيق أهداف محددة.

وهنا نركز على كلمة «منظور بشري» أي لعللاقة له بالوحي، أي بالإسلام، كما نركز أيضاً على كلمة «لتحقيق أهداف محددة».

إن هذه الأهداف لها مساحتان متداخلتان :

الأولى : هي توسيع رقعة الانتماءات المادية (فكراً أو سلوكاً).

الثانية : هي تقليص رقعة الانتماءات الإيمانية (عقيدة وسلوكاً) ؛ أي تقليص أو مصادرة أو إعادة صياغة الخصوصية الإسلامية لمصلحة مناهج العولمة المادية بمعناها الشمولي .

تاريخ العولمة:

العولمة تاريخها قديم، لكن الذي يتجدد هو وسائلها، وتتسع مساحة العولمة بقدر اتساع وسائلها، فالاستعمار القديم الذي شمل جميع الرقعة الإسلامية تقريباً هو لون من ألوان العولمة، لكنه لم يتمكن من تجاوز المفهوم العسكري بسبب قوة الحصانة الإسلامية.

وفي القرن التاسع عشر وخلال النصف الأول من هذا القرن تمكنت العولمة من إحداث اختراق في الهوية الإسلامية ؛ من خلال تطور وسائل الطباعة والنشر.

وفي النصف الثاني من هذا القرن ازداد اختراق العولمة للهوية الإسلامية ؛ من خلال تطور أجهزة المواصلات والاتصالات، وباتت الوسائل الإذاعية والتلفزيونية والنشر والحاسوب وشبكات الإنترنت من أبرز وسائل العولمة.

إن المرحلة الجديدة في تطور وسائل العولمة باستخدام ثروة المعلومات والاتصالات ؛ تشكّل مزيداً من الاختراق في الهوية الإسلامية.

المشرفون على العولمة المعاصرة :

* أديان : يهود ، نصارى .

* دول : الولايات المتحدة ، أوروبا الغربية ، المثلث الآسيوي : اليابان ، الصين ، روسيا .

* قيادة : الولايات المتحدة .

قال فريدمان : «نحن أمام معارك سياسية وحضارية فظيعة ، العولمة هي الأمركة ، والولايات المتحدة قوة مجنونة ، نحن قوة ثورية خطيرة ، وأولئك الذين يخشوننا على حق . إن صندوق النقد قطة أليفة بالمقارنة مع العولمة . في الماضي كان الكبير يأكل الصغير ، أما الآن فالسريع يأكل البطيء»^(١) .

وقال الرئيس الأمريكي السابق كلينتون : «ستكون العولمة حظ الولايات المتحدة الواعد ، ولن تشكل أية عرقلة لتقدمها ، سنقيم عالماً جديداً بحدود جديدة يجب توسيعها ، ولن يشكل قيام العولمة أي تهديد لنا»^(٢) .

نلاحظ أن المشرفين على «العولمة» كاتتماءات دينية كلهم معادون للإسلام ، وأن الدول التي تشرف على نشر العولمة هي دول معادية للإسلام ، وأن قيادة العولمة بيد دولة معادية للإسلام ، فالعولمة من هذه الوجهة هي حرب على الإسلام .

مؤسسات العولمة:

هي كثيرة ، ولكن من أبرزها :

١ - منظمة الأمم المتحدة UN.

(١) الاقتصاد الإسلامي ، عدد أكتوبر ٩٨ ، عن كتاب محمد حبيب الخوجة : (إيجابيات وسلبيات العولمة) .

(٢) الاقتصاد الإسلامي ، عدد أكتوبر ٩٨ ، عن كتاب عبد الهادي أبوطالب : (لا بد من تكامل العولمة) .

- ٢ - صندوق النقد الدولي IMF.
 - ٣ - البنك الدولي للإنشاء والتعمير IBRO.
 - ٤ - اتفاقية «الجات» والتي تحولت بعد ذلك إلى «منظمة التجارة العالمية» WTO، وأعضاؤها ١٢٨ دولة (لغاية ١٣ / ١٢ / ٩٦ م) (١).
 - ٥ - منظمة الوحدة الأوروبية بجميع عناوينها.
 - ٦ - حلف الأطلسي.
 - ٧ - نادي باريس: وهو مؤسسة مالية ذات سلطة كبيرة ومعقدة، ولا تملك المنظمة ميثاقاً أو قواعد عمل أو عضوية ثابتة أو رسمية، ودورها بارز في جدولة القروض الرسمية للبلدان النامية والفقيرة.
- من خلال التدقيق في مؤسسات نشر العولمة؛ نلاحظ الإمكانيات الهائلة المتاحة لها على كل المستويات السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية وغيرها بلا حدود، مع توفير جميع الإمكانيات وتيسير كل السبل لتغطي أرجاء المعمورة بدون معوقات أو عراقيل.

وسائل نشر العولمة:

إن التقنية الحديثة هي الوسيلة الرئيسة في نشر العولمة، وتتمثل في:

- الحاسوب.

(١) اتفاقيات الجات وُقِّعَ عليها بمراكش عام ١٩٩٤م، وتشمل:

- ١ - تحرير تجارة السلع الزراعية والصناعية.
 - ٢ - تحرير تجارة المنسوجات والملابس.
 - ٣ - تحرير عمليات حقوق الملكية الفردية.
 - ٤ - تحرير المبادلات والتدفقات المالية الناتجة عن العقود الحكومية الضخمة.
 - ٥ - تحرير تجارة الخدمات (والسياحة خاصة).
- وهي تخدم البلدان الصناعية، حيث تستحوذ (٥) دول على ١٧٢ شركة عالمية، مجموع ٢٠٠ شركة عالمية تسيطر على اقتصاديات المجتمع الدولي.

- الإنترنت .
 - الأقمار الصناعية والبث الفضائي .
 - الصحافة الدولية ومؤسسات النشر (المسموعة والمقروءة والمرئية) .
 - السياحة والرياضة .
 - بنوك المعلومات وبنوك المال .
 - السينما .
 - المؤتمرات والندوات .
 - المؤسسات بجميع تخصصاتها .
- إن معظم هذه الوسائل هي أيضاً مستخدمة لنشر الإسلام عالمياً، ولكن بشكل محدود جداً، لا يكاد يقارن مع استعمالاتها الكبيرة في نشر العولمة .

قصور العولمة المعاصرة عن بلوغ غاياتها:

- لن تتمكن العولمة المعاصرة من تحقيق غاياتها في إعادة صياغة الهوية الخصوصية للشعوب للأسباب الآتية :
- ١ - افتقارها للمنهاج العام الذي يعتبر مرجعية مكتوبة أو مقننة .
 - ٢ - بشرية منطلقاتها الفكرية (ومفهوم البشرية يتضمن التعدد الفكري، والقصور الذاتي) .
 - ٣ - جهلها بالسنن الربانية (مما يؤدي إلى اصطدامها بها) .
 - ٤ - اعتمادها على أساسين غير دائمين :
 - أ - قوة النفوذ الغربي .
 - ب - التقنية الفائقة المعاصرة .

وكلاهما مهدد بالتقويض في حالة نشوب حرب كونية .

٥ - الدخول في صراعات كثيرة ومنوعة مع خصوصيات الشعوب .

٦ - افتقادها للبعد الزمني التاريخي الشمولي ؛ مما يلحقها - بالنسبة لكل أمة من الأمم على حدة - بالأمور «الطارئة» . و «الطارئ» لا يستطيع أن «يلغي الجذور التاريخية» للشعوب والأمم .

إن العولمة المعاصرة تمثل «تياراً عاماً» يدفع إلى الأمام بوسائط تقنية ووسائل أخرى ، لكنه ليس «مشروعاً حضارياً متناسقاً ومتكاملاً» ، ولذلك فإن الإخفاق هو منتهى طريقها .

مضرات «العولمة المعاصرة»:

تتمثل مضرات العولمة المعاصرة في سلوك منحى العولمة المركزية ، المنظمة والمتخصصة ، والتي إذا جمعت مفردات تخصصاتها شكّلت المساحة المتاحة من العولمة العامة الشاملة . إن الاتجاه الحالي للعولمة هو في بذل الجهود الدولية والعالمية لاستكمال الشمولية لتغطية جميع مساحة العولمة العامة من خلال استكمال مفرداتها التفصيلية . وقد تطلّب ذلك جهوداً مضنية بُذلت ، ولا تزال تُبذل لتحقيق الوصول لهذه الغاية .

ولعلنا نشير إلى بعض تلك الجهود وفق النقاط الآتية :

أولاً: عقد مؤتمرات عالمية؛ منها:

- * مؤتمر «البيئة والتنمية» في ريودجانيرو ١٩٩٢ م .
- * مؤتمر «حقوق الإنسان» في فيينا ١٩٩٣ م .
- * مؤتمر «الإسكان والتنمية» في القاهرة ١٩٩٢ م .
- * مؤتمر «التنمية الاجتماعية» في كوبنهاجن ١٩٩٥ م .

* مؤتمرات «المرأة» :

- في نيومكسيكو ١٩٧٥ م.

- في كوبنهاجن ١٩٨٠ م.

- في نيروبي ١٩٨٥ م.

- في بكين ١٩٩٥ م.

* ندوة «البديل الثالث» جامعة نيويورك، سبتمبر ١٩٩٨ م.

* المؤتمر العالمي لـ «العولمة» في دافوس السويسرية ١٩٩٩ م (حضره حوالي ١٥٠٠ شخصية عالمية متخصصة).

* مؤتمر «الذهب النازي» في بريطانيا ١٩٩٩ م (شارك فيه ٤٦ دولة و ٦ منظمات دولية غير حكومية على رأسها المجلس اليهودي العالمي).

* مؤتمر «الصحة الإنجابية» القاهرة، فبراير ١٩٩٩ م.

* مؤتمر «الشباب» بانكوك، مارس ١٩٩٩ م.

* مؤتمر «سفراء الشباب» سان فرانسيسكو، يونيو ١٩٩٩ م.

* مؤتمر «العنف ضد النساء» نيويورك، مارس ١٩٩٩ م.

* منظمات شبابية بأسماء «منظمة اليوم الواحد»، «منتدى الشباب»، «مؤسسة جسر الحياة» . . وغيرها.

ثانياً: العولمة الاقتصادية:

وذلك من خلال تشكيل هيئات اقتصادية كبيرة، تتمكن بإحكام هيمنتها ونفوذها من السيطرة على أدوات السوق الدولية، وأكتفي للتدليل على ذلك بنموذج واحد فقط، وهو نموذج «الاندماج»؛ مثل اندماج:

* شركات صناعية عملاقة ؛ كاندماج شركتي «ديملرز» و «كرايسلر» .

* شركات بترول ؛ مثل :

- «أكسون» و «موبيل» (مقدار رأس المال ٢١٤ ملياراً) .

- «رويال داتش» و «شل» (مقدار رأس المال ١٦٢ ملياراً) .

- «بريتيش بتروليوم» و «أموكو» (مقدار رأس المال ١٤٩ ملياراً) .

* بنوك كبيرة في أوروبا وأمريكا .

وقد ذكر «تقرير الشال الاقتصادي» أن في الولايات المتحدة الأمريكية وحدها حدثت ٣٣٨٥ عملية شراء واندماج خلال النصف الأول من عام ٢٠٠٢م، وفي بريطانيا نحو ١١٥٠ عملية اندماج، وفي ألمانيا نحو ٥٣٨ عملية، وفي فرنسا نحو ٥٠٤ عملية، وفي الصين نحو ٤٥٢ عملية، وفي كوريا الجنوبية نحو ٨٢ عملية، وفي البرازيل نحو ٨١ عملية، وفي المكسيك نحو ٤٢ عملية، وبالجمله فإن بيانات تنشرها مجلة الإيكونوميست نقلاً عن dialogic - uk أن عدد عمليات الشراء والاندماج في النصف الأول من عام ٢٠٠٢م قد بلغت ١١٨٨٧ عملية، وبقيمة إجمالية في حدود ٦٤٥ ملياراً^(١) .

إن هذه الشركات الضخمة والبنوك المتخمة تستخدم قواها الاقتصادية في دعم عملية العولمة من خلال التأثير في :

- دخول الدول النامية .

- خطط التنمية فيها .

- ابتزاز اقتصاد الدول النامية من خلال السيطرة على مشاريعها الاقتصادية .

(١) تكامل النظام المصرفي الإسلامي وآثاره التنموية، أ.د. عبد الحميد البعلي، ص ٢، (النسخة غير المطبوعة) .

- إضفاء أساليب التغريب على مناهج الحياة فيها؛ لتقليص أو مصادرة خصوصياتها الوطنية أو الإقليمية؛ من خلال إخضاعها اقتصادياً أو سياسياً.

وقد أكدت مصادر اقتصادية أن احتكارات البلدان الغربية قد ابتزت من هذه الدول في الفترة من ١٩٧٠م إلى ١٩٨٠م مبالغ قدرها ١٢٥ مليار دولار.

ورغم أن الاقتصاد الربوي قد أنشأ أنيابه بقوة في جميع أنحاء الجسد البشري على المستوى العالمي مبتلعا في طياته الأفراد والشعوب، سواء منها الإسلامية وغير الإسلامية، إلا أن جهود الصحوة الإسلامية قد أثمرت - ولو بشكل ضئيل - في التخلص شيئاً ما من برائن بعض تلك الأنياب الحادة، حيث أنشئت المصارف الإسلامية وبعض المؤسسات الاقتصادية القائمة على المنهج الإسلامي في المعاملات المالية، وذلك بغرض تحقيق الممارسات التجارية والاستثمارية والمصرفية على أسس إسلامية. وقد تحددت الخطوط العريضة لهذا التوجه - كما يراه الدكتور البعلي - فيما يأتي :

١ - نبذ الفوائد الربوية بأشكالها المختلفة أخذاً وعطاءً.

٢ - ممارسة الاتجاه المباشر.

٣ - ملكية أصول لغايات الاستثمار.

٤ - المشاركة المباشرة في مشاريع منتجة^(١).

كل ذلك باعتبار أن التوازن الاقتصادي في المجتمع الإسلامي هو أحد المقاصد التي رمت الشريعة إلى تحقيقها.

وقد بين د. البعلي أن «البنوك في ظل استراتيجياتها السابقة؛ متفردة بهويتها، لا تصدر الأزمات الاقتصادية، بل تقدم منهجاً متفرداً، وتصدر الحلول

(١) المصدر السابق، ص ١٣.

للمشكلات، حيث تستطيع في ظل استراتيجية واضحة أن تستأثر وتستأسد بحصة من السوق المصرفية لا يستطيع غيرها أن ينافسها فيها، وهي:

- ١ - شريحة الذين لا يرغبون في التعامل بسعر الفائدة.
- ٢ - شريحة الذين يرغبون في الحصول على مزايا العمل المصرفي الإسلامي.
- ٣ - شريحة الذين ينادون بتنمية حقيقية مستمرة تقوم على بناء اقتصاد إنتاجي حقيقي^(١).

إن العولمة الاقتصادية، والتي يُقصد منها فرض هيمنة الدول الغنية بقصد امتصاص خيرات الدول الفقيرة وثرواتها، ستؤدي إلى تفاقم الأزمات الاقتصادية؛ إذ لا يزال نحو ٩٠٠ مليون نسمة يعيشون في فقر مدقع، و ٨٢٦ مليون نسمة يعانون من سوء التغذية، ومليار نسمة يفتقرون إلى مصادر مياه مناسبة، و ١١٥ مليون طفل لا يتلقون تعليماً، و ١٠٪ من مواليد جنوب الصحراء في إفريقيا يموتون^(٢).

وقد جاءت مؤشرات التدهور الاقتصادي الشديد في العالم العربي لتؤكد عدم قدرته على الصمود أمام الضغوط الاقتصادية للدول الغنية، لقد انخفض معدل النمو الحقيقي للنتاج المحلي الإجمالي لسبع عشرة دولة عربية من ٤,٢ ٪ عام ٢٠٠٠م إلى ٣,٩ ٪ عام ٢٠٠١م، وتراجع مؤشر الاستثمار عام ٢٠٠١م بنحو ٧,٠ نقطة مقابل ١,٢ نقطة عام ٢٠٠٠م. كما أن خمس عشرة دولة عربية تعاني ندرة شديدة في المياه، أو هي فعلاً تحت خطر الفقر في المياه. لكل ذلك؛ فإن مؤشر التنمية البشرية (H.D.I) يضع البلاد العربية في المؤخرة ما بين ١١١ دولة باستثناء إفريقيا. ولقد أدت أزمة آسيا الاقتصادية إلى هبوط معدل نمو تجارة السلع

(١) المصدر السابق، ص ٤٠.

(٢) تقرير شال الاقتصادي (رقم ٤٣)، عدد ١١ لسنة ٢٠٠١م؛ نقلاً عن المصدر السابق، ص ١٦.

العالمية من نحو ١١ ٪ عام ١٩٩٧ م إلى ٥ ٪ لعامي ١٩٩٨ م و ١٩٩٩ م؛ مما زاد من تفاقم الأزمة الاقتصادية في العالم العربي . ولقد جاء التصنيف العالمي للدول بحسب إنجازاتها التقنية كرياض عاتية عرّت حقيقة الأوضاع المزرية والمتردية للاقتصاد في البلاد العربية؛ إذ تم تصنيف الدول إلى خمس فئات: القادة، والقادة المحتملون، والنشطون، والمهمشون، والآخرين. ضمن هذا التصنيف جاءت ١٨ دولة في فئة القادة؛ من بينها دولة الكيان اليهودي، و ١٨ دولة ضمن القادة المحتملون؛ ليس بينها بلد مسلم سوى ماليزيا^(١).

بهذه المقاييس؛ فإن البلاد العربية والإسلامية لن تقوى بتاتاً على مقاومة أعاصير العولمة الاقتصادية، على الأقل على مستوى الزمن المنظور، والذي قد يمتد عقوداً، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار أن دعائم العولمة الاقتصادية قد أرست ركائزها في أعماق البنى الاقتصادية الدولية من خلال:

- التعميم العالمي لعمليات الإنتاج والتسويق للصناعات الحديثة ذات التقنية الفائقة .

- نمو حجم التجارة الدولية وتنوعها .

- انتقال رؤوس الأموال عبر الحدود .

- زيادة الشركات متعددة الجنسيات في عددها ونشاطها^(٢) .

غير أن ذلك كله يعتمد بشكل أساسي على حالة الاقتصاد الأمريكي، والذي بدأت أركانه تتزلزل بسبب المشروع الأمريكي الظلامي، والمتلخص بالسيادة على

(١) الإحصاءات المذكورة مستقاة من تكامل النظام المصرفي الإسلامي وآثاره التنموية، أ. د. عبد الحميد البعلي، ص ١٦، ١٧ .

(٢) العولمة وأبعادها، خالد أحمد الحربي، بحث نشر في كتاب (رسالة المسلم في حقبة العولمة)، إعداد مركز البحوث والدراسات، قطر، ص ٦٣٠ .

العالم باستعمال القوى المسلحة الكاسحة تحت شعار (الحروب الاستباقية)؛ للقضاء على التهديد الذي تستحدثه الولايات المتحدة نفسها - إذ لم يكن موجوداً في الأصل -؛ ليكون غطاءً لشن الحروب الغاشمة كما حصل في أفغانستان ثم العراق .

إن العولمة الاقتصادية الأمريكية قد تعرضت وستعرض إلى هزات متوالية؛ كلما أصرت على خوض الحروب الباهظة التكاليف، يقول فهد بن عبد الرحمن آل ثاني في بحثه القيم (جدلية تنفيذ الاستراتيجية الأمريكية في الشرق الأوسط): «أما بالنسبة للولايات المتحدة فقاتلت ما يقارب عقداً من الزمن، منذ انتهاء الحرب الباردة، لكي تطبق استراتيجية عولمة العالم على الطريقة الأمريكية، ولكن هذه الاستراتيجية فشلت - فيما نرى - فشلاً ذريعاً في العالم، وخاصة في الشرق الأوسط . ولعل من أهم الدلائل على ذلك أن العجز التجاري الأمريكي قفز من ١٠٠ مليار دولار عام ١٩٩٠م إلى ٤٥٠ مليار دولار عام ٢٠٠٠م، والأخطر في العجز التجاري في عام ٢٠٠٠م هو أن الواردات النفطية لا تشكل إلا ١٨٪ من الواردات الأمريكية، أما ٨٢٪ الباقية فهي سلع صناعية مستوردة . يضاف إلى ذلك أن العجز التبادلي مع الصين بلغ في عام ٢٠٠١م ٨٣ مليار دولار، وهذا يؤكد الفشل الأمريكي في إدارة عولمة العالم، وأن أمريكا أصبحت في موقع التبعية لا موقع الحكم . يقول الكاتب الفرنسي إيمانويل تود: إن الإمبراطورية الأمريكية أشبه بالإمبراطورية الرومانية التي كانت تعتمد على الاستيراد الخارجي؛ منها إلى الإمبراطورية السوفييتية التي كانت تعتمد على الاكتفاء الذاتي، فأمرى أمريكا إمبراطورية للاستهلاك لا للإنتاج، وحاجتها إلى العالم في استهلاكها أشد من حاجة العالم إليها في إنتاجها . ولكن في الوقت الذي بات فيه العالم ضرورياً لها لتحافظ على مستوى استهلاكها الإمبراطوري؛ فإن هذا العالم نفسه لا يقع تحت سيطرتها الاستراتيجية، فالقبطان الندان لها في مجال

الإنتاج الصناعي، وهما الاتحاد الأوروبي واليابان، يبلغ العجز التجاري الأمريكي مقابلهما ٦٠ مليار دولار و ٦٨ مليار دولار - على التوالي - . فبالنظر إلى التجمعهما مع أمريكا علاقة تبعية كما يقضي المنطق الإمبراطوري، كذلك فإن القطبين الكبيرين الآخرين في العالم - وهما الصين وروسيا - يقفان خارج مجال سيطرة واشنطن الاستراتيجية، لا سيما أن روسيا تتمتع باستقلالية نووية تامة. وعندما شعرت أمريكا بعجزها التجاري الكبير مع الصين، وكذلك مخافة أن تطور الصين نوعاً ما من تكنولوجيا الأسلحة الذكية؛ عملت على محاربة تصدير التقنية إليها، ففي عام ٢٠٠١م مثلاً تسلمت وزارة التجارة الأمريكية ١٢٩٤ طلباً فيما يتعلق بتصدير التكنولوجيا إلى الصين، ٧٢٪ من الطلبات حصلت على موافقة؛ بينما رفضت وزارة التجارة الأمريكية ٢٨٪ من الطلبات. إن أمريكا ستحاول تطبيق سيطرتها العالمية من خلال محاولة المحافظة على تفوقها على ٧٢٪ من احتياجات النفط في العالم، و ٣٥٪ من احتياجات الغاز الطبيعي^(١).

إن المسلك الأمريكي المتغرس والمتسّم بالاستعلاء، واتخاذها من العولمة جسراً تعبر بواسطته إلى خصوصيات الشعوب، وتسيطر بذلك على اقتصادها وثرواتها؛ قد حرّك كثيراً من شعوب العالم ضد العولمة، أو إن شئت قلت ضد الأمركة، فحيثما يعقد «مؤتمر التجارة العالمية» اجتماعاته تخرج المظاهرات الشعبية العارمة للتنديد بالعولمة؛ باعتبار هذا المؤتمر هو من أهم وجوهها. ومن اللافت للنظر حقاً أن تكون مدينة «سياتل» الأمريكية من أبرز المدن التي حصلت فيها المواجهات الكبرى ضد العولمة عام ١٩٩٩م، وكذا ما حصل في بومباي لدى عقد المؤتمر فيها في يناير ٢٠٠٤م، حيث تجمع أكثر من ٨٠ ألفاً من المتظاهرين، قدموا من ١٣٠ دولة خصيصاً للاحتجاج على العولمة. غير أن مقاومة العولمة

(١) جدلية تنفيذ الاستراتيجية الأمريكية في الشرق الأوسط، فهد بن عبد الرحمن آل ثاني، بحث نشر في كتاب (رسالة المسلم في حقبة العولمة) مصدر سابق، ص ١٥٥-١٥٧.

الاقتصادية لا تكفي المظاهرات لإيقاف امتداد فاعليتها؛ إذ لا بد من تفعيل
الإمكانات الاقتصادية المتاحة، وخاصة فيما يتعلق بالعالم الإسلامي، ومن
ضمنه العالم العربي الذي يغطي مساحة قدرها حوالي ١٤ مليون كيلو متراً
مربعاً، يقطنه حوالي ٢٥٠ مليون نسمة، بلغ ناتجه الخام عام ٢٠٠٠م ٦٠٣,٥
بليون دولار بحسب ما ورد في برنامج الأمم المتحدة للتنمية عام ٢٠٠٢م، ويخزن
في جوفه ما يمثل ٥٦٪ من النفط و ٢٥٪ من الغاز من مجموع المخزون العالمي؛
فضلاً عن موارده المائية والمساحات الكبيرة من الأراضي المتاحة للاستثمار
الزراعي بشكل واسع.

إن التحدي الاقتصادي الذي يواجهه العالم الإسلامي ذو طابع فريد وحاسم
وقوي، إن على المخططين الإسلاميين الاقتصاديين الاستراتيجيين أن يجيلوا
النظر جيداً في الأرقام الاقتصادية التي تدق بعنف ناقوس الخطر للزمن القادم،
ومن تلك الأرقام - على سبيل المثال - ما ذكره الدكتور مالك الأحمد في بحثه
(العولمة مفاهيم ومقارنة)، حيث ذكر أن:

- ٥٠٠ شركة عملاقة عابرة للقارات تسيطر على ٧٠٪ من حركة التجارة
العالمية.

- ٣٥٠ شركة استأثرت بـ ٤٠٪ من التجارة العالمية.

- ٦ شركات تسيطر على ٨٥٪ من تجارة الحبوب.

- ٣ شركات تسيطر على ٨٣٪ من تجارة الكاكاو.

- ٧ شركات تسيطر على ٩٠٪ من تجارة الشاي.

- ٣ شركات تسيطر على ٨٠٪ من تجارة الموز.

- ٣٥٨ فرداً يملك الواحد منهم مليار دولار على الأقل؛ بما يضاهي ما يملكه
٢,٥ مليار نسمة.

- يوجد في الدول النامية ٣, ١ مليار شخص يعيشون بأقل من دولار واحد في اليوم، و ١١٪ من سكان الدول الصناعية يعيشون بأقل من ٤, ١١ دولار.

- يمتلك أغنى ثلاثة أشخاص في العالم أكثر من مجموع الناتج الإجمالي الداخلي للدول الـ ٤٨ الأكثر فقراً في العالم، فيما يمتلك أغنى ١٥ شخصاً في العالم أكثر من مجموع الناتج الإجمالي الداخلي لدول إفريقيا الواقعة جنوب الصحراء، ويمتلك أغنى ٣٢ شخصاً في العالم أكثر من الناتج الإجمالي الداخلي لدول آسيا الجنوبية.

- ٢٠٪ من قوة العمل ستكفي حالياً لإنتاج جميع السلع التي يحتاج إليها المجتمع العالمي، ٨٠٪ ستواجه شيئاً آخر.

- تكلف تلبية الاحتياجات الغذائية الأساسية لسكان العالم ١٣ مليار دولار؛ في حين تكلف أغذية الحيوانات في أوروبا والولايات المتحدة ١٧ مليار دولار؛ والاستهلاك السنوي من التبغ في أوروبا ٥٠ مليار دولار، واستهلاك المخدرات يكلف العالم ٤٠٠ مليار دولار سنوياً، والإنفاق العسكري العالمي يبلغ ٧٨٠ مليار دولار سنوياً.

- يستهلك كل أمريكي ١١٩ كجم من اللحم سنوياً، والنمساوي ١٠٣ كجم سنوياً، في حين يبلغ متوسط ذلك في بنغلادش ٣ كجم سنوياً؛ وفي الهند ٤ كجم^(١).

لا داعي للاستطراء أكثر من ذلك، فما ذكرته من تحليلات وأرقام كاف للدلالة على خطورة العولمة الاقتصادية.

ثالثاً: العولمة الثقافية؛

أولاً: أهدافها:

هذه العولمة عند تنزيل مفهومها على العالم الإسلامي؛ فإنه يُقصد منها

(١) العولمة مفاهيم ومقاومة، د. مالك الأحمد، بحث نشر في كتاب (رسالة المسلم في حقبة العولمة) مصدر سابق، ص ٣٢٨ - ٣٣٠.

التدخل المباشر في ثقافات الشعوب الإسلامية، وذلك لتحقيق أهداف خطيرة؛ من أهمها:

- ١ - تشويه ثقافات «الذاتية التاريخية» للأمة الإسلامية.
- ٢ - بث الشبهات في أساسات تلك الثقافات من خلال التشكيك في مرجعياتها الأصلية (الكتاب والسنة)، ويتضمن ذلك دعم وتشجيع الفئات الطائفية التي تتبنى في أصل عقيدتها ذلك النوع من التشكيك.
- ٣ - إضفاء ألوان من القدسية الثقافية على الكتاب الذين يختطون ذلك المنهج، سواء باسم الأدب أو الفن أو السياسة أو الاقتصاد أو التربية أو الإدارة أو غيرها؛ إذ تمنح لهؤلاء الجوائز العالمية؛ كجائزة نوبل التي مُنحت لنجيب محفوظ على ثلاثيته، وجائزة الأدب التي مُنحت لأدونيس في مطلع ٢٠٠٤م.
- ٤ - إقحام المرأة في كل المجالات دون استثناء؛ بقصد استغلالها باسم الثقافة والفن لتكون أداة ميدانية لتطويع الشعوب الإسلامية للهجمة الثقافية الغربية. ويتجسد ذلك أكثر ما يتجسد ببث ما يُسمَّى (بثقافة الجنس)! والتي تتضمن استغلال صورة المرأة، والحديث عن جسدها، وإبراز مفاتها، سواء في الكتب أو الصحافة أو المجلات أو التلفزيون أو الإعلانات أو الندوات أو غيرها، ويدخل ضمن هذا الهدف إلهاء المرأة المسلمة بأمور خارج منزلها بغية عزلها عن هدفها الأساس وهو تربية الأجيال.
- ٥ - تغليب المنتج الثقافي العلماني والليبرالي والقومي على المقابل الإسلامي؛ ليكون ذلك المنتج هو الصبغة العامة المؤثرة في ثقافة الشعوب الإسلامية، وخاصة فيما يتعلق بالأخلاق والسلوك؛ فضلاً عن الأفكار والمعتقدات.
- ٦ - تغيير المناهج التعليمية في البلاد الإسلامية، وذلك باستغلال ما بقي فيها

من آثار ضعيفة تذكّر الطالب المسلم بدينه وتاريخه .

٧ - تذويب المجتمع المسلم في بحر الثقافة الغربية ، وخاصة ما يتعلق منها بالإسفاف المادي والانحراف العقدي والترهل المعنوي ، مع محاولة عزله عن الثقافة ذات المردود الإيجابي والارتقاء الحضاري والبعد الاستراتيجي .

٨ - الاستحواذ على الطاقة المعرفية في العالم الإسلامي ؛ بربطها بالثقافة العلمانية ، وذلك لتحقيق غايتين : الأولى : حرمان المجتمع الإسلامي من تلك الطاقات . والثانية : استغلالها في المساهمة في بناء الكيان الحضاري الغربي .

٩ - وباعتبار أن العولمة الثقافية لا تنفك في حركتها عن باقي مكونات العولمة (أي العولمة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والعسكرية والتربوية وغيرها) ، وباعتبار أنها من أهم تلك المكونات وأبرزها ؛ فإن نجاح العولمة الثقافية في التغلغل في المجتمع الإسلامي سيسلكه قسراً في باقي مكونات العولمة ، بل يجعله جزءاً فاعلاً ومؤثراً في تحقيق غاياتها ، وعاملاً رافداً في منظوماتها .

١٠ - إدخال العالم الإسلامي في بوتقة الحركة الثقافية العالمية ؛ بما تتضمنه من مفهومات مصطلحية ذات طابع جماهيري كالديمقراطية ، أو طابع عقدي كالعلمانية ، أو طابع اعتاقي كالليبرالية ، أو طابع انتمائي كالوطنية والقومية .

ومن خلال سبر أغوار تلك الأهداف العشرة ؛ نستطيع أن نفهم كثيراً من العبارات التي يسوقها المفكرون الغربيون ؛ من مثل قول «مايكل هيوارد» : «إن الافتراض الغربي السائد الآن يشير إلى أن التنوع الثقافي ليس إلا ظاهرة تاريخية عابرة ، سيتم القضاء عليها بسرعة ؛ جرّاء نمو ثقافة عالمية مشتركة ذات توجهات غربية ، وناطقة باللغة الإنجليزية»^(١) ، ومن مثل إطلاق «ماكلوهان» مفهوم «القرية

(١) تحدي الثقافة المعولمة ، باسل حسين ؛ نقلاً عن بحث «المسلمون وتحديات العولمة الثقافية» ، أحمد علوان . انظر كتاب (رسالة المسلم في حقبة العولمة) ، ص ٥٨٢ .

الكونية» على العالم^(١). وكذلك نستطيع أن نفهم ونفسّر بشكل علمي وموضوعي ما ذهب إليه «صامويل هنتنجتون» في كتابه (صدام الحضارات وإعادة صنع النظام العالمي)، وما ذهب إليه «فرانسيس فوكوياما» في كتابه (نهاية التاريخ).

ثانياً: لغة الأرقام:

لا أستطيع في هذه العجالة لملمة أكوام وأكداس الأرقام التي تتحدث عن الإحصاءات الثقافية ووسائلها في مختلف بقاع العالم، ولكنني سأكتفي بذكر بعض الأرقام تحت خمسة عناوين:

١ - الإذاعة والسينما والتلفزيون والفيديو:

أسواق الإحصاءات الآتية، وهي مستقاة من بحث قيم نشره الدكتور ناصر العمر بعنوان (كيفية التعامل .. رؤية شرعية):

* جميع الوسائل الإعلامية لا يتجاوز تأثيرها ٣٠٪ من قوة تأثير التلفزيون والفيديو.

* ذكر الدكتور حمود البدر - وكيل جامعة الملك سعود سابقاً وأمين مجلس الشورى السعودي حالياً - أن الدراسات والأبحاث أثبتت أن بعض الطلاب عندما يتخرج من المرحلة الثانوية يكون قد أمضى أمام جهاز التلفزيون قرابة ١٥ ألف ساعة؛ بينما لا يكون قد أمضى في حجرات الدراسة أكثر من ١٠٨٠٠ ساعة على أقصى تقدير. ومعدل حضور بعض الطلاب في الجامعة ٦٠٠ ساعة سنوياً؛ بينما متوسط جلوسه أمام التلفزيون ١٠٠٠ ساعة سنوياً.

* ذكرت إحصاءات منظمة اليونيسكو عن الوطن العربي أن شبكات

(١) رسالة المسلم في حقبة العولمة، ص ٥٨٢، بحث «الثقافة المعولمة»، باسل حسين؛ نقلاً عن مستقبل العلاقات الدولية مع الوطن العربي في عصر العولمة، علي القرني، ضمن ندوة انعكاسات العولمة والسياسة والثقافة على الوطن العربي، ص ١٠٧.

التلفزيون العربية تستورد ما بين ٣٣٪ من إجمالي البث كما في سوريا، و ٥٠٪ من هذا الإجمالي كما في تونس والجزائر. لكن في لبنان تزيد البرامج الأجنبية على نصف إجمالي المواد المبثوثة؛ إذ تبلغ ٥٨,٥٪، وتبلغ البرامج الأجنبية في لبنان ٦٩٪ من مجموع البرامج الثقافية، وأغلبها يُبث بغير ترجمة، وكذلك فإن ٦٦٪ من برامج الأطفال تُبث بلغاتها الأجنبية من غير ترجمة - في معظمها -.

* ذكر الدكتور محمد عبده يماني أن منظمة اليونيسكو أجرت دراسة اتضح من خلالها أن ٩٠٪ من الأخبار التي يتناولها العالم هو من نتاج خمس وكالات عالمية فقط، وهي: أسوشيتدبرس (أمريكية)، يونايتدبرس (أمريكية)، وكالة الصحافة الفرنسية (فرنسية)، رويتر (إنكليزية)، تاس (روسية).

* في إحصاءات إسبانية تبين أن ٣٩٪ من الأحداث المنحرفين اقتبسوا أفكار العنف من مشاهدة الأفلام والمسلسلات والبرامج الإعلامية. وفي دراسة سلبات التلفزيون العربي؛ جاء أن ٤١٪ ممن أجري عليهم الاستبيان يرون أن التلفزيون يؤدي إلى انتشار الجريمة، و ٤٧٪ يرون أنه يؤدي إلى النصب والاحتيال. وذكر الدكتور حمود البدر أنه من خلال إحدى الدراسات التي أجريت على ٥٠٠٠ فيلم طويل؛ تبين أن موضوع الحب والجريمة والجنس يشكل ٧٢٪ منها، وتبين من دراسة أخرى حول الجريمة والعنف في مائة فيلم وجود ١٦٨ مشهد جريمة أو محاولة قتل، بل قد وجد في ١٣ فيلماً فقط ٧٣ مشهداً للجريمة. وقد قام الدكتور «تشار» بدراسة مجموعة من الأفلام التي تُعرض على الأطفال عالمياً، فوجد أن ٤, ٢٧٪ منها تتناول الجريمة.

٢ - استغلال جسد المرأة:

تكاد ألا توجد مطبوعات أو إعلان أو دعاية تخلو من استغلال المرأة وجسدها بطريقة تثير الغرائز في معظم الأحيان! وفي رسالة ماجستير أعدها أحد الباحثين بعنوان (صورة المرأة في إعلانات التلفزيون)؛ ذكر فيها أنه قام بتحليل

٣٥٦ إعلاناً تلفزيونياً، بلغ إجمالي تكرارها ٣٤٠٩ خلال ٩٠ يوماً فقط، وقد توصل في بحثه إلى ما يأتي :

- استُخدمت صورة المرأة في ٣٠٠ إعلان من ٣٥٦ إعلاناً، كُرت قرابة ٣٠٠٠ مرة في ٩٠ يوماً.

- ٤٢ ٪ من الإعلانات التي ظهرت فيها المرأة لا تخص المرأة .

- سنّ النساء اللاتي ظهرن في الإعلانات من ١٥ - ٣٠ سنة فقط .

- اعتمدت ٧٦ ٪ من الإعلانات على مواصفات خاصة في المرأة كالجمل والجلابية، و ٥١ ٪ على حركة جسد المرأة، و ١٢,٥ ٪ استُخدمت فيها ألفاظ جنسية .

- أن الصورة التي تقدم للمرأة في الإعلان منتقاة بعناية وليست عشوائية .

وقد أظهرت إحصائية ضمن رسالة علمية جامعية بعضاً من السلبيات المنعكسة على الأسرة (خصوصاً النساء) ؛ بسبب متابعتها للقنوات الفضائية، ومن ذلك :

- ٨٥ ٪ يحرصن على مشاهدة القنوات التي تعرض المشاهد الإباحية .

- ٥٣ ٪ قلّت لديهن تأدية الفرائض الدينية .

- ٣٢ ٪ فتر تحصيلهن الدراسي .

- ٤٢ ٪ يتطلعن للزواج المبكر ولو كان عرفياً .

- ٤٢ ٪ تعرّضن للإصابة بأمراض النساء نتيجة ممارسة عادات خاطئة .

٣ - الأطفال فريسة :

إن كل ما يراه الطفل ينطبع في مخيلته ويختزن في ذاكرته، ومن هنا تأتي خطورة ما يُعرض على الأطفال من الصور والإعلانات ومختلف الدعايات، وقد قام الدكتور سمير محمد حسين بإعداد دراسة حول برامج وإعلانات

التلفزيون كما يراها المشاهد والمعلنون، وتوصل فيها إلى أن :

- ٩٨, ٦ ٪ من الأطفال يشاهدون الإعلانات بصفة منتظمة .
- ٩٦ ٪ من الأطفال يتعرفون على المشروبات المعلن عنها بسهولة .
- ٩٦ ٪ قالوا إن هناك إعلانات يحبونها، فيحفظون نص الدعاية ويقلدون المعلن .

كما أن الدكتور «تشار» أجرى دراسة على مجموعة من الأفلام التي تُعرض على الأطفال عالمياً، فوجد أن :

- ٢٩, ٦ ٪ تتناول موضوعات جنسية .
- ٢٧, ٤ ٪ تتناول الجريمة .
- ١٥ ٪ تدور حول الحب بمعناه الشهواني العصري المكشوف .

٤ - الابتكارات والاختراعات :

أفادت الإحصاءات أن حوالي ١٥ ٪ من سكان العالم يمثلون تقريباً مصدر كل الابتكارات التكنولوجية الحديثة (النسبة ليست للأفراد بل للشعوب)، و ٥٠ ٪ من سكان العالم قادرون على استيعاب تلك التكنولوجيا استهلاكاً أو إنتاجاً، وبقية سكان العالم، أي ٣٥ ٪، منقطعون ومعزولون عن تلك التكنولوجيا .

وقد نبهت هيئة اليونسكو في تقريرها العلمي إلى تدني نصيب الدول العربية من براءات الاختراع التكنولوجي على مستوى العالم، حيث بلغ نصيب أوروبا منها ٤٧, ٢ ٪، وأمريكا الشمالية ٣٣, ٤ ٪، واليابان والدول الصناعية الجديدة ١٦, ٦ ٪، وبقي حوالي ٢, ٦ ٪ تتنافس فيه باقي دول العالم .

فانظر إلى هذا البون الشاسع بين العالم الإسلامي وبين سائر دول العالم، فلا شك إذن أن تطغى العولمة الثقافية على مرافق التوجيه في هذه الدول المتخلفة؛

حتى التي لا تجيد طريقة التعامل مع هذه المبتكرات والمخترعات، فهي في أحسن الأحوال لا تصلح إلا أن تكون سوقاً استهلاكية ليس أكثر!! علماً أن سرعة إنزال المبتكرات إلى السوق أسرع بكثير من الوقت المتاح لاستيعاب مساحات الاستفادة منها ومن إمكاناتها التشغيلية، وذلك بسبب التسارع المضطرب الذي تتسم به ثورة المعلومات والاتصالات، حيث سجّلت الإحصاءات أن معاملات صناعة الاتصالات لعام ١٩٩٥ م قُدّرت بحوالي ١٠٠٠ مليار دولار.

٥ - الشبكة العالمية (الإنترنت) :

هي شبكة معلومات تُعدُّ من أعجب ما توصل إليه الإنسان؛ إذ جعلت أدق المعلومات بين يدي كل من يطلبها بسرعة مذهلة وبتفاصيل استثنائية، وذلك بمجرد أن يداعب بأنامله أزرار الحاسوب. وعلى الرغم من أن هذه الشبكة المعقدة قد غلّقت جميع أنحاء الكرة الأرضية؛ فإن حظ العالم الإسلامي من التعامل مع هذه المعلومات المتوفرة بسهولة عبرها لا يزال ضعيفاً، بل إن بعض دول العالم الإسلامي كانت تحظر هذا التعامل لفترة قريبة! قارن هذا الحال المتخلف مع دولة متقدمة كاليابان مثلاً، فإن اليابانيين المتصلين بالإنترنت عبر الخطوط الثابتة والهواتف المحمولة ارتفع في ديسمبر عام ٢٠٠٢م إلى ٤٣ مليون شخص مقارنة بـ ٢٦,٣ مليون شخص قبل ستة أشهر فقط!!^(١). وأما في الولايات المتحدة الأمريكية فإن عدد العاملين في قطاع الإنترنت بلغ ١,٢ مليون شخص^(٢).

إذا أمعنا النظر فيما سقته من إحصاءات؛ فإن دلالة الأرقام تفسّر لنا بشكل واضح ما أحدثته أعاصير العولمة الثقافية، وهي تهبّ بشدة على عالمنا الإسلامي، تحاول اجتثاث خاصيته الثقافية من جذورها؛ لتغرس بدلها ثقافات وافدة، اختلط

(١) جميع أرقام الإحصاءات المذكورة تحت عنوان: «لغة الأرقام» مستقاة من بحث للدكتور ناصر العمر؛ بعنوان: «كيفية التعامل .. رؤية شرعية»، نشر في كتاب: (رسالة المسلم في حقبة العولمة)، إصدار مركز البحوث والدراسات، قطر، ص ١٠١، ١١٨-١٢٣.

(٢) أمركة الأمم وصدمات الحضارات، الشيخ جعفر حسن عتريس، ص ٨٩.

فيها الصالح القليل بالطالح الكثير!!

رابعاً: طمس هوية الشعوب وتشويه عقائدها وثقافتها وتاريخها:

وهذا هدف أصلي من أهداف العولمة، وتوجّه رئيس في وضع خططها وبرامج تنفيذها، والنماذج على ذلك كثيرة وتكاد ألا تحصى، فمنها دراسة للدكتور «جاك شاهين» أستاذ علوم الاتصال الجماهيري بجامعة أليوني الأمريكية، رصد فيها نيات الإعلام الأمريكي تجاه الإسلام والمسلمين من خلال تحليل مضمونه خلال عشرين سنة مضت. يرى الدكتور شاهين أن صورة العربي المسلم في الذهن الغربي، يمكن تلخيصها بعبارة «الآخر الثقافي الخطير» الذي يهدد محاولات الانفراد الأمريكي بقيادة العالم بعد انهيار الشيوعية، ومن توابع هذه العبارة أن يكون مصطلح «الجهاد» و«عدم التسامح» و«اضطهاد المرأة» في الرواية الغربية مرادفاً لـ «كراهية الآخر» و«للتعصب» و«العنف».

وتصوّر وسائل الإعلام الأمريكية العرب الأمريكيين أنهم «غرباء» ويشكّلون «خطراً على الأمن القومي»، وأنهم يقفون جنباً إلى جنب مع مهربي المخدرات والمخربين ويؤازرون النشاط الإرهابي.

وتكشف الدراسة أن الإعلام الأمريكي يصوّر المسلمين على أنهم يعبدون القمر، قالت الإذاعية «جانيت مارشالز» ذلك عبر الإذاعة في ١٥/٥/١٩٩٦م، وكرر المستشرق الدكتور «روبرت مدري» مزاعمها في مطبوعات ومحاضرات.

وتُخرج المكتبات الأمريكية سنوياً مئات الكتب المعادية للإسلام، وتحمل عناوين مثل «ميزان الإسلام» و«الإسلام الملتهب»، وكذلك مقالات تحت عناوين مثيرة مثل «جذور التعصب الإسلامي» و«الإسلام قد يكتسح الغرب»

و «الحرب الإسلامية ضد الحداثة» و «القنبلة الزمنية الإسلامية» .

في الكتب المدرسية كتاب المواد الاجتماعية - المقرر على الصف السادس الابتدائي - يقدم المسلم على أنه : راعي غنم يعيش في الخيام ، ويرتدي العباءة ، ويتزوج عدداً غير نهائي من النساء ، ويطلق كما يشاء ، ولا همّ له إلا الجنس والعنف ، ويخطف الطائرات ، ويدمر المنشآت ! وفي «السينما» يُصوّر المسلم على أنه «إرهابي» .

وأنتجت هوليوود ، ما بين عامي ١٩٨٦م و ١٩٩٥م ، ما بين ١٥ إلى ٢٠ فيلماً أسبوعياً (أي يُعرض بشكل مسلسلات أسبوعياً) ، أظهرت فيه صورة بغیضة للعرب والمسلمين في أكثر من ١٥٠ فيلماً . وكانت صورة العربي في العشرينيات تاجر عبيد وحشياً ، وأصبح في السبعينيات والثمانينيات شيخاً بترولياً ، والآن إرهابياً متعصباً يصلي قبل أن يقتل الأبرياء ، ففي فيلم «ليس بدون ابنتي» المسلم يخطف زوجته الأمريكية وابنته إلى إيران ، ولا يكتفي بسجن زوجته وضربها ، بل يحرمها من ابنتها . وفي فيلم «أكاذيب حقيقية» وفيلم «القرار التنفيذي» يظهر الفلسطينيون في صورة أناس ساديين يقتلون القساوسة والأمريكيين الأبرياء ، ويقومون بتفجير قنبلة نووية قبالة شاطئ فلوريدا ، ويعملون لهدم أمريكا^(١) .

خامساً: عولمة مناهج الحكم:

وتشمل خطين رئيسين :

الخط الأول : تعميم الديمقراطية في جميع دول العالم الإسلامي ، والمقصود بالديمقراطية المطروحة للبيع في السوق الدولي : علمنة أساليب الحكم من خلال برلمانات انتخبها الشعوب .

(١) مجلة المجتمع الكويتية ، عدد ١٣٤٤ ، بتصرف .

وتستوقفنا هنا محطتان رئيستان :

المحطة الأولى : أن هذه الديمقراطية مفصلة تفصيلاً دقيقاً لتحقيق الأهداف المرجوة منها .

المحطة الثانية : أن الهدف من ذلك هو إقصاء الإسلام عن حياة المسلمين ، والحيلولة دون اعتماده وسيلة مطلقة ووحيدة في حكم أي من البلاد الإسلامية .

إن تثبيت هذا الخط وحمل الدول الإسلامية على السير وفقه ؛ تتبناه الولايات المتحدة باستعمال جميع الوسائل بما فيها القوة المسلحة وشن الحروب .

الخط الثاني : ترويج أيديولوجية «الطريق الثالث» ، حيث يتبنى هذا الخط رئيس الوزراء البريطاني «توني بلير» ، وقد طرحه كمشروع عالمي جديد يجمع بين فكرة «اقتصاد السوق» و «الاشتراكية» ، وجعل له سبعة مبادئ ؛ هي :

١ - أن المجتمع لا يقوم بدون حكومة ، كما أن الحكومة لا يمكن أن توجد بدون مجتمع .

٢ - ينبغي على الحكومة أن تعمل أكثر في الجوانب ذات الفائدة والفاعلية ، وأن تبذل جهوداً أقل أو تخرج تماماً من المجالات غير الضرورية ، أو تلك التي يعوق وجودها قوى المجتمع المدني .

٣ - لا تعتبر الدولة شركة خاصة تدار على أساس الربح والخسارة ، فربما يكون من الضرورة أحياناً أن تعتمد الدولة إنفاقاً لا يؤدي إلى نتائج فورية وأرباح مالية ملموسة ؛ غير أنه من المحتمل أن يساهم هذا النوع من الإنفاق في تحقيق العدل الاجتماعي والسلام المدني والانسجام .

٤ - الحكومة صديق للذين يكونون ثروة عن طريق الجدارة والاستحقاق والعمل ، كما أنها صديق أيضاً للذين وجدوا أنفسهم في ظروف ضيقة ومشقة

لأسباب خارجة عن إرادتهم ، وينبغي كذلك أن يكون مبدأ التضامن خاضعاً لاختبار السوق فقط .

٥ - لا يمكن أن تكون هناك تنمية اقتصادية حقيقية دون وجود ديمقراطية تعددية ، كما لا تكون الديمقراطية فاعلة ونشطة في ظل غياب التغيير الدوري وتداول السلطة من خلال انتخابات تعددية .

٦ - يمثل حكم القانون ضمان الاستقرار لكل المجتمعات ؛ إذ ينبغي أن يكون القانون عادلاً ومعلناً ومتماشياً مع ظروف الزمان ، وأن يكون قائماً - ما أمكن ذلك - على الإجماع ، وأن يتم تطبيقه دون تحيز أو تحامل .

٧ - ينبغي أن يكون القرن المقبل عهد تعاون واقتسام لثمرات التقدم الذي أحرز وسط كل الطبقات وفي كل الدول ، وتوجد الآن السبل المادية لإزالة الجوع والفقر والقهر من على وجه الكرة الأرضية .

وقد عُقد مؤتمر في فلورنسا بتاريخ ٢٢ / ١١ / ١٩٩٩ م لدراسة « الطريق الثالث » ، حضره ممثلو أمريكا والبرازيل وفرنسا وإنكلترا وألمانيا وإيطاليا ، وقد كان أكثر الممثلين هم رؤساء الدول أنفسهم ومنهم كليتون .

سادساً: العولمة الاستراتيجية؛

هي العولمة المتمثلة في وضع برامج من قبل دول أو تحالفات ؛ لإدخال كل دول العالم ضمن نفوذها الاستراتيجي العسكري والاقتصادي والسياسي .

هذه العولمة لها أربع دعائم ؛ هي :

الدعامة الأولى : الولايات المتحدة الأمريكية :

اعتمدت خطة الولايات المتحدة الأمريكية في عولمة العالم أمريكياً ؛ أي «أمركة العالم» على مفهوم أن العولمة العسكرية هي الوسيلة للعولمة الاقتصادية وللعولمة السياسية وللعولمة الثقافية .

وقد تمكنت الولايات المتحدة الأمريكية من إلحاق كل من بريطانيا واليابان وأستراليا بقطارها بشكل مباشر، كما حاولت وتحاول إلحاق الدعامة الثانية بهذا القطار كذلك، ولكنها إلى الآن لم تفلح بشكل مطلق.

لقد مرَّ تطور استراتيجية العولمة العسكرية الأمريكية بعدة مراحل، أذكرها مختصرة:

١ - استراتيجية الرئيس الأمريكي بوش الأب: وقد اعتمدت على التركيز على خفض القوات والنفقات أكثر من تركيزها على التخطيط الاستراتيجي. وهذا هو أحد التفسيرات التي تبين لماذا لم تُسقط حرب الخليج الثانية نظام البعث العراقي، واكتفت بإخراج قواته من الكويت فقط.

٢ - استراتيجية «بوتوم أب» (Buttom UP): ومحورها وجوب أن تكون الولايات المتحدة مستعدة لخوض حربين أو مواجهة صراعين إقليميين في وقت واحد.

٣ - استراتيجية تفوق الأمن القومي الأمريكي:

ولتحقيق هذه الاستراتيجية أنشئت وكالتان:

الأولى: وكالة الأمن القومي الأمريكي (N.S.A)، وهي وكالة أسست منذ عقود، ولها مهمات كثيرة؛ من أهمها التنصت على جميع المحادثات والمخابرات والاتصالات بين جميع الدول والمؤسسات. يعمل في جهاز هذه الوكالة بحسب تقرير ١٩٧٥م حوالي ١٢٠ ألف شخص، أما عددهم الآن فغير معلوم. وتبلغ حصة هذه الوكالة ٨٠٪ من الميزانية التي تخصصها الولايات المتحدة لمختلف أنشطتها الاستخبارية والتي تزيد على ٢٧ مليار دولار، وتمارس نشاطاً تجسسياً واسعاً، حيث يتكون لديها ١٠٠ مليون وثيقة كل عام، ويتم التخلص يومياً من حوالي ٤٠ طناً من تلك الوثائق.

الثانية: وكالة المخابرات الأمريكية (C.I.A)، وهي تعتمد على الأفراد في أنشطتها وفعاليتها التجسسية، حيث يُزودون بجميع التقنيات التي تساعدهم على أداء مهامهم، وتعتمد على تسلل أفرادها إلى أجهزة الاستخبارات في الدول الأخرى. وتحظى هذه الوكالة باهتمام الحكومة الأمريكية؛ لأنها تمثل عينها التي ترى بها أسرار وكوامن مختلف دول العالم؛ لذا فهي تشكّل هاجس خوف لدى كل الحكومات في المعمورة.

٤ - استراتيجية القوة من أجل السلام: وهي الاستراتيجية التي وضعها رئيس الأركان الأمريكي الجنرال «هنري شلتون» بعنوان (التقييم الاستراتيجي في عام ١٩٩٨م والقوة من أجل السلام)، وكان من أهم أهداف هذه الاستراتيجية تلافي العيوب التي لحقت باستراتيجية «بوتوم أب»، حيث رصد «شلتون» أفضل السيناريوهات وأسوأها بالنسبة للتهديدات المحتملة التي تواجه أمريكا في الفترة المقبلة - سأذكر ملخصاً لهذه الاستراتيجية عند حديثنا عن «التدافع» -.

٥ - استراتيجية «الحرب الاستباقية»: وهي الاستراتيجية التي وضعها الرئيس الأمريكي بوش الابن، وملخصها أن تبادر الولايات المتحدة إلى شن حرب بشكل مباشر على أية دولة في العالم تعتقد الولايات المتحدة أنها تشكل تهديداً لها في المستقبل. إن هذه الاستراتيجية في حقيقتها هي غطاء لبسط النفوذ العسكري الأمريكي على مختلف دول العالم، وبالأخص دول العالم الإسلامي. إن المدة المقررة لهذه الاستراتيجية تزيد عن عشر سنوات، وقد تم تطبيقها في أفغانستان والعراق، وهناك دول أخرى على القائمة الأمريكية تنتظر دورها.

٦ - استراتيجية فرض الهيمنة على العالم الإسلامي: إن الذي وضع هذه الاستراتيجية هو «ريتشارد هاس» والتي تم إعلانها تحت مسمى «مبادرة باول» بعنوان «الشراكة الأمريكية الشرق أوسطية» - وسنشير إلى بعض مضامينها عند

حديثنا لاحقاً عن «التدافع»..

الدعامة الثانية : المجموعة الأوروبية (أو أوروبا الموحدة) :

إن هذه المجموعة هي وريثة السوق الأوروبية المشتركة ، وتضم كلاً من بريطانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا ولوكسمبورغ وإسبانيا والبرتغال وبلجيكا وهولندا والدانمارك واليونان وإيرلندا والنمسا والسويد وفنلندا وسويسرا . وقد وقّعت هذه الدول في قمة «ماستريخت» - هولندا - بتاريخ ٢٧ / ٢ / ١٩٩٢ م على «معاهدة الوحدة الأوروبية» . وتقع هذه المعاهدة في ٣٢٠ صفحة ، تحتوي على ستة عناوين رئيسية . إن هذه المعاهدة أعطت المجموعة الأوروبية وضعاً متميزاً من حيث التأثير في مجريات الأحداث في العالم بما أوجد لها تأثيراً بالغاً في «عولمة» تطلعاتها على مختلف الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها . كما أوجد لها كياناً فاعلاً في عملية «التدافع» التي سنشير إليها عند حديثنا عن أثر أوروبا الموحدة في العالم الإسلامي من خلال حالة التدافع الحالي مع العولمة .

الدعامة الثالثة : حلف الأطلسي (الناطو) :

لقد وافق حلف الأطلسي على «عولمة» صلاحياته وتوسيعها لتشمل كل العالم ، وذلك في قمة نيويورك بمناسبة مرور خمسين عاماً على إنشائه ، جاء ذلك في قراراته النهائية ١٩٩٩ م . وكان لحلف الأطلسي دور كبير في حرب الخليج ١٩٩١ م تحت مظلة «دول التحالف» ، وبعد ذلك كان له دور حاسم في حرب البوسنة والهرسك تحت مظلة «الأمم المتحدة» ، ثم كان له أيضاً دور حاسم في حرب كوسوفا ، توجّ بإبقائها ضمن الاتحاد اليوغسلافي الصربي تحت مظلة «قوات دولية» ، كما تقوم حالياً الولايات المتحدة بتوظيفه لخدمة مخططاتها في العراق .

إن هذه الدعامة تمتلك إمكانات عسكرية رهيبة، تستطيع بواسطتها بسط هيمنتها على جميع الدول التي تريد إخضاعها لها، سواء مباشرة أو بإدخالها ضمن نفوذها. في بحث «التدافع» سنتكلم - إن شاء الله - عن أثر العولمة التي يتبناها حلف الأطلسي في العالم الإسلامي.

الدعامة الرابعة: التكتل الجديد:

قبل بضع سنوات كانت هذه الدعامة تتمثل بـ «دول الباسيفيكي»، وهي (اليابان، والصين، وروسيا)، لكن هذه الدعامة لم تستمر طويلاً بسبب غرق اليابان في بحر النفوذ الأمريكي. في الوقت نفسه كانت هناك توجهات في عقد التسعينيات من القرن الماضي لبلورة مجموعة أوروبية ذات تطلعات خاصة، ضمت كلاً من ألمانيا وفرنسا وإسبانيا وإيطاليا، لكن استطاعت الولايات المتحدة تفيت هذه المجموعة وضم كل من إسبانيا وإيطاليا إلى ساحة نفوذها، وبقيت ألمانيا وفرنسا مستعصيتين على الضم للنفوذ الأمريكي. بعد أحداث «سبتمبر عام ٢٠٠١م» تبلور «تكتل جديد» على أنقاض ما سبق، هذا التكتل ضم كلاً من (روسيا وألمانيا وفرنسا والصين)، ولهذا التكتل رؤاه الخاصة بشأن عولمة أفكاره وتطلعاته، وهو لا يزال في بدء حبه ولم يقف على قدميه بعد. وأيضاً سنتحدث عن أثر العولمة الناشئة عن هذه الدعامة في العالم الإسلامي عند حديثنا عن «التدافع».

الفصل الثالث

التدافع

- التدافع في اللغة والتنزيل .
- المتدافعون .
- فيم التدافع ؟
- عالمية الإسلام .
- التدافع بين عالمية الإسلام والعولمة البشرية .
- دوائر التدافع :
- أولاً : التدافع في الدائرة المحدودة .
- ما عوامل الحسم في هذا التدافع ؟
- ثانياً : التدافع في الدائرة الشاملة (أو العامة) :
- التدافع الرسالي الشرقي :
- الأول : التدافع في العهد المكي .
- الثاني : التدافع في العهد المدني .
- السنن وحسم التدافع في العهد النبوي .
- أولاً : أعمال المشركين وأهل الكتاب التي عاكسوا أو خالفوا فيها اتجاه السنن .
- ثانياً : أعمال المؤمنين التي سايروا فيها اتجاه السنن .

- النتيجة النهائية :

أولاً : سنّة الله - تعالى - في اندحار الكافرين .

ثانياً : سنّة الله - تعالى - في نصر المؤمنين .

- التدافع المعاصر بين عالمية الإسلام والعولمة :

أولاً : واقع المسلمين على ضوء شعب الإيمان وموجات العولمة .

ثانياً : واقع أعداء الإسلام على ضوء شعب الكفر وموجات العولمة :

١ - التدافع ودور أوروبا الموحدة .

٢ - التدافع ودور حلف الأطلسي .

٣ - التدافع واستراتيجية الهيمنة الأمريكية .

٤ - التدافع ودور التكتل الجديد .

- التدافع بين عالمية الإسلام والعولمة المعاصرة إلى أين ؟

- المشروع الإسلامي ضد العولمة في سياق التدافع .

- اقتراحات قدمت لمواجهة العولمة المعاصرة .

- اقتراح مشروع متكامل للعمل المؤسسي الإسلامي لمداخلة ومواجهة العولمة العصرية .

- التحصن الذاتي ضد العولمة .

- التدافع مع العولمة من خلال الكتب المنشورة .

- النصر المبين للإسلام عاقبة تدافعه مع العولمة .

التدافع

أقصد به تدافع أصحاب العقائد فيما بينهم، وتصارعهم على إثبات ذواتهم وتحصيل مصالحهم، إنه تدافع واسع عام يشمل الأفراد والجماعات والقبائل والأحزاب والشركات والمؤسسات والدول والشعوب والتحالفات والتكتلات، فهو تدافع عام وتصارع شامل يغلف البشرية بأسرها.

التدافع في اللغة:

إن كلمة التدافع مشتقة من «الدفع»، ومعناها: تنحية الشيء وإزالته بقوة، ودَفَعَ عنه مدافعة ودفاعاً: أي حامى عنه وانتصر له، وتدافع القوم: أي دَفَعَ بعضهم بعضاً^(١).

التدافع في التنزيل:

جاءت لفظة «الدفع» في القرآن الكريم ثلاث مرات بالمعنى الذي نريد مناقشته في هذا الفصل.

المرّة الأولى: في قوله - تعالى -: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

والمعنى أن الله - تعالى - قد جرت سنته بأن بقاء إعمار الأرض وعدم عموم الفساد فيها ماض بإعمال «سنة التدافع»، وأن جريان هذه السنة على هذا النسق هو فضل محض من الله - تعالى - على العالمين؛ أي على العالم؛ أي على من ذكرنا في أصناف البشر.

المرّة الثانية: قوله - تعالى -: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى

(١) المعجم الوجيز، إصدار مجمع اللغة العربية، ص ٢٣٠، مادة (دفع).

نَصَرَهُمْ لَقْدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْذَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ [الحج: ٣٩ - ٤٠].

قال ابن كثير - رحمه الله -: «أي لولا أنه يدفع عن قوم بقوم؛ ويكشف شر أناس عن غيرهم بما يخلقه ويقدره من الأسباب؛ لفسدت الأرض، وأهلك القوي الضعيف»؛ أي لولا ذلك: «لهدمت صوامع الرهبان، وبيع النصارى، وصلوات اليهود، وهي كنائسهم، ومساجد المسلمين التي يذكر فيها اسم الله كثيراً»؛ قاله ابن جرير - رحمه الله -.

قال بعض العلماء: «هذا ترقُّ من الأقل إلى الأكثر إلى أن ينتهي إلى المساجد، وهي أكثر عماراً وأكثر عباداً، وهم ذوو القصد الصحيح»^(١).

وقال سيد قطب - رحمه الله -: «لقد كادت الحياة كلها تأسن وتتغن لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض، ولولا أن في طبيعة الناس التي فطرهم الله عليها أن تتعارض مصالحهم واتجاهاتهم الظاهرية القريبة؛ لتنتلق الطاقات كلها تتزاحم وتتغالب وتتدافع، فتتنفض عنها الكسل والخمول، وتستجيش ما فيها من مكنونات مذخورة، وتظل أبداً يقظة عاملة..»^(٢).

وقال أيضاً بعد أن ذكر معاني الصوامع والبيع والصلوات والمساجد: «وهي كلها معرضة للهدم؛ على قداستها وتخصيصها لعبادة الله، لا ينفع لها في نظر الباطل أن اسم الله يُذكر فيها، ولا يحميها إلا دفع الله الناس بعضهم ببعض، أي دفع حماة العقيدة لأعدائها الذين ينتهكون حرمتها، ويعتدون على أهلها، فالباطل متبجح لا يكف ولا يقف عن العدوان إلا أن يُدفع بمثل القوة التي يصول بها ويجول، ولا يكفي الحق أنه الحق ليقف عدوان الباطل عليه، بل لا بد من

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (٥ / ٤٣٥، ٤٣٦).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، (١ / ٢٧٠).

القوة تحميه وتدافع عنه، وهي قاعدة كلية لا تتبدل ما دام الإنسان هو الإنسان»^(١).

المرّة الثالثة: قوله - تعالى -: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤]، تبين هذه الآية أن منهجية الدفع النبوي لا تنبع من الهوى أو المصلحة الشخصية؛ بل هي من المفاضلة بين الخيارات الحسنة للدفع، ثم اختيار أفضلها في الوسائل والنتائج المتوقعة منها، ثم اعتمادها عملياً في واقع المدافعة.

المتدافعون:

هؤلاء الذين يتصارعون ويتقاتلون، أي يتدافعون، من هم؟
لو أردنا الإجابة عن هذا السؤال لأخذ ذلك منا مجلدات من الكتابة ولا ولن تنتهي، ولكن نريد أن نقصر حديثنا الآن على التدافع بين فئتين رئيسيتين:
الفئة الأولى: المسلمون.

الفئة الثانية: أعداء الإسلام.

إن السلاح الحقيقي للفئة الأولى (المسلمون) هو توجيه تدافعهم مع أعداء الإسلام وفق منظور السنن الربانية، وإن السلاح الحقيقي للفئة الثانية (أعداء الإسلام) هو توجيه تدافعهم مع المسلمين وفق منظور العولمة.

فأصل المدافعة مركّب من قسمين:

الأول: مدافعة العولمة للسنن (وهو في جله تدافع العقائد).

الثاني: المدافعة بين من سار وفق منظور السنن وبين من مسار وفق منظور العولمة (وهو تدافع المقاصد والوسائل).

(١) المصدر السابق، (٤ / ٢٤٢٥).

فيم التدافع؟

نريد أن نقصر حديثنا على التدافع في الأمور الآتية :

١ - العقائد .

٢ - المقاصد .

٣ - الوسائل .

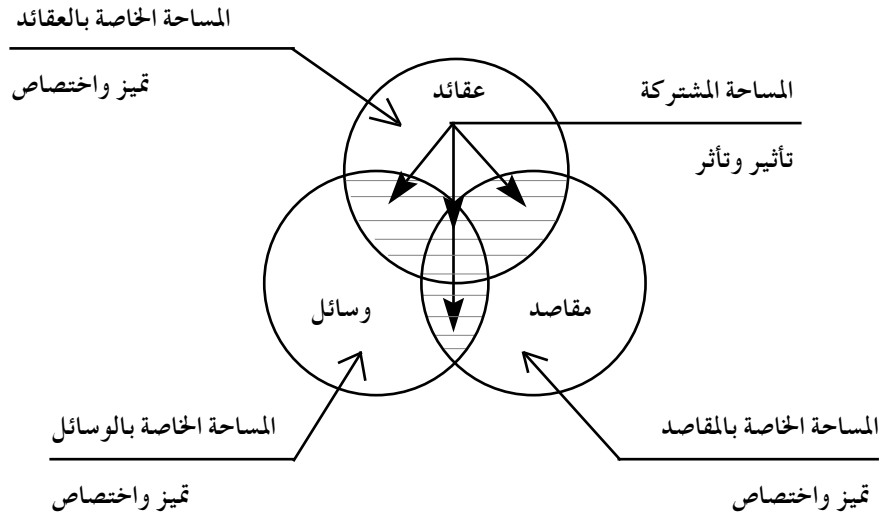
لكل واحدة من هذه العناصر ثلاث مساحات :

مساحة خاصة بها ، ومساحتان مشتركتان أو متداخلتان مع العنصرين الآخرين .

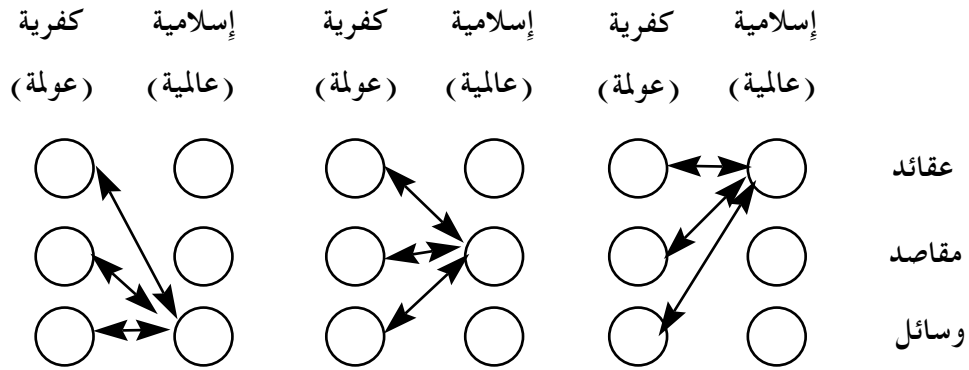
فأما المساحة الخاصة بها فتعني : التميز والاختصاص .

وأما المساحتان المشتركتان فتعنيان : التأثير والتأثر .

الشكل أدناه يوضح المراد :



فإذا أردنا تفصيل هذا الشكل العام وإرجاعه إلى مكوناته ؛ فإننا سنحصل على الشكل الآتي :



وبناءً عليه ؛ فإننا سنحصل على تسعة أنواع من التدافع مقسمة إلى تسع مراتب ؛ هي (بحسب مراتبها من الأعلى إلى الأدنى) :

- ١ - التدافع بين : العقيدة الإسلامية والعقائد الكفرية .
- ٢ - التدافع بين : العقيدة الإسلامية والمقاصد الكفرية .
- ٣ - التدافع بين : العقيدة الإسلامية والوسائل الكفرية .
- ٤ - التدافع بين : المقاصد الإسلامية والعقائد الكفرية .
- ٥ - التدافع بين : المقاصد الإسلامية والمقاصد الكفرية .
- ٦ - التدافع بين : المقاصد الإسلامية والوسائل الكفرية .
- ٧ - التدافع بين : الوسائل الإسلامية والعقائد الكفرية .
- ٨ - التدافع بين : الوسائل الإسلامية والمقاصد الكفرية .
- ٩ - التدافع بين : الوسائل الإسلامية والوسائل الكفرية .

إن العنوان الرئيس الذي ينتظم أنواع التدافع التسعة هو «التدافع بين عالمية

الإسلام وعوالة الكفر»، وذلك على مستوى العقائد والمقاصد والوسائل .
 إن كل نوع من أنواع التدافع المذكورة بحاجة إلى بحث أو أبحاث منفصلة
 (تصلح أن يقدم في كل منها رسالة دكتوراه) ؛ لذا فإنني في هذا البحث المقتضب
 سأمر بإلمامة سريعة على هذه التدافعات أو بعضها . ولكن قبل التنزه على ساحل
 هذا البحر الزاخر لا بد من بيان المعنى المختصر لعالمية الإسلام ؛ باعتبار أنني ذكرته
 في مقابل عوالة الكفر .

عالمية الإسلام:

من المعلوم أنه لا يوجد لدينا في الإسلام مصطلح بلفظ «العوالة»، بل لدينا
 لفظ أشمل هو «العالمين»، وقد جاء هذا اللفظ في كتاب الله - تعالى - ٧٣ مرة .
 ومن اللافت للنظر أن عالم البشر، وهم جزء من «العالمين»، يفترون إلى ٧٣
 فرقة، كما جاء في قول النبي ﷺ: «افتقرت اليهود على إحدى وسبعين فرقة،
 وتفرقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وتفرقت أممي (*) على ثلاث
 وسبعين فرقة»^(١). ولوردت كل فرقة منهم أمرها إلى «رب العالمين» لانمحي
 افتراقها واندمجت في الفرقة الناجية .

وفيما يخص موضوعنا ؛ فسأذكر بعض الآيات مما ورد فيها لفظ «العالمين» مع
 الإشارة إلى دلالتها :

١ - قال - تعالى - : ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف :

[٥٤] .

فكل ﴿الْعَالَمِينَ﴾ ربهم الله تعالى، هو الذي خلقهم، وأمره نافذ بينهم .

(*) قوله - عليه الصلاة والسلام - : «أممي» ؛ قال بعضهم إنها (أمة الدعوة) فتكون عامة، أي شاملة
 لعالم البشر كله، وبعضهم قال (أمة الاستجابة)، فتكون بمعنى من قال بالشهادتين، لكن سياقنا
 الحديث للاستشهاد ؛ جاء للاستدلال به على وفق القول الأول .

(١) رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، وهو في صحيح الجامع، رقم ١٠٩٤ .

٢ - قال - تعالى -: ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [السجدة: ٢] .
أي أن الله تعالى ، وهو رب العالمين ، قد أنزل كتاباً هو منهاج لهم ؛ لأنه هو ربهم
الذي خلقهم ، فلم يتركهم هملاً يتخبطون في سلوك طريق حياتهم .

٣ - قال - تعالى -: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾
[الفرقان: ١] ، وقال - تعالى -: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ،
فالرسول ﷺ أرسل للعالمين جميعاً ، وليس لقوم دون قوم ، وأنزل عليه الكتاب
الذي يجمع بين الرحمة والإنذار ، الرحمة في الدنيا والآخرة لمن آمن به وأتبعه
هواه ، والإنذار بعقوبة الدنيا والآخرة لمن كفره به ومضى على هواه .

٤ - قال - تعالى -: ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾
[الأنعام: ٩٠] ؛ أي أن هذا المنهج متحرر من ضغوط المصلحة الشخصية ، واضح
البيان ، فصيح اللسان ، ذكرى للعالمين في كل مكان وزمان .

وبناءً على ذلك نقول : إن الإسلام دين للعالمين ، فهو دين عالمي بالمعنى
الشمولي ، ولا يسع أي من البشر أن يتبع غيره ، وقال - تعالى -: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ
اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران: ١٩] ، وقال - تعالى -: ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ
يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران: ٨٥] ، وقال - تعالى -: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا
وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ: ٢٨] ، فأصل «العالمية» يعود إلى الرسالة المحمدية ، فقد جاء في
الحديث الصحيح قوله ﷺ : « أُعْطِيتْ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ
قَبْلِي . . . » ، وفيه : « وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة وُبعثت إلى الناس
عامة »^(١) .

إن العالمية الإسلامية ذات أبعاد تنفيذية عالمية ، منضبطة بالكتاب والسنة ،
ترمي إلى صياغة الهوية الخصوصية للأفراد والشعوب في جميع المناحي الحياتية
وفق الصبغة الربانية (أي تحقيق العبودية لله بمعناها الشامل) ، قال - تعالى -:

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ، محمد فؤاد عبد الباقي ، ص ١٠٤ ، رقم ٢٩٩ .

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨] .

وتتميز «عالمية الإسلام» بما يأتي :

١ - مرجعيتها إلى «منهاج» ، وهو الكتاب والسنة (العولمة ليس لها مرجعية محددة) .

٢ - منهاجها رباني (العولمة مناهجها بشرية) .

٣ - قيميتها وصلاحتها لكل مكان وزمان وفرد وشعب (العولمة تفتقر إلى ذلك) .

٤ - استيعابها لكل المتغيرات التي تطرأ على سير البشرية (العولمة قاصرة في ذلك كله) .

٥ - لها رصيدها التاريخي الزاخر باستحقاقاتها التطبيقية وإثراءاتها المعرفية المستظلة بالانتماء للمنهج الرباني (العولمة لها أيضاً رصيد كبير ؛ لكنه مستظل بالانتماء للمناهج البشرية) .

٦ - السير التوافقي مع السنن الربانية (سنن التأييد) (العولمة تسير على خلاف ذلك ، فهي متراوحة بين سنن التجريد وسنن التعذيب) .

بعد أن اتضحت لدينا معالم «عالمية الإسلام» ؛ أصبح الآن بمقدورنا أن نمضي قدماً في الحديث عن التدافع بين «عالمية الإسلام» و «العولمة» .

التدافع بين عالمية الإسلام والعولمة البشرية:

لا بد أن نقرر ابتداءً أن «التدافع» هو تعبير عن «حالة حركية» ؛ هي محصلة لاستخدام «وسائل متنوعة» ، لتحقيق «مقاصد معينة» ، استناداً إلى «منهج عقدي» - حسب ما قررنا سابقاً - .

إن «الحالة الحركية» التي تعبّر عن عالمية الإسلام تستند إلى عنصرين رئيسين:

- العلم بالسنن الربانية .

- التزام الإنسان المسلم بالإسلام .

وإن «الحالة الحركية» للعولمة البشرية تستند أيضاً إلى عنصرين رئيسين:

- مناهج بشرية وصفية .

- التزام الإنسان بتلك المناهج .

إن التدافع بين عالمية الإسلام والعولمة البشرية هو التدافع بين هاتين الحالتين الحركيتين على مستوى العقائد والمقاصد والوسائل ، وذلك بحسب تفاعلها التدافعي الذي ذكرنا أنواعه التسعة .

إن التدافع في زمننا الحاضر لا نستطيع أن نقيم دعائمه وامتداداته ما لم نبين المكتنز الإيماني لهذه الأمة ؛ بما يحمل في جوفه من رصيد عظيم ؛ ابتداءً من دعوة نوح - عليه السلام - وإلى يومنا هذا ؛ مروراً عبر الزمان والمكان بجميع دعوات الرسل - عليهم السلام - ، والتي كانت رسالة النبي ﷺ مسك ختامها . إن هذا المكتنز العظيم على مستوى الصراع الشامل عبر العقائد والمقاصد والوسائل ؛ هو دليل لا غنى عنه نستشرف عبر ضوء مصايحه مستقبل آفاق التدافع بين عالمية الإسلام وعولمة البشر ؛ لأجل ذلك فإننا سنتصفح أوراق المشاهد الكبرى في هذا الدليل عبر «دوائر التدافع» .

دوائر التدافع:

إن دوائر التدافع كثيرة ، ولكنني سأختزلها في دائرتين رئيسيتين ، هما : الدائرة المحدودة ، والدائرة الشاملة (أو العامة) .

أولاً: التدافع في الدائرة المحدودة:

أقصد المحدودة جغرافياً وعرقياً ؛ أي تتنفي منها العالمية الجغرافية والعالمية

البشرية ، ومثالها : التدافع الذي حصل بين الإسلام والشرك في عصور ما قبل البعثة المحمدية ، حيث كان التدافع على أشده بين الأنبياء ومن تبعهم - من جهة - ، وبين ملأ المشركين ومن تبعهم - من الجهة المقابلة - .

نريد أن نلقي ضوءاً على هذا التدافع في الدائرة المحدودة ؛ لعلاقته بالتدافع في الدائرة العامة .

نلمح في هذا التدافع بروز الجوانب التي ذكرناها ، وأسوقها بحسب ترتيب أهميتها :

١ - تدافع العقائد :

نلاحظ فيه : الوضوح ، والتميز ، والمفاصلة ، والتجرد .

الوضوح في المعنى .

التميز في المضمون .

المفاصلة في الموقف .

التجرد من الزمان والمكان .

كل ذلك كان جلياً في عقيدة كلٍّ من الطرفين المتدافعين : الأنبياء ، والملأ .

وهذه بعض الأمثلة :

* النبي نوح - عليه السلام - : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : ٥٩] .

الملأ : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأعراف : ٦٠] .

* النبي هود - عليه السلام - : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : ٦٥] .

المَلَأُ : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [الأعراف : ٦٦] .

* النبي صالح - عليه السلام - : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : ٧٣] .

المَلَأُ : ﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [هود : ٦٢] .

وعلى هذا النسق جاء الأنبياء إلى أقوامهم خاصة، كل في بقعة جغرافية محددة، كإبراهيم ولوط وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء - عليهم السلام جميعاً -، كلُّ بعث إلى قومه، وكلُّ تصدى له المَلَأُ . إن اللازمة العقدية كانت واحدة لدى الجميع (الأنبياء والمَلَأُ)، وتضمنت التدافع الكلي والتدافع في جزئياته .

فالعنوان في التدافع الكلي هو التدافع بين الإيمان والكفر، وهو تدافع جلي وبيّن .

وكذلك التدافع في جزئيات الكلي أو في مكوناته كان جلياً وبيّناً .

فالموضح في المعنى تضمّن : دعوة صريحة بيّنة إلى عبادة الله - تعالى - وحده من جهة الأنبياء، ورفض هذه الدعوة بشكل صريح بين من جهة المَلَأُ .

والتميز في المضمون تضمّن : أن هذه الدعوة تميزت بشعائر التوحيد مقابل ما كان عليه القوم من شعائر شرك - هذا من جهة الأنبياء -، وتميز مضمونها برفض هذه الشعائر الرسالية والإصرار على شعائر الشرك - من جهة المَلَأُ - .

والمفصلة في الموقف تضمّنت : تكوين وحدة حركية إيمانية رابطتها العقيدة التوحيدية من جهة الأنبياء ومن آمن معهم ؛ بمقابل الوحدة الحركية الشركية التي

كانت للمشاركين . لقد تَضَمَّنَتْ هذه المفاصلة الإيمانية بين الوجدتين - أحياناً - الافتراق الجغرافي ، كما قال إبراهيم - عليه السلام - حين كَذَّبَهُ قومه : ﴿ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ [العنكبوت : ٢٦] ؛ إضافة إلى ما تضمنته من المفاصلة الإيمانية .

والتجرد في الزمان والمكان : ذلك أن هذا التدافع العقدي نفسه قد حصل لكل الرسل ؛ بغضِّ النظر عن أي زمان فيه أُرسلوا ، أو في أي مكان فيه بُعثوا .
النتيجة : نلاحظ مما ذكرناه حالة «التدافع التام» في العقائد .

٢ - تدافع المقاصد :

إن جميع الأنبياء والمرسلين كان مقصدهم الخير لأقوامهم ، وتضمن ذلك :
* التجرد من المصلحة الشخصية : أي الإخلاص لله ، قال - تعالى - حاكياً عنهم : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ [الفرقان : ٥٧] ، وهو قول الرسول ﷺ ، ونوح - عليه السلام - : ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ [الشعراء : ١٢٧] ، وصالح - عليه السلام - : ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ [الشعراء : ١٤٥] ، ولوط - عليه السلام - : ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ [الشعراء : ١٦٤] ، وشعيب - عليه السلام - : ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ [الشعراء : ١٨٠] .
* البلاغ الإلهي : قال - تعالى - : ﴿ فَهَلْ عَلَى الرَّسْلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [النحل : ٣٥] .

دخل تحت البلاغ ثلاث مسائل رئيسة ؛ هي :

١ - مسائل الإيمان : وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره من الله تعالى .

٢ - مسائل الشريعة : وهي الأحكام الشرعية التي تميز بها كل نبي بحسب ما أوحى إليه ، قال - تعالى - : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة : ٤٨] .

٣ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : وقد ورد في تفاصيل ذلك آيات كثيرة .

وأما من جهة الكفار المشركين ؛ فإن جميعهم كان مقصدهم الشر للأنبياء ومن آمن معهم ، وتضمن ذلك :

* الخضوع للأهواء والمصالح الشخصية : قال - تعالى - : ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الروم : ٢٩] ، قال ابن الجوزي : ﴿ بل اتبع الذين ظلموا ﴾ : أي أشركوا بالله ^(١) .

* البلاغ الشرطي :

وقد دخل تحته ثلاث مسائل رئيسة :

١ - الإصرار على عقيدة الشرك : قال - تعالى - : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [إبراهيم : ٩] .

٢ - التشبث بشرائع الجاهلية : قال - تعالى - : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ [الشورى : ٢١] .

٣ - الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف : وقد ورد في ذلك آيات كثيرة تبين تشبث المشركين بشركهم وسعيهم في النهي عن اتباع المرسلين ؛ من ذلك ما ذكره الله - تعالى - من موقف قوم صالح - عليه السلام - : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٥ - ٧٧] .

(١) زاد المسير في علم التفسير ، ابن الجوزي ، (٦ / ٢٩٩) .

النتيجة: نلاحظ مما ذكرناه حالة «التدافع التام» في المقاصد.

٣ - تدافع الوسائل:

غالباً ما يرسل الله - تعالى - رسولاً واحداً إلى قوم - وأحياناً يعزز بثان، وربما بثالث -، هؤلاء القوم يمثلهم في مواجهة الرسول ما أسماه القرآن: ﴿الْمَلَأُ﴾؛ لأنهم يملؤون العيون هيبة بما لهم من زعامة ووجاهة، وبطبيعة الحال فإن هؤلاء يسيطرون ويتحكمون بجميع الوسائل المادية والمعنوية، إنهم يملكون المال والسلاح والسلطة والعدد في الجانب المادي، ويملكون سلاح الشعور بالاستكبار والإحساس بالعلو والفوقية في الجانب المعنوي، وكانوا يعبرون عن ذلك بالسخرية والاستهزاء بالأنبياء ومن تبعهم. وقد استعملوا الجانب المادي في محاربة الرسل وقمع دعوتهم بما في ذلك الشروع في قتلهم، وقد نجحوا في ذلك أحياناً؛ كما حصل لنبي الله - تعالى - يحيى عليه السلام، وشبه لهم عيسى - عليه السلام - فقتلوا الشبه ورفع الله عيسى عليه السلام، وأخفقوا في ذلك أحياناً كثيرة، وكل ذلك ضمن قدر الله ومشيئته ووفق سننه.

أما الرسل ومن آمن معهم؛ فقد كانوا يفتقرون إلى الجانب المادي الذي يكافئ ما لدى الملأ، بل ولا يقاربه، لكنهم يمتلكون الجانب المعنوي بأضعاف مضاعفة من الجانب المعنوي الذي لدى الملأ. هذا الجانب هو الإيمان، إن أهم ميزة في هذا الجانب هي إمكانية تحويله إلى حالة مادية يعوض بها النقص في الجانب المادي، إن ترجمة ذلك تتمثل في أمور كثيرة؛ من أهمها:

١ - الثقة بوعد الله ونصره.

٢ - الصبر على مشاق الدعوة وطبيعة المواجهة.

٣ - الاستعداد التام والدائم للبذل (بأنواعه) في سبيل الله.

إن كلا من الطرفين يوظف جميع وسائله ضد الطرف الآخر.

النتيجة: الطرفان في حالة «التدافع التام» في استعمال الوسائل .

ما عوامل الحسم في هذا التدافع؟

للهزيمة الأولى يمكن أن يقول قائل: ما دام الطرفان متوازنين في حالة تقابلية من الضدية في العقائد والمقاصد؛ فالذي يحسم الموقف هو التدافع في الوسائل المادية، وبما أن الملاءم الذين يملكونها يتفوق كبير؛ فالنتيجة الطبيعية أن ينتصر الملاءم ومن معهم على الرسل ومن اتبعهم؛ غير أن الذي حصل، ويتكرر باستمرار، هو خلاف ذلك!

لقد كانت عقيدة الأنبياء تكسب أفراداً جددًا من قوم الملاءم، وهذا دليل مادي على أن «التدافع التام» في العقائد لم يكن متكافئاً بل كان لمصلحة الأنبياء، وإن كان بقدر ضئيل؛ ذلك أنه على الدوام كان أتباع الأنبياء قليلين جداً قياساً على أعداد المقيمين على الشرك.

ومن حيث المقاصد؛ فإن مقاصد الخير التي دعا إليها الأنبياء لا يجوز مقارنتها بمقاصد الشر التي كان عليها الملاءم وأقوامهم، فمقاصد الخير تحمل في كوامنها دوافع الدعوة إليها؛ في حين أن مقاصد الشر تحمل في طياتها دوافع التواري والتخفي، وشتان ما بين النقيضين.

وأما بخصوص الوسائل؛ فإن الأنبياء واثقون بنصر الله، وأما الملاءم وأقوامهم فليس لهم إلا ما يملكون.

فعندما استوفى الأنبياء والمرسلون دواعي الصمود في مواقف التدافع:

١ - فاستقاموا.

٢ - وصبروا.

٣ - ولم يهنوا.

٤ - ولم يدهنوا ..

. . أتاهم نصر الله ، وجاء الحسم منه وحده ، فهم قد استنفدوا جهدهم في حالات «التدافع التام» على مستوى العقيدة والمقاصد والوسائل ، ولم يكن مطلوباً منهم أكثر من ذلك ، فاستحقوا أن يُسَخَّرَ الله - تعالى - لهم من جنوده ما ينصرهم به ، جلاه في موكب مهيب ورعيب من آياته الكونية المزلزلة والباطشة .

وهذه بعض الأمثلة :

* قوم نوح عليه السلام : عندما بلغ التدافع بين نوح - عليه السلام - ومن آمن معه وبين المشركين مبلغه ، واستنفد نوح - عليه السلام - وسائله ؛ حسم الله - تعالى - هذا التدافع بأن أغرق الله الكافرين بطوفان عظيم ، ودفع بذلك فساد المفسدين ، قال - تعالى - : ﴿ فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ ۖ ﴾ [١٠] فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّثَمَرٍ ﴿ ١١ ﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿ [القمر : ١٠ - ١٢] .

* قوم هود عليه السلام : بعد أن احتدمت المواجهة بين هود - عليه السلام - وبين قومه ، واستوى التدافع بينهما على سوقه ؛ جاء أمر الله - تعالى - بتدمير عاد التي كانت طاغية وباغية ، متكبرة ومتجبرة ، وما كان أحد يشك أن التدافع بين هود وعاد سينتهي بالقضاء على هود ومن آمن معه ؛ إذ الجميع كانوا مبهورين بهذه الأمة ﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ [الفجر : ٨] ، ولكن جرت عليهم سنة الله - تعالى - بنصر أنبيائه على أعدائه ، قال - تعالى - : ﴿ وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرَصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿ ٢٦ ﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَزُوا نُحْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿ ٢٧ ﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾ [الحاقة : ٦ - ٨] .

* قوم صالح عليه السلام : دافع صالح - عليه السلام - قومه بالبينة فدفعوه بالتعجيز ، وطلبوا ناقة تخرج من صخرة !! فشق الله - تعالى - الصخرة وأخرج لهم الناقة ، فكانت «مدافعة» مبهرة ، فُنكسوا على رؤوسهم واستمروا على تحديهم ، فحسم الله - تعالى - هذا التدافع بآية قاهرة ، قال - تعالى - : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ

﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَانُوا لَمْ يَعْنُوا فِيهَا
أَلَا إِنَّ تَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لَتَمُودَ ﴿٦٨﴾ [هود: ٦٦ - ٦٨] .

* قوم شعيب عليه السلام: دافع شعيب - عليه السلام - قومه في مدين بالحجة والبرهان ، وإبطال ما هم عليه من الشرك والبهتان ، فدفعوه بالصد والرد ، وبالتهديد والوعيد بالنفي والتشريد ، قال - تعالى - : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُولُنَّ فِي مَلَّتِنَا ﴾ [الأعراف: ٨٨] ، فلما وصل التدافع مداه جاءه نصر الله ، قال - تعالى - : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٨٩] .

* قوم لوط عليه السلام: احتدم التدافع بين لوط - عليه السلام - وقومه حتى بلغ أقصاه ، دافعهم بالتوحيد والفضيلة ، ودافعوه بالشرك والرذيلة ، وعندما وصل الحد إلى أن يقول لوط - عليه السلام - : ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [هود: ٨٠] ؛ جاءه الحسم الإلهي «بدافعة» مدمرة ، قال - تعالى - : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [الحجر: ٧٢ - ٧٥] .

* قوم إبراهيم عليه السلام: تدافع شديد في العقيدة قاد إلى تدافع متسارع في الحركة ، إبراهيم - عليه السلام - يكسر أصنام قومه ، فيباشر قومه إحراقه ، فينصره الله في مشهد مهيب ، قال إبراهيم - كما حكاه الله - تعالى - عنه في كتابه - : ﴿ أَفْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٧ - ٧٠] .

* قوم موسى عليه السلام: دافع موسى - عليه السلام - بالتوحيد تأله فرعون ، ومَرَّ «التدافع» في صولات وجولات ، ولم يكن ثمة مقارنة في «القوى الظاهرة»

بين الطرفين ، وعندما ظن قوم موسى أن فرعون وجنده أوشكوا على الإطباق عليهم ؛ قالوا : ﴿ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾ [الشعراء : ٦١] ، قال موسى عندها وهو على علم بأن خط سيره مجار لسنن ربه في «التدافع» : ﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : ٦٢] ، وهكذا كان ، قال - تعالى - : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ [٦٣] وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ ﴿ ٦٤ ﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿ ٦٥ ﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿ ٦٦ ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ٦٣ - ٦٧] ؛ أي عندما ظن فرعون وجنده أن حسم التدافع لمصلحتهم أصبح بين أيديهم وصار وشيكاً ؛ جاءهم الحسم من الله - تعالى - من حيث لم يحتسبوا ، وباغت ساحتهم وهم في أوج قوتهم وبغيهم واعتدائهم ، تدافعٌ عجيبٌ وحسمٌ أعجبٌ !! قال - تعالى - : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [٩٠] آلآن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس : ٩٠ - ٩١] .

* قوم عيسى عليه السلام : اشتعل التدافع بين عيسى - عليه السلام - وبين بني إسرائيل ، ووصل مداه بتدبير مؤامرة قتله ، فقتلوا شبهه ورفع الله عيسى - عليه السلام - إليه ، قال - تعالى - : ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ [١٥٧] بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء : ١٥٧ - ١٥٨] ، لم ينته هذا التدافع بعد ، وله جولة صاخبة قادمة في طي السنين ، ولكنها في هذه المرة ستكون تحت راية شريعة الإسلام المحمدية ، قال - تعالى - : ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء : ١٥٩] .

تلك بعض الأمثلة ، وقد ذكر الله - تعالى - في كتابه ما آل إليه أمر كثير

من الأمم المكذبة لرسليها بعد أن خاضوا معهم لجة «التدافع» إلى أعماقها، قال - تعالى -: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت : ٤٠] .

لقد كان كل قوم يمارسون مع أنبيائهم «عولمة الشرك»، ولكن في بقعة جغرافية محدودة . أقول «عولمة الشرك» باعتبار أن الشرك كان عالمياً، فكل قوم كانوا يستندون إلى «عولمة الشرك» من حيث امتداده العالمي، ويمارسون «محدودية التصدي» من حيث البقعة الجغرافية؛ أي أن ظاهرهم الشرطي كان «عالمي الامتداد»، لكن واجهتهم المباشرة كانت «محدودة البقعة». في هذا الإطار حصل «التدافع العام»، فكانت النتيجة منسجمة مع «سنن التدافع» وفق المنهج الرباني؛ مما ترتب عليه إزالة فساد الشرك، وإقرار صلاح التوحيد في كل حالة تدافع .

فما «سنن التدافع» وفق المنهج الرباني؟! هذا ما سنعود إليه بعد حديثنا عن التدافع في الدائرة الشاملة .

ثانياً: التدافع في الدائرة الشاملة (أو العامة) :

الدائرة الشاملة (أو العامة) هي دائرة دعوة النبي ﷺ، وقد حوت هذه الدائرة مكونات الدوائر المحدودة، لكن امتازت عنها بأمور، سواء في ذاتها أو في نبيها ﷺ، وقد بين النبي ﷺ ذلك فقال: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيَصِلْ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تُحِلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَةً»^(١) .

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ١٠٤، رقم ٢٩٩ .

ويتبين من هذا الحديث ما يأتي :

١ - أن التدافع بين أمة النبي ﷺ والكافرين سيشمل الأرض كافة ، وليست بقعة محدودة كما في الدائرة الخاصة ، ويدل عليه قوله - عليه الصلاة والسلام - : «وجُعِلت لي الأرض مسجداً وطهوراً» .

٢ - وأن هذا التدافع سيستمر إلى قيام الساعة ، وليس مقيداً بمدة حياة النبي ﷺ ، فهي دائرة عامة في المكان والزمان ، «وبُعِثت إلى الناس عامة» ، ويدل عليها قوله - تعالى - : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبا : ٢٨] .

وهي شاملة للجن كذلك ، قال - تعالى - : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ [٢٩] قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأحقاف : ٢٩ - ٣٢] .

٣ - أن «دفع» النبي ﷺ مجلل بالهبة مكلل بالسؤدد ؛ بحيث أن أثره يشيع الرعب في قلوب أعداء المسلمين وإن بعد عنهم مسيرة شهر .

٤ - أن «دفع» المؤمنين ينطوي في مضامينه العامل النفسي المحرك ، فهو دفع مأجور في الدنيا بالغنائم وفي الآخرة بالشفاعة والجنة .

إن هذه «الدفع» الأربعة ملحوظ فيها التوازن :

فالدفعان الأولان يشكّلان عبئاً عظيماً تتحمل ثقله هذه الأمة بالخصوص دون الأمم السابقة ، فوزان ذلك أن يكون الدفعان الآخران مكافأة لهذه الأمة بسبب تلك الزيادة التي امتازت بها على غيرها من الأمم في الدفعين الأولين . وإذا كان أعداء الإسلام «يدفعون» لمقابلة «الدفعين الأولين» ؛ فإنهم محرومون من

عاملِي الدَفْعِينَ الْآخَرِينَ، قَالَ - تَعَالَى -: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]. فَإِنْ قِيلَ إِنَّهُمْ «يُدْفَعُونَ» لِأَجْلِ الْغَنَائِمِ، وَقَدْ يَحْصِلُونَ عَلَيْهَا أَوْ عَلَى بَعْضِهَا! قُلْتُ: نَعَمْ، لَكِنْ يَوَازِنُ ذَلِكَ فِي دَائِرَةِ التَّدَافِعِ وَقُوعِ الرِّعْبِ فِي قُلُوبِهِمْ، حَتَّى إِنْ كَانُوا فِي حَالَةِ انْتِصَارٍ فِي مَعْرَكَةٍ مَا؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَزَالُونَ مَرْعُوبِينَ مِمَّا يُمْكِنُ أَنْ تُسْفِرَ عَنْهُ الْمَعَارِكُ اللاحقة، قَالَ - تَعَالَى -: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٥١].

٥ - أَنْ حَالَةَ التَّدَافِعِ فِي الدَّائِرَةِ الْعَامَةِ؛ لَكُونِهَا فِي إِطَارِ «وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَةً»، فَإِنْ مِنْ طَبِيعَتِهَا أَلَّا تَحَافِظَ عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ، كَمَا هُوَ الْحَالُ فِي الدَّائِرَةِ الْمَحْدُودَةِ لِلتَّدَافِعِ، بَلْ هِيَ تَأْخُذُ أَوْضَاعاً «مَنَاطِيَّةً» - مِنْ الْمَنَاطِ - بِحَسَبِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ، فَلكلِّ حَالَةٍ زَمَانِيَّةٍ مَكَانِيَّةٍ لَوْنٌ خَاصٌّ مِنَ «التَّدَافِعِ» يَعْتَمِدُ عَلَى الْمَنَاطِ الْمَعْتَبَرِ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ.

وَيُعَدُّ كُلُّ «تَدَافِعٍ» زَمَانِيٍّ مَكَانِيٍّ رَصِيداً لِلتَّدَافِعِ الَّذِي يَلِيهِ، وَهَكَذَا حَتَّى وَقَتَنَا الْحَاضِرَ، فَالتَّدَافِعُ الْإِسْلَامِيُّ مَعَ الْعَوْلَةِ فِي زَمَنِ الْمَعَاصِرِ يَسْتَنْدُ إِلَى رَصِيدِ تَدَافِعِي عَمْرِهِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْنًا مِنْ حَيْثُ الْخُصُوصِ، وَإِلَى رَصِيدِ غَائِرٍ فِي الزَّمَانِ مِنْذُ عَهْدِ نُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مِنْ حَيْثُ الْعُمُومِ، وَلَكِنْ الْمَشْكَلَةُ قَائِمَةٌ فِي ضَعْفِ الْاسْتِنْهَاضِ الدَّعْوِيِّ لِلِاسْتِفَادَةِ مِنْ ذَلِكَ الرِّصِيدِ، وَفِي تَوْظِيْفِهِ فِي الصَّرَاعِ الْعَالَمِيِّ - الْعَوْلِيِّ الْقَائِمِ.

نريد الآن أن نسبر غور ذلك كله في إطار الدائرة الشاملة أو العامة.

التدافع الرسالي الشرقي(*):

نقسم التدافع الرسالي الشرقي إلى قسمين رئيسين:

(*) أي التدافع بين الرسالة التوحيدية ومن يؤمن بها، وبين الشرك ومن يعتنقه.

الأول: التدافع في العهد المكي .

الثاني: التدافع في العهد المدني .

سنلقي ضوءاً على هذه «التدافعات» من منظار الزوايا الثلاث التي ذكرناها، وهي: (العقائد، المقاصد، الوسائل)، وينبغي أن نستحضر دائماً علاقة ما سأقوله مع حالة التدافع مع العولة في واقعنا المعاصر .

الأول: التدافع في العهد المكي:

استمر ثلاثة عشر عاماً .

إن هذا التدافع له الميزات نفسها التي ذكرناها عن الحديث عن التدافع في الدائرة المحدودة لما سلف من الأنبياء السابقين؛ غير أنه لم ينته بالحسم الذي انتهى إليه ذلك التدافع، وذلك لأن التدافع في العهد المكي هو مرحلة من عموم التدافع في العهد النبوي وليس هو نهايته .

أولاً: تدافع العقائد في العهد المكي:

هو تدافع بين الإيمان والكفر، قال - تعالى -: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقال - تعالى -: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: ١ - ٣]، وفي آخرها ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] .

ذلك هو الإطار الكلي في التدافع، وقد تضمّن هذا الكلي جزئياته، وهي الوضوح والتميز والمفاصلة والتجرد، وسأذكرها مختصرة جداً على الوجه الآتي:

١ - الوضوح في المعنى:

خاطب القرآن العرب بلغتهم بأبلغ بيان وأوضح معنى، فحقق في ذلك

غائتين:

الأولى: وضوح الدعوة إلى عبادة الله - تعالى - وحده، قال - تعالى -: ﴿وَأَنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥﴾ .

الثانية: تجلية ذلك بلسان عربي فصيح يتحدث أحداً أن يأتي بمثله، قال - تعالى -: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿البقرة: ٢٣ - ٢٤﴾ ، وامتد التحدي إلى مداه، فقال - تعالى -: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء: ٨٨] .

لقد حصل التدافع في هذا الجانب من جهة أن كلا الطرفين قد أوضح معنى ما يريده من الطرف الآخر، وبما أن المعنيين متضادان تماماً؛ فالتدافع التام قد حصل على وفق ذلك .

انظر إلى الموقف النبوي ووضوح معنى ما يدعو إليه في هذه الآية الكريمة، قال - تعالى -: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَنتُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٩] ، لقد فهم المشركون هذا المعنى، فأجابوا بلسان عربي فصيح: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] ، إنه تدافع تام في معنى واضح لا لبس فيه .

ومثل ذلك في قضية الإيمان باليوم الآخر: قال - تعالى -: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَكُمْ﴾ [سبأ: ٣] ، إنه تدافع تام في معنى واضح لا لبس فيه .

ومثل ذلك في قضية الإيمان بالقرآن المنزل: قال - تعالى -: ﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَىٰ

الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ [النمل: ٦].

إن هذه الآية تثبت ثلاثة أمور:

الأول: القرآن.

الثاني: أنه من الله.

الثالث: تلقي النبي ﷺ له.

فماذا قال المشركون؟! قال الله - تعالى -: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [سبأ: ٣١]؛ أي رفضوا الإيمان به من حيث هو، ورفضوا الإيمان بالتوراة والإنجيل التي أوصت بالإيمان به، قال ابن الجوزي: «﴿وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾»، يعنون التوراة والإنجيل، وذلك أن مؤمني أهل الكتاب قالوا: إن صفة محمد في كتابنا (أي موجودة في كتابنا)، فكفر أهل مكة بكتابكم (أي بكتاب أهل الكتاب)»^(١). ومدار عدم توحيدهم عبادة الله - تعالى - وعدم الإيمان باليوم الآخر وبالقرآن المنزل؛ هو عدم إيمانهم بالرسول محمد ﷺ.

فعندما قال الله - تعالى -: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [فاطر: ٢٤]؛ قال المشركون - فيما حكاه عنهم القرآن -: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١]؛ أي أنهم دفعوا ما أثبتته الله - تعالى - لنبيه من إرساله إياه بالحق، دفعوه بالتكذيب بصيغة الاستفهام الإنكاري، وعززوا تكذيبهم له بالطلبات التعجيزية كما في سورة الإسراء، ولن يعجز الله شيء في الأرض ولا في السماء، فلو شاء لفعل لنبيه ما يطلبون، لكن الله - تعالى - علم أنهم لم يطلبوا ذلك لأجل التصديق والإيمان؛ بل بسبب الكبر والاستعلاء بالباطل الذي أُشربت قلوبهم.

٢ - التميز في المضمون:

لقد كان واضحاً التدافع التام في التميز في المضمون من حيث:

(١) زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، (٦ / ٢٩٩).

١ - المرجعية: لقد كانت مرجعية النبي ﷺ الوحي، قال - تعالى -: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٠٦]، وقال - تعالى -: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ - ٤]. أما المشركون فكانت مرجعتهم ما ورثوه عن آبائهم، قال - تعالى -: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤].

٢ - المحتوى: إن ما جاء به النبي ﷺ منهاج كامل للحياة، قال - تعالى -: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ [الحاثية: ١٨]، وقال - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨]. أما محتوى ما كان عليه المشركون؛ فهو إما ما شرعه لهم الشركاء من البشر القاصرين المنحرفين، كما قال - تعالى -: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، وإما الهوى المحض، كما قال - تعالى -: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الروم: ٢٩]. نعم، كانت لهم بعض الخصال المحمودة، لكنها غير مشدّبة ولا مهذّبة، فشذّبتها الإسلام وهذّبتها، قال ﷺ: «إنما بُعثت لأتمم صالح الأخلاق»^(١)، فمدحه الله - تعالى - بذلك فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وتفسيره ما ذكرته عائشة - رضي الله عنها -: «فإن خلق النبي ﷺ كان القرآن»^(٢)، فدفعت الأخلاق النبوية الرفيعة أخلاق الجاهلية الوضيعة. ومن أبرز التدافع في المحتوى التدافع في الشعائر، وأخصها شعيرة الصلاة، فإن النبي ﷺ كان يصلي لله مستقبلاً الكعبة، قال - تعالى -: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، وكان المشركون إما يصلون لأصنامهم فيسجدون لها ويولونها وجوههم، وإما يدورون حول الكعبة

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، والبيهقي في دلائل الإيمان، وهو في صحيح الجامع، رقم ٥٢٣٤.

(٢) صحيح مسلم، (١ / ٥١٣)، رقم ٧٤٦.

يصفقون ويصفرون، قال - تعالى -: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥].

٣ - المفاصلة في المواقف العقيدية:

نظراً للتدافع التام بين العقيدتين؛ فلا بد من حصول التدافع في المواقف، والمفاصلة بينهما على ذلك، كان كل طرف يريد المحافظة على موقعه ويتمسك بمبادئه، والفرق بينهما أن النبي ﷺ يريد الخير لقومه وإنقاذهم من النار؛ في حين يريد المشركون الشر له ولدعوته والتربص به وبمن اتبعه، ولهذا فإن النبي ﷺ كان يتحمل الضغط النفسي إشفاقاً على قومه، قال - تعالى -: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، وقال - تعالى -: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨]، ومع ذلك فإن النبي ﷺ كان يمارس ضغطه على المشركين دون أن يقع في فخ التنازلات، أو ما يُسمى بلغة العصر «أنصاف الحلول»، فحافظ على نقاء خندقه الإيماني. من جهتهم؛ فإن المشركين مارسوا أقصى أنواع الضغوط على النبي ﷺ ليتنازل إيمانياً شيئاً ما عما يدعوهم إليه، فباءت جميع محاولاتهم بالإخفاق، وقد سجل القرآن مواقف كثيرة تدخل في هذا السياق، أذكر على سبيل الإشارة وليس الحصر ثلاثة منها:

الأول: قوله - تعالى -: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: ١ - ٢]، وهذا حين عرض الكفار على النبي ﷺ أن يعبدوا إلهه سنة ويعبد أوثانهم سنة.

الثاني: قوله - تعالى -: ﴿وَذُؤا لَوْ تَذَهْنُ فَيَذْهَبُونَ﴾ [القلم: ٩]، قال مجاهد: «ودوا لو تركن إلى آلهتهم وتترك ما أنت عليه من الحق»^(١).

الثالث: قوله - تعالى -: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلاً﴾ [٧٣]، ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (٨ / ١٩٠).

﴿٧٤﴾ إِذَا لَأَذْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ [الإسراء: ٧٣ - ٧٥]، قال قتادة: «إن قريشاً خلّوا برسول الله ﷺ ليلة إلى الصباح يكلمونه ويفخمونه ويقولون: أنت سيدنا وابن سيدنا. وما زالوا به حتى كاد يقاربهم في بعض ما يريدون، ثم عصمه الله من ذلك، ونزلت هذه الآية» (١). نعم! لقد كان تدافعاً شديداً، كلُّ تمسك بعقيدته، وكلُّ أراد أن يضغط على الآخر ليسحبه لحنقه العقدي. إن القضية التي نريد أن نشير إليها هنا؛ هي أن النبي ﷺ رفض رفضاً قاطعاً أي وسيلة يمكن أن تؤدي إلى «تداخل الخنادق العقديّة»، وتمسك بالوضوح التام في المفاصلة بحسب ما أمره الله تعالى؛ مستشرفاً معنى هذه الآية العظيمة: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فلا تداخل مطلقاً، بل لا بد من الكفر بالطاغوت أولاً قبل التشرف بلمس عتبة الإيمان؛ تماماً كما لا بد من التطهر من النجس أولاً قبل الدخول إلى رحاب الصلاة.

ضمن هذا المعنى الجلي برز في مكة معسكران: معسكر الإيمان، وضم النبي ﷺ ومن آمن معه، وكان معسكراً مضطرباً الاتساع. ومعسكر الكفر، وضم الملأ القرشي ومن التف حوله من عامة المشركين. نشأت عن هذين المعسكرين حالتان حركيتان متفاصلتان ومتدافعتان، وبما أن العالمية سمة هذا الدين؛ فإن الحالة الحركية الإيمانية لم تتوقف في العهد المكي عند حدود مكة، بل سعت إلى الامتداد خارجها آخذة في ذلك زمام المبادرة، تاركة المشركين يلهثون وراء انسيابها في محاولات يائسة لإيقاف هذا التمدد، ولكن دون جدوى.

٤ - التجرد من قيدي الزمان والمكان:

امتازت العالمية الإسلامية من حيث الزمان: بأنها فيما لحق باقية إلى قيام الساعة، قال ﷺ: «لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله؛ قاهرين

(١) زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، (٥ / ٦٨).

لعدوهم، لا يضرهم من خالفهم، حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك»^(١)، وأنها فيما سبق امتداد للدوائر الإيمانية المحدودة التي كانت قبلها، فدين الجميع هو الإسلام، قال - تعالى -: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وأن جميع الأنبياء السابقين بشرّوا بالنبي ﷺ، وأخذ الله عليهم الميثاق وعلى أقوامهم أن يؤمنوا به وينضوا تحت لوائه إذا بعث، قال - تعالى -: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

وامتازت العالمية الإسلامية بتجردها من محدودية المكان، وذلك أن هذا الدين جاء للناس كافة؛ بمعنى أنه لكل الناس أينما كانوا، قال - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، وضمن هذا السياق جاءت الهجرة إلى الحبشة، والعرض على القبائل، وذهاب النبي ﷺ إلى ثقيف . . وغيرها من المواقف النبوية في العهد المكي، والتي تعني في مضمونها أن مكة كانت مجرد نقطة انطلاق آنئذ، قال - تعالى -: ﴿وَلْتَنْذِرْ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢].

ماذا يعني هذا فيما يخص تدافع العقائد؟ :

إنه يعني أن ما ينبغي أن يترسخ في قلوب المؤمنين من عقيدة التوحيد وما تنطوي عليه في جزئياتها؛ قد حاز من الشمول في المحتوى والعمق في المعنى ما يمكنه من مدافعة جميع العقائد الباطلة في أي زمان وفي أي مكان، مهما كان خلف تلك العقائد من نظريات أو فلسفات أو أفكار أو آراء أو شعوزات أو بدع أو نظريات، مدافعة فيها من قوة الحجة وظهور البيان ومتانة البرهان ما يبهز كل ذي لب وجنان، وما يبطل حجج جميع تلك العقائد الزائفة وما انطوت عليه وما

(١) صحيح مسلم (٣ / ١٥٢٥)، رقم ١٩٢٤. ورواه البخاري وغيره بألفاظ أخرى عن عدد من الصحابة.

دعت إليه من زيف وبهتان، قال - تعالى -: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، وقال - تعالى -: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء: ١٨] . إنها العالمية التي أخذت منذ البداية في الاعتبار أنها ستكون في مواجهة دوائر الكفر بعد رحلة وقرناً بعد قرناً؛ إلى أن أضحت هذه العالمية في خضم مدافعة العولمة الحالية؛ مع الأخذ بعين الاعتبار أن ذلك كله قد تم رغم المدافعة الشاملة من قبل المشركين ليقفوا زحف الحق وليوطدوا أركان الباطل، ومن فهمنا لهذه الحقيقة نعلم لماذا جاء في القرآن المكي ما يرد على اليهود والنصارى، كما في سورة مريم وغيرها، وهي سور مكية، فقد كان ذلك تحصيئاً مبكراً للمسلمين في عقيدتهم قبل أن تكون الهجرة وتأتي المواجهة المباشرة معهم .

ثانياً: تدافع المقاصد في العهد المكي:

لقد اعتمد تدافع المقاصد في العهد المكي على عاملين رئيسين؛ هما:

أولاً: الإخلاص والتجرد من مصلحة الذات :

تماماً كالأنبياء والمرسلين السابقين؛ لم يكن للنبي ﷺ حظ خاص له فيما دعا قومه إليه من توحيد الله - تعالى - والإقلاع عن الشرك؛ إذ إنه لم يقصد شيئاً لنفسه من ذلك البتة، وقد كرر القرآن في آيات عدة نزلت في العهد المكي في أوقات متفاوتة هذا المعنى الجليل؛ بما يفيد مواظبة النبي ﷺ على تأكيد ذلك في عدة مناسبات على مدى ثلاثة عشر عاماً؛ أي أن ذلك، أي عدم تقاضي أجر على دعوته، هو موضوع أصلي في منهاجه، لا يخضع إلى تغير الظروف والأحوال، بل هو ثابت وراسخ . ولقد بلغت الآيات التي تؤكد هذا المعنى ثمانين آيات، وردت في سور الأنعام ويوسف والفرقان وسبأ وص والشورى والطور والقلم، ففي سورة الأنعام قوله - تعالى -: ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وفي سورة يوسف تصديق لقوله ذاك، قال - تعالى -: ﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾

[يوسف: ١٠٤]. وفي سورتي الطور والقلم تأكيد ذلك بصيغة الاستفهام الاستنكاري، قال - تعالى -: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّعْرَمٍ مَثْقُلُونَ﴾ [الطور: ٤٠].

إن هذه الخاصية قد انتقلت بالدعوة من دائرة مصلحة الذات إلى دائرة التعبد المحض، وهذا يعني في مفهوم العالمية أن الجهد المبذول لنشر الإسلام على مستوى العالم كانت بؤرة انطلاق دعوة خالصة، لها عمقها التاريخي عبر الدوائر التي غطتها دعوات الأنبياء السابقين، ثم وجدت امتدادها في أصل المنهج النبوي المحمدي الذي أورقت أغصانه فيما بعد عبر امتدادات الزمان والمكان، وهي في كل ذلك تدافع أعداء الدعوة - من جهة -، والمتنفعين منها لحاجة أنفسهم - من جهة أخرى -، إن هذه المنهجية المتجردة من حظ الذات هي القادرة اليوم - فيما لو استحضرتها في الواقع الدعوي - على مقابلة العولمة ومقارعتها.

ثانياً: البلاغ:

هو قصد بذاته، وهو نفسه الذي ذكرناه في الدوائر المحدودة من دعوة الأنبياء السابقين، قال - تعالى - آمراً رسوله ﷺ بالبلاغ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال في حصر رسالته بالبلاغ: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [العنكبوت: ١٨]، وقال - تعالى -: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨]. إن هذا البلاغ له صفة العالمية؛ لذا كان من المتوقع أن يصطدم وهو ينتشر عبر الزمان والمكان بكل «البلاغات» الشريكية، ويتدافع معها عبر توسع مضطرد.

إن الدعائم الأساسية لهذا البلاغ بقيت ثابتة عبر العهدين المكّي والمدني؛ غير أن مقتضيات التنفيذ اختلفت؛ ذلك أن استحقاقاتها من حيث الوجود شملت العهد الرسالي كله، ولكنها من حيث العدم اقتصرت غالباً على العهد المدني. وأقصد بقولي «من حيث العدم» أي العقوبات الدنيوية التي يطبقها الحاكم في

حالة انتهاك حرمة الأحكام (أي انتهاك حالة الوجود)، حيث إن ذلك كله كان من خصائص العهد المدني. وبناءً على ما ذكرنا؛ فإن البلاغ في العهد المكي في مسائل الإيمان والشرعية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد انضوى معظمه في كليات المقاصد الخمسة التي قصدها الإسلام، وهي: حفظ الدين، والنفس، والعرض، والعقل، والمال. وذلك من حيث الوجود.

إن البلاغ الرسالي في إطار المقاصد الخمسة قد شكّل «دفعاً» بحسب أولوياتها، ثم، وعلى النسق نفسه، إن رفض المشركين لذلك البلاغ قد شكّل «دفعاً مضاداً» بحسب تلك الأولويات؛ غير أن ذلك الوضع ربما تلاشى إزاء بعض تلك المقاصد لعدم امتلاكه قدرة الرد أو التسوية، وربما أحجم عن الدفع في بعض جزئيات المقاصد ورد على جزئياتها الأخرى. إن دراسة تفصيلية لهذه النقطة ستوضح حصول «شبكة صراعات متداخلة» في إطار تدافع المقاصد بين الطرفين: الإيماني والشركي.

ولما كان هذا البحث مختصراً فسأشير لما ماً لبعض ذلك على الوجه الآتي:

١ - التدافع في مقصد حفظ الدين:

أشرت إلى ذلك في مقصد تدافع العقائد، وبيّنت «الدفع» النبوي وما قابله من «الدفع» الشركي. وبما أنه في العهد المكي لم تكن للإسلام دولة ذات سلطة؛ فإن الدفع من حيث العدم (أي الكفر أو الردة) لم تكن له تشريعات بصده، كتشريع الجهاد أو إقامة حد الردة مثلاً، بل كان الدفع لذلك معلّق بعقاب الآخرة فحسب، كقوله - تعالى -: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ هُمُ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَوَخَّوْا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوا﴾ [الكهف: ١٠٦]، والآيات في هذه المعنى كثيرة جداً، ولكن الدفع النبوي كان من الشمول في إطار هذا المقصد؛ بحيث أنه لم يتوقف عند ذكر الجزاء على الشرك، بل إنه أغلق كل الزوايا التي من الممكن من خلالها أن يدفع المشركون عن شركهم، فلم يبق سبيل عقلي أو سمعي إلا وسلّكه، ثم اندفع إلى أقصى مداه

فأحكم سد جهته المقابلة ، فحال دون إمكان ولوج الدفع الشركي في منحاه أو في طريقه ، وقد استمر هذا التدافع على مدى الليالي والأيام طوال ثلاثة عشر عاماً ؛ أي مدة العهد المكي ؛ بمعنى أن هذا التدافع لم يكن لمرة أو مرات عديدة ، بل كان سمة مرحلة كاملة .

لنقرأ معاً بعض آيات الكتاب بهذا الخصوص :

قال - تعالى - : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

قال - تعالى - : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَأَبْتَغُوا إِلَيَّ الْعَرْشَ سَبِيلًا ﴾ [٤٢] سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء : ٤٢ - ٤٣] .

وقال - تعالى - : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ [المؤمنون : ٩١] .

وقال - تعالى - : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ [٣٥] أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور : ٣٥ - ٣٦] .

وقال - تعالى - : ﴿ أَمِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَلَمْ يَعْلَمِ اللَّهُ أَنْ يُمْرَأَهُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ ﴾ [٦٠] أَمْنَ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَمْ يَعْلَمِ اللَّهُ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [٦١] أَمْنَ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَمْ يَعْلَمْ اللَّهُ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [٦٢] أَمْنَ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَمْ يَعْلَمْ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [٦٣] أَمْنَ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَمْ يَعْلَمْ اللَّهُ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [النمل : ٦٠ - ٦٤] .

هذه الآيات وغيرها دفع بها النبي ﷺ مزاعم المشركين ، فلم يكن لهم بد من أن يدفعوا بما زعموه أنه رد ؛ من مثل قولهم - فيما ورد عنهم في القرآن - : ﴿ هَذَا

سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿ [الأحقاف: ٧]، و ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥]، و ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ آفَتَرَاهُ وَاعَازَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ [الفرقان: ٤]، أو قولهم: ﴿اكَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]، ولا شك أن هذا دفع متهافت لا قيمة له ولا وزن، تمجده العقول الراجحة، وتنكره القلوب السليمة. ولقد كانت النتيجة الحتمية أن براهين مقصد حفظ الدين وسعت دائرة الداخلين في الإسلام لقوة بيانها ووضوح حجتها، فكان دفعها قوياً فعّالاً؛ في حين كان دفع المشركين ضعيفاً سلبياً.

٢ - التدافع في مقصد حفظ النفس :

اعتبر الإسلام النفس البشرية مصونة، لا يجوز إزهاقها إلا بحقها الذي حدده الشرع وبيّنه، واعتبر ذلك أصلاً من حيث الوجود، وهذا كان هو «الدفع» في العهد المكي.

استمر هذا الدفع على حاله في العهد المدني، لكن نزلت بخصوصه تشريعات من حيث العدم، وهي تشريعات القصاص والفدية والعفو كل بحسبها، ولم يكن للمشركين إمكان لمقابلة هذا الدفع؛ ذلك أن «الدفع» الإلهي قد أحكم هذا المقصد من حيث الوجود بدائرة شاملة ثم بدوائر خاصة. أما الشاملة فقوله - تعالى -: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وأما الدوائر الخاصة فمنها قوله - تعالى -: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقوله - تعالى -: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ [الإسراء: ٣١]، ومنها قوله - تعالى -: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨ - ٩]، قوله - تعالى -: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨ - ٥٩].

٣ - التدافع في مقاصد حفظ العرض والعقل والمال :

ما نقوله في ذلك هو على منوال ما ذكرناه نفسه في المقصدين السابقين،

ونترك الخوض في ذلك لتنشيط روح البحث لدى القارئ.

التدافع في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

معظمه قد دخل في المقاصد الخمسة، ولكن نودّ إضافة بعض الخصوصيات بهذا الشأن:

١ - إن التدافع على مستوى العقائد لا يبطل الحق الأصلي على مستوى المقاصد، قال - تعالى -: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام: ١٥١]، قال - تعالى -: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥]، وقال - تعالى -: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْ دَيْدِكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]، ويبيّن الله - تعالى - أن مرتبة هذا المقصد تأتي مباشرة بعد مقصد توحيد الله تعالى، قال - تعالى -: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

٢ - إن بعض المقاصد تأخذ طابع التعميم في الأمر والنهي، وطرحها بهذا الأسلوب في طريقة «الدفع» يجعل أمر رد دفعها من قبل المشركين غير وارد أو مستحيلاً؛ من ذلك قوله - تعالى -: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، فلا يستطيع المشركون القول: بل نريد غشيان الفواحش! وإن كانوا يغشونها، فإن ذلك مسيء لقائله عقلاً وعرفاً. نلاحظ هنا أن عموم الآية ما أبقى خاصاً؛ لأنها تناولت عموم المخاطبين دون ربطها بالعقيدة من حيث الامتثال، وإن كانت الآية ارتبطت بالعقيدة من حيث جهة الأمر وجهة السياق (راجع الآية كاملة)، ولأنها تناولت الظاهر والباطن؛ فماذا بقي؟!

٣ - إن حفظ حقوق المستضعفين مسؤولية جماعية، ومن ثمّ فهو من مقاصد الدفع التي تقع في دائرة الامتثال العام، قال - تعالى -: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، فمن دفع بضدها ظهر ظلمه وبان جوره.

٤ - إن تعزيز الأمن الاجتماعي مقصود بذاته ، وإن انتهاك ذلك يؤدي إلى شيوع الاستغلال وأكل المال بالباطل ، قال - تعالى - : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [الأنعام : ١٥٢] ، وهذا دفع لما كان عليه المشركون الذين فضح الله - تعالى - حالهم فقال : ﴿ وَيَلْ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ [المطففين : ١ - ٣] .

٥ - إن الكلمة مسئولية ، وإن العدل في التلفظ بها مقصد شرعي ، وعلى ذلك فإن كل ما دعا إليه النبي ﷺ من أمر بمعروف أو نهى عن منكر هو عدل بذاته ، قال - تعالى - : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ [الأنعام : ١٥٢] ، وهو دفع نبوي لإشاعة الصدق ونشر الحق ، وبما أن المشركين رفضوا الاستجابة لدعوة النبي ﷺ ؛ فرفضهم ذلك وردهم له هو دفع شركي لإشاعة الكذب ونشر الباطل (قارن ذلك بما عليه أصحاب دعوات العولمة اليوم) .

٦ - من تميز بالإيمان دخل في دائرة الجماعة المسلمة بغض النظر عن حاله الاجتماعي أو انتمائه العرقي ، وإن الإيمان هو اللحمة التي تجمعهم ، وإن التمايز الطبقي هو عرف جاهلي ، دفع الإسلام بضده ، قال - تعالى - : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ [الكهف : ٢٨] ، فضمت هذه الجماعة بلالاً الحبشي وصهيياً الرومي ثم سلمان الفارسي فيما بعد (في العهد المدني) ، كما انتظمت الأبيض والأسود والغني والفقير والحر والعبد والرجل والمرأة والكهل والفتى . هذه المجموعة - بهذه التشكيلة - هي التي تجسّد فيها الواقع الفعلي لتطبيقات الأمر والنهي ، فكانت تمثل حالة الدفع الإيجابي ، وكان المجتمع الشركي يمثل حالة الدفع المضاد .

نلاحظ فيما ذكرناه في الأمور الستة السالفة : أن الدفع النبوي كان باتجاه مقصد «الخير» ، وأن الدفع الشركي كان في اتجاه مقصد «الشر» ، فهو «تدافع تام» في العموم ؛ إذ لا يخلو بعض أفراد المشركين من مقصد الخير ، لكننا هنا نريد

تسجيل الحالة الغالبة التي تُعدُّ سمة عامة وظاهرة .

إن العلماء والدعاة والجماعات الإسلامية مدعوون اليوم للنظر ملياً في سمات التدافع في منظومة المقاصد، سواء من حيث هي، أو من حيث طريقة عرضها بسمتها العالمي، إزاء منظومة المقاصد التي تطرحها العولمة المعاصرة .

ثالثاً: تدافع الوسائل في العهد المكي:

مع تضاد العقائد وتعارض المقاصد بين المؤمنين والمشرّكين؛ كان لا بد أن يتدافع الطرفان، وأن يتمخض ذلك عن استخدام كل منهما لما يملكه من وسائل لتدعيم موقفه، والفرق بينهما :

١ - أن الوسائل النبوية استُخدمت في سبيل إحقاق الحق وإزهاق الباطل، وأن الوسائل الشريكية استُخدمت في سبيل تثبيت الباطل والدفاع عنه وإزهاق الحق وفضّ الناس عنه .

٢ - أن الوسائل النبوية تقيدت اختياراتها بدائرة المشروعية؛ في حين كانت الوسائل الشريكية مفتوحة الاختيارات، آخذة بمبدأ الغاية تسوّغ الوسيلة أو الوسيلة .

٣ - أن القائمين على تنفيذ الوسائل النبوية (أي المؤمنين) عددهم قليل؛ بينما القائمون على تنفيذ الوسائل الشريكية عددهم كبير، بل هم سكان مكة أجمعون، ما عدا من آمن .

٤ - أن معظم منفذي الوسائل النبوية كانوا من المستضعفين؛ بينما منفذو الوسائل الشريكية كانوا هم أصحاب السلطة، إنهم الملاء من قريش، ثم عامة قريش من ورائهم .

٥ - تمخض عن ذلك أن الإمكانيات المتاحة للوسائل النبوية ضيقة جداً؛ بينما الإمكانيات الشريكية المقابلة واسعة جداً .

وبناءً على ما ذكرناه؛ فإن من المتوقع منطقياً:

- ١ - أن يكون وضع «الدفع» النبوي في حالة «دفاع»؛ أي رد فعل .
 - ٢ - أن يكون وضع «الدفع» الشرطي في حالة «هجوم»؛ أي المبادرة بالفعل .
- لكن الذي حصل كان على عكس ذلك في أغلبه - كما سيأتي -، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أن القيادة النبوية الحكيمة استطاعت أن توظف تلك الإمكانيات الضعيفة توظيفاً صحيحاً في أتون «المدافعة»، وأن تستخرج من التفاعل الإيماني أقصى طاقاته المتهوجة في نسيج أفرادها، ومعادلة ذلك هي:
- أقصى الطاقة الإيمانية + توظيف صحيح لها = أفضل النتائج المشروعة .
- وتتضمن أقصى الطاقة الإيمانية ثلاثة عناصر؛ هي:

- ١ - الثقة المطلقة بوعد الله ونصره .
 - ٢ - الصبر على مشاق الدعوة وطبيعة المواجهة .
 - ٣ - الاستعداد التام والدائم للبذل - بأنواعه - في سبيل الله .
- وهي نفسها التي ذكرناها في موضوع «الوسائل» عند الحديث عن الدوائر المحدودة .

وأما التوظيف الصحيح لهذه الطاقات الإيمانية فيتضمن:

- ١ - قيادة واعية وحازمة .
 - ٢ - العلم بمكونات ساحة الصراع (على مستوى الكليات والجزئيات) .
 - ٣ - الأخذ بزمام المبادرة .
 - ٤ - استنفاد الجهد في الأخذ بالأسباب المشروعة (المادية والمعنوية) .
- نلاحظ أن مكونات «التوظيف» المذكورة أخذ بها المشاركون كذلك، ولكنهم وظّفوها لخدمة الباطل، مع ملاحظة أن كلمة «المشروعة» لا معنى لها عندهم .

ضمن حدود هذه المقدمة التي تضمنت القواعد؛ فإنني سأسوق أمثلة على أهم محطات «التدافع» في «الوسائل» في العهد المكي، وسأؤجل الكلام على إسقاطات هذه القواعد على الأمثلة المختارة إلى ما بعد سوقها:

المثال الأول: من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما -: «لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]؛ خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا، فهتف: يا صباحاه! فقالوا: من هذا؟ فاجتمعوا إليه، فقال: أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذباً. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. قال أبو لهب: تباً لك، ما جمعتنا إلا لهذا؟! ثم قام، فنزلت ﴿تَبَّتْ يُدَا أَيْبَى لَهُبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١]»^(١).

المثال الثاني: من حديث عقيل بن أبي طالب في ذكر طلب قريش منع الرسول ﷺ من غشيانهم ناديهم، وفيه: «فحلّق رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء فقال: ترون هذه الشمس! قالوا: نعم! قال: فما أنا بأقدر أن أدع ذلك منكم على أن تشعلوا منها بشعلة»^(٢).

المثال الثالث: من حديث ربيعة بن عباد الديلي، وكان جاهلياً ثم أسلم، قال: (رأيت رسول الله ﷺ بصر عيني بسوق ذي المجاز يقول: «يا أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»، ويدخل في فجاجها والناس متقصفون عليه، فما رأيت أحداً يقول شيئاً، وهو لا يسكت يقول: «يا أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»، إلا أن وراءه رجلاً أحول وضيء الوجه ذا غديرتين يقول: إنه صابئ كاذب. .) الحديث، وفي رواية أخرى قال: (إني لمع أبي، رجل شاب، أنظر إلى رسول الله ﷺ يتبع القبائل، وراءه رجل أحول وضيء ذو جمّة، يقف رسول الله ﷺ على القبيلة يقول: «يا بني فلان، إني رسول الله إليكم، أمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تصدقوني حتى أنفذ عن الله ما بعثني به. . .)» الحديث^(٣).

(١) فتح الباري، ابن حجر (٨ / ٧٣٧)، رقم ٤٩٧١، صحيح مسلم، (١ / ١٩٤)، رقم ٢٠٨.

(٢) رواه أبو يعلى بإسناد صحيح، والمطالب العالية، ابن حجر، رقم ٤٣٧٨.

(٣) مسند أحمد، (٣ / ٤٩٢).

ومن حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت : « قلت للنبي ﷺ : هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال : نعم ، لقد لقيت من قومك ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ؛ إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلاله ، فلم يجبني إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسي ، فإذا أنا بسحابة قد أظلمتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل ، فناداني فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم . فناداني ملك الجبال ، فسلم علي ، ثم قال : يا محمد ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟ قال النبي ﷺ : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً^(١) .

وقد تعددت طرائق إيذاء المشركين للرسول ﷺ ؛ من ذلك :

- السخرية ، قال - تعالى - : ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ ١٢ وَإِذَا ذَكَرُوا لَا يَذْكُرُونَ ١٣ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخَرُونَ ﴾ [الصفات : ١٢ - ١٤] ، وقال - تعالى - : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴾ ٢٩ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ ٣٠ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴾ ٣١ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ ﴾ [المطففين : ٢٩ - ٣٢] .

- الاستهزاء ، قال - تعالى - : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴾ [الفرقان : ٤١] ، وقال - تعالى - : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ ٦ وَإِذَا تَتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قِرَاءٌ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [لقمان : ٦ - ٧] .

وقال - تعالى - : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ [الحجر : ٩٥] .

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ، محمد فؤاد عبد الباقي ، ص ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، رقم . ١١٧٣

- الاتهام بالجنون والكهانة والكذب والسحر وتعاطي الشعر، قال - تعالى -: ﴿وَيَقُولُونَ أَأَنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٦]، وقال - تعالى -: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور: ٢٩]، وقال - تعالى -: ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤].

- التماذي في الأعراض، قال - تعالى -: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاغْمِلْ إِنَّنَا غَامِلُونَ﴾ [فصلت: ٥]، وقال - تعالى -: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَشْتُونَ صُدُورَهُمْ لَيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [هود: ٥].

- محاولة إحراجه بعدم تميزه عنهم بما يليق بكونه رسولا، قال - تعالى -: ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [٧] ﴿أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٧ - ٨].

- التنقيص من قدر النبي ﷺ، قال - تعالى -: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [٣١] ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الزخرف: ٣١ - ٣٢].

المثال الرابع: من حديث علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال: «انطلقت أنا والنبي ﷺ حتى أتينا الكعبة، فنزل وجلس لي رسول الله ﷺ، فقال: اصعد علي منكبي. قال: فنهض بي، قال: فإنه يخيل إلي أنني لو شئت لنت أفق السماء، حتى صعدت علي البيت، وعليه تمثال صفر أو نحاس، فجعلت أزاوله عن يمينه وعن شماله وبين يديه ومن خلفه، حتى استمكنت منه، فقال لي رسول الله ﷺ: اقذف به، فتكسر كما تتكسر القوارير، ثم نزلت، فانطلقت أنا ورسول الله ﷺ نستبق، حتى توارينا البيوت؛ خشية أن يلقانا أحد من

الناس»^(١). وأيضاً من حديث علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال: «كنت أنطلق أنا وأسامة بن زيد إلى أصنام قريش التي حول الكعبة، فنأتي بالعدرات، فنأخذ (حرياق) بأيدينا، فننطلق به إلى أصنام قريش فنلطخها، فيصيحون، يقولون: من فعل بالهتنا! فينطلقون إليها، ويغسلونها باللبن والماء»^(٢).

المثال الخامس: من حديث عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: «بينما رسول الله ﷺ يصلي عند البيت، وأبوجهل وأصحاب له جلوس، وقد نُحرت جزور بالأمس، فقال أبوجهل: أيكم يقوم إلى سلى جزور بني فلان يأخذه، فيضل في كتفي محمد إذا سجد!! فانبعث شقي القوم فأخذه، فلما سجد النبي ﷺ وضعه بين كتفيه، قال: فاستضحكوا، وجعل بعضهم يميل على بعض، وأنا قائم أنظر، لو كانت لي منعة طرحته عن ظهر رسول الله ﷺ، والنبي ساجد ما يرفع رأسه، حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة، فجاءت وهي جويرية، فطرحته عنه، ثم أقبلت تشتمهم، فلما قضى النبي ﷺ صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم، وكان إذا دعا دعا ثلاثاً وإذا سأل سأل ثلاثاً، ثم قال: اللهم عليك بقريش! - ثلاث مرات - فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك، وخافوا دعوته» الحديث^(٣).

المثال السادس: من حديث جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - في عروض قريش على النبي ﷺ، وفيه: «اجتمعت قريش للنبي ﷺ يوماً فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر، فليأت هذا الرجل الذي فرق جماعتنا وشت أمرنا وعاب ديننا، فيكلمه، ولينظر ما يرد عليه. فقالوا: ما نعلم أحداً غير عتبة

(١) مسند أحمد، (١ / ٨٤)، ومجمع الزوائد، الهيثمي، (٦ / ٢٣)، وقال الهيثمي: رجاله ثقات.

(٢) المطالب العالمة، ابن حجر، رقم ٤٢٧٥، وعزاه لإسحاق بن راهويه، وقال الحافظ: إسناده صحيح. وانظر: صحيح السيرة، لإبراهيم العلي، ص ٧٢.

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٤٦٢، ٤٦٣، رقم ١١٧٢.

ابن ربيعة، فقالوا: أنت أبا الوليد...»، وفيه أنه قال للنبي ﷺ: «يا أيها الرجل، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها. فقال له رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد؛ أسمع. قال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد الشرف سؤدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه - أو كما قال له -. حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يسمع منه، قال له: أقدر فرغت أبا الوليد؟ قال: نعم. قال: فاسمع مني! قال: أفعل. فقرأ عليه النبي ﷺ صدرراً من سورة فصلت، حتى بلغ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]، فأمسك عتبة على فيه وناشده الرحم أن يكف عنه»^(١).

المثال السابع: من حديث جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ مر بعمار بن ياسر وبأهله يُعَذَّبُونَ في الله عز وجل، فقال: «أبشروا آل ياسر؛ موعدكم الجنة»^(٢)، ومن حديث خباب بن الارت - رضي الله عنه - قال: «أتيت النبي ﷺ وهو متوسد بردة وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: يا رسول الله، ألا تدعو الله لنا؟ فقعد وهو محمر وجهه، فقال: لقد كان من قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد؛ ما دون عظامه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنتين، ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما

(١) مسند أبي يعلى، رقم ١٨١٨، والدلائل، للبيهقي، (١ / ٢٣٠، ٢٣١)، دلائل النبوة، لأبي نعيم، رقم ١٨٢. المصنف، لابن أبي شيبة، (١٤ / ٢٩٥، ٢٩٦)، المستدرک، للحاكم، (٢ / ٢٥٣)، وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) المستدرک، الحاكم، (٣ / ٣٨٨)، وقال: صحيح على شرطهما ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

يخاف إلا الله»^(١).

المثال الثامن: علم النبي ﷺ أن النجاشي ملك الحبشة ملك عادل: فأمر صحابته أن يهاجروا إليه تحريزاً لهم من فتن التعذيب في مكة، وقد ورد من حديث عبد الله بن سعود - رضي الله عنه - قال: «بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشي، ونحن نحو من ثمانين رجلاً، فيهم عبد الله بن مسعود وجعفر وعبد الله بن عرفة وعثمان بن مظعون وأبو موسى، فأتوا النجاشي»^(٢).

المثال التاسع: من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - في قصة إسلام أبي ذر الغفاري - رضي الله عنه -، وفيه: «فأتى المسجد، فالتمس رسول الله ﷺ ولا يعرفه، وكره أن يسأل عنه، حتى أدركه بعض الليل (فاضطجع)، فرآه عليٌّ فعرف أنه غريب، فلما رآه تبعه . . .» إلى أن قال: «حتى إذا كان اليوم الثالث فعاد عليٌّ على مثل ذلك، فأقام معه، فقال: ألا تحدثني ما الذي أقدمك؟ قال: إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدني فعلت. ففعل، فأخبره، قال: فإنه حق، وهو رسول الله ﷺ، فإذا أصبحت فاتبعني، فإني إن رأيت شيئاً أخاف عليك قمت كأني أريق الماء، فإن مضيت فاتبعني حتى تدخل مدخلي. ففعل، فانطلق يقفوه، حتى دخل على النبي ﷺ، ودخل معه، فسمع من قوله، وأسلم مكانه» الحديث^(٣)، وقيل إن هذا المحل السري هو دار الأرقم بن أبي الأرقم.

المثال العاشر: من حديث أسامة بن زيد - رضي الله عنهما - قال: «قلت يا رسول الله، أين تنزل غداً؟ - في حجته - قال: وهل ترك لنا عقيل منزلاً؟! ثم

(١) رواه البخاري، انظر: فتح الباري، ابن حجر، (٧ / ١٦٥)، رقم ٣٨٥٢.

(٢) مسند أحمد، (١ / ٤٦١)، السيرة النبوية، ابن كثير، (٢ / ٥٠)، قال ابن كثير في السيرة: هذا إسناد جيد قوي وسياق حسن.

(٣) رواه البخاري، انظر: فتح الباري، ابن حجر، (٧ / ١٧٣)، رقم ٣٨٦١، صحيح مسلم (٤ / ١٩٢٣)، رقم ٢٤٧٤، ولفظ «فاضطجع» عند مسلم.

قال: نحن نازلون غداً، إن شاء الله، بخيف بني كنانة - يعني المحصب - حيث قاسمت قريش على الكفر. وذلك أن بني كنانة حالفت قريشاً على بني هاشم؛ أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم ولا يؤووهم، ثم قال عند ذلك: لا يرث الكافر المسلم ولا المسلم الكافر^(١). قال ابن إسحاق وغيره: «فأقاموا على ذلك ثلاث سنين حتى جهدوا، ولا يصل إليهم شيء إلا سراً مستخفياً به من أراد صلتهم من قريش»^(٢).

المثال الحادي عشر: قال - تعالى -: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۖ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۚ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۚ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ۖ﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٣]، وقال - تعالى -: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ۚ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ۚ﴾ [الأنعام: ٨ - ٩]، لم يستجب النبي ﷺ لهذه التحديات الفارغة، بل سلك منهج ربه في جهادهم بالقرآن، قال - تعالى -: ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ۚ﴾ [الفرقان: ٥٢]، ولكنه لوح بالسيف دون استعماله عندما اشتد أذى قريش له فقال لهم كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: «تسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفس محمد بيده! لقد جئتمكم بالذبح!!»^(٣). وقد أشار القرآن المكي إلى حدوث ذلك في المستقبل في قوله - تعالى -: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۚ﴾ [القمر: ٤٥]، وقد

(١) رواه البخاري، انظر: فتح الباري، ابن حجر، (٣ / ٤٥٠)، رقم ١٥٨٨، و (١٢ / ٥٠)، رقم ٦٧٦٤، وصحيح مسلم، (٢ / ٩٨٤)، رقم ١٣٥١ إلى «منزلاً»، و (٣ / ١٢٣٣)، رقم ١٦١٤، ومسنند أحمد، (٥ / ٢٠٢)، وهو لفظه.

(٢) السيرة النبوية، ابن كثير، (٢ / ٥٠).

(٣) مسند أحمد، (٢ / ٢١٨)، بسند صحيح.

وقع ذلك في «بدر» .

المثال الثاني عشر: قال ابن إسحاق: «فلما أراد الله - عز وجل - إظهار دينه، وإعزاز نبيه ﷺ، وإنجاز مواعده له؛ خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار»^(١). ومن حديث عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - قال: «كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء، وذلك قبل أن يفترض الحرب، على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا ننزي، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله؛ إن شاء الله عذبكم، وإن شاء غفر لكم»^(٢).

المثال الثالث عشر: من طريق ابن إسحاق قال: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة: «أن رسول الله ﷺ إنما بعث مصعباً (أي إلى المدينة)؛ حين كتبوا إليه أن يبعثه إليهم، وكان يصلي بهم، وذلك أن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤم بعض، رضي الله عنهم أجمعين»^(٣)، وعن البراء - رضي الله عنه - قال: «أول من قدم علينا مصعب بن عمير»^(٤).

المثال الرابع عشر: من حديث جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - في بيعة العقبة الثانية قال: «... حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد

(١) السيرة النبوية، ابن كثير، (٢/ ١٧٦).

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٤٢٦، رقم ١١١١، مسند أحمد، (٥/ ٣٢٣)، واللفظ له.

(٣) السيرة النبوية، ابن كثير، (٢/ ١٨٠، ١٨١)، ونسبه إلى البيهقي، وسنده حسن، رجاله ثقات، والذي ذكرته هو مجموع روايتين، انظر: صحيح السيرة النبوية، إبراهيم العلي، ص ١٠٥، حاشية رقم ٣، وانظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، د. مهدي رزق الله أحمد، ص ٢٤٧، حاشية رقم ٦٨٠.

(٤) رواه البخاري، انظر: فتح الباري، ابن حجر، (٧/ ٢٥٩، ٢٦٠)، رقم ٣٩٢٤-٣٩٢٥، وانظر: السيرة النبوية من فتح الباري، محمد أمين الجكني، (١/ ٢٦٧).

رسول الله ﷺ، نتسلل تسلل القطا مستخفين، حتى إذا اجتمعنا في الشعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، ومعنا امرأتان من نساءنا، نُسبية بنت كعب أم عمارة - إحدى نساء بني مازن بن النجار -، وأسماء بنت عمرو بن عدي بن نابي - إحدى نساء بني سلمة -، وهي أم منيع. قال: فاجتمعنا في الشعب نتنظر رسول الله ﷺ، حتى جاءنا ومعه (عمه) العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ على دين قومه... قال: فتكلم رسول الله ﷺ، فتلا القرآن، ودعا إلى الله عز وجل، ورغب في الإسلام، ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم... الحديث، وفيه قال أبو الهيثم بن التيهان: «يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبلاً، وإنا قاطعوها - يعني اليهود -؛ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ قال: فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم. وقال رسول الله ﷺ: أخرجوا لي اثني عشر نقيباً منكم يكونون على قومهم. فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً؛ منهم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس...»^(١).

المثال الخامس عشر: من حديث عائشة - رضي الله عنها -: «قال رسول الله ﷺ: قد أريت دار هجرتكم، رأيت سبخة ذات نخل بين لابتين. وهما الحرتان، فهاجر من هاجر قبل المدينة حين ذكر ذلك رسول الله ﷺ، ورجع إلى المدينة بعض من كان هاجر إلى أرض الحبشة»^(٢). ومن حديث ابن عباس - رضي الله

(١) مسند أحمد (٣ / ٤٦٠، ٤٦٢)، سنن الطيالسي، رقم ٢٣٣٣، المستدرک، الحاكم،
(٢ / ٦٢٤، ٦٢٥)، وقال الحاكم: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وقال
الذهبي: صحيح.

(٢) رواه البخاري، انظر: فتح الباري، ابن حجر، (٤ / ٤٧٦)، رقم ٢٨٩٧، و (٧ / ٢٣١)، رقم
٢٩٠٥، ومسند أحمد، (٦ / ١٩٨)، بسند صحيح، المستدرک، الحاكم، (٢ / ٣، ٤)،
وصححه، ووافقه الذهبي.

عنهما - قال : « كان رسول الله ﷺ بمكة فأمر بالهجرة وأنزل عليه : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴾ [الإسراء : ٨٠] »^(١). ومن حديث علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - : « أن النبي ﷺ قال لجبريل : من يهاجر معي ؟ قال : أبو بكر الصديق »^(٢). ومن حديث البراء بن عازب - رضي الله عنهما - قال : « أول من قدم علينا مصعب بن عمير وابن أم مكتوم ، وكانوا يُقرئون الناس ، فقدم بلال وسعد وعمار بن ياسر ، ثم قدم عمر بن الخطاب في عشرين من أصحاب النبي ﷺ ، ثم قدم النبي ﷺ ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ ، حتى جعل الإمام يقلن : قدم رسول الله ﷺ . فما قدم حتى قرأت ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ [الأعلى : ١] في سور من المفصل »^(٣). قال ابن حجر العسقلاني في شرحه لهذا الحديث : « في رواية عبد الله بن رجاء : فخرج الناس حين قدم المدينة في الطرق وعلى البيوت ، والغلمان والخدم (وهم يقولون) : جاء محمد رسول الله ، الله أكبر ، جاء محمد رسول الله ﷺ »^(٤).

المثال السادس عشر : من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : « شري علي نفسه ، ولبس ثوب النبي ﷺ ، ثم نام مكانه ، وكان المشركون يرمون رسول الله ﷺ ، وقد كان رسول الله ﷺ ألبسه برده ، وكانت قريش تريد أن تقتل النبي ﷺ ، فجعلوا يرمون علياً ويرونه النبي ﷺ ، وقد لبس برده ، وجعل علي رضي الله عنه يتضور ، فإذا هو علي ، فقالوا : إنك للئيم ، إنك لتتضور ، وكان صاحبك لا يتضور ، ولقد استنكرناه منك »^(٥).

(١) سنن الترمذي ، رقم ٣١٣٩ ، وقال : حسن صحيح . والمستدرک ، الحاكم ، (٣ / ٣) ، وقال : صحيح . ووافقه الذهبي .

(٢) المستدرک ، الحاكم ، (٣ / ٥) ، وقال صحيح الإسناد والمتن . ووافقه الذهبي ، وقال : صحيح غريب .

(٣) رواه البخاري ، انظر : فتح الباري ، ابن حجر ، (٧ / ٢٥٩) ، رقم ٣٩٢٤ .

(٤) فتح الباري ، ابن حجر ، (٧ / ٢٦١) .

(٥) المستدرک ، الحاكم ، (٣ / ٤) ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد لم يخرجاه . ووافقه الذهبي .

المثال السابع عشر: من حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: «ثم لحق رسول الله وأبو بكر بغار في جبل ثور، فكنا فيه ثلاث ليال، يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر، وهو غلام شاب ثقف لقن، فيدلج من عندهما بسحر، فيصبح مع قريش بمكة كبائت، فلا يسمع أمراً يُكتادان به إلا وعاه، حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم، فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء، فيبيتان في رسل، وهو لبن منحتهما ورضيفهما، حتى ينق عامر بن فهيرة بغلس، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث. واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الدليل، وهو من بني عبد بن عدي، هادياً خريئاً (والخريت الماهر بالهداية)، قد غمس حلفاً في آل العاص بن وائل السهمي، وهو على دين كفار قريش، فأمناه، فدفعنا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحتيهما صبح ثلاث، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل، فأخذ بهم طريق السواحل»^(١).

المثال الثامن عشر: من حديث سراقبة بن مالك بن جعشم - رضي الله عنه - قال: «جاءنا رسل كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره» الحديث، وفيه: «إن قومك قد جعلوا فيك الدية. وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يرزاني، ولم يسألاني إلا أنه قال: أخف عنا. فسألته أن يكتب لي كتاب أمن، فأمر عامر ابن فهيرة، فكتب في رقعة من أدم، ثم مضى رسول الله ﷺ»^(٢).

تلك الأمثلة تبين معظم «وسائل التدافع» في العهد المكي، وهي تجسد تماماً ما ذكرناه من فروقات بين «الدفع الإيماني النبوي» و «الدفع الشرقي»، كما تبين

(١) رواه البخاري، انظر: فتح الباري، ابن حجر، (٧ / ٢٣٢)، رقم ٣٩٠٥.

(٢) رواه البخاري، فتح الباري، ابن حجر، (٧ / ٢٣٨، ٢٣٩)، رقم ٣٩٠٦، وبعضه في صحيح مسلم، انظر: مختصر صحيح مسلم، رقم ١١٥٥.

المدى الأقصى في توجيه الطاقة الإيمانية لاستثمار كل الأوضاع بقصد قطف أحسن الثمرات؛ مما دل على أن جميع مكونات التوظيف وأجزائه كانت موجهة في الاتجاه السليم.

من خلال التمعن في الأمثلة السابقة؛ يمكننا فرز وسائل التدافع بين الطرفين على الوجه الآتي:

أولاً: وسائل الدفع النبوي في العهد المكي:

- ١ - أخذ زمام المبادرة في معظم المواقف (الأمثلة: ١، ٣، ٤، ٨، ٩، ١٢، ١٣، ١٥، ١٧).
- ٢ - الإعلام المعلن أي الدعوة الجهرية (الأمثلة: ١، ٣، ٤، ٦).
- ٣ - الإصرار على الاستمرار في الدعوة (الأمثلة: ٢، ٣، ٦، ٧، ٨، ١٠، ١٢، ١٧).
- ٤ - استغلال المناسبات والظروف (الأمثلة: ٣، ٨، ١٤).
- ٥ - توسيع دائرة الحركة بالدعوة (الأمثلة: ٣، ١٧).
- ٦ - التحلي ببعد النظر وبوارق الأمل (الأمثلة: ٣، ٧، ٨، ١٣، ١٤).
- ٧ - الصبر والثبات (الأمثلة: ١، ٢، ٣، ٥، ٧، ١٠، ١١، ١٦، ١٨).
- ٨ - الدفاع عن المؤمنين وتأمين الملجأ المناسب لهم (الأمثلة: ٨، ١٣، ١٥).
- ٩ - العمل الجماعي المنظم (الأمثلة: ٨، ٩، ١٤، ١٧).
- ١٠ - السرية في التنظيم (الأمثلة: ٩، ١٤، ١٧).
- ١١ - الجهاد بالقرآن في البلاغ والحجة والبرهان (المثال: ١١).
- ١٢ - التلويح بجهاد السيف دون استعماله (الأمثلة: ١١، ١٤).

- ١٣ - إعداد القاعدة التي ستبني على أكتافها الدولة الإسلامية (الأمثلة : ٧، ٨، ٩، ١٢).
- ١٤ - التمهيد العملي للانتقال إلى مرحلة الدولة (الأمثلة : ٦، ٧، ١٣، ١٤، ١٥، ١٧).
- ١٥ - التغيير باليد خلسة (المثال : ٤).
- ١٦ - الدعاء (المثال : ٥).
- ١٧ - رفض المداينة أو أنصاف الحلول أو إغراءات التمكين (المثال : ٦).
- ١٨ - الأخذ بالعزيمة وترك الرخص (الأمثلة : ٢، ٣، ٦، ٧، ٨).
- ١٩ - عدم الاستجابة لاستفزازات المشركين ؛ وذلك بغية تأمين وضع آمن للدعوة، وللحيلولة دون الدخول في مواجهات غير متكافئة (الأمثلة : ٣، ٧، ٨).

ثانياً: وسائل الدفع الشرعي في العهد المكي:

- ١ - أخذ زمام المبادرة في بعض الحالات (الأمثلة : ٢، ٦، ١٠، ١١، ١٦).
- ٢ - السعي لعزل النبي ﷺ (المثال : ٢).
- ٣ - الحصار، وهو مثل الاعتقال الجماعي (المثال : ١٠).
- ٤ - استغلال عدم وجود منعة للمؤمنين (الأمثلة : ٣، ٥، ٧، ١٠، ١٦، ١٨).
- ٥ - إيذاء المسلمين (الأمثلة : ٣، ٥، ٧، ١٠، ١١، ١٦، ١٨).
- ٦ - صد الناس عن الاستجابة للدعوة (الأمثلة : ١، ٣).
- ٧ - التكذيب (الأمثلة : ١، ٣، ١١).

- ٨ - التشكيك بالدعوة وحاملها (الأمثلة : ١ ، ٣) .
- ٩ - تقديم العروض السخية بغية حمل النبي ﷺ على المداهنة أو التنازل عما جاء به (المثال : ٦) .
- ١٠ - استخدام وسائل العنف (الأمثلة : ٣ ، ٦) .
- ١١ - التأمر على القتل (الأمثلة : ١٦ ، ١٧) .
- ١٢ - التجسس والتحسس (الأمثلة : ١٧ ، ١٨) .
- ١٣ - استغلال السلطة والجاء والمنعة (الأمثلة : ٣ ، ٦ ، ١٠ ، ١١ ، ١٨) .

وقضات مع التدافع في العهد المكي:

- بعد أن ذكرنا وسائل التدافع لدى الطرفين ؛ نرى تسجيل الملاحظات الآتية :
- ١ - إن القاسم المشترك في «الدفع الإيماني النبوي» هو إرادة الخير ، وهو عبادة الله وحده .
 - ٢ - إن القاسم المشترك في «الدفع الشرطي» هو إرادة الشر ، وهو الإصرار على الشرك .
 - ٣ - إن التدافع في الوسائل يوشك أن يكون «تدافعا تاما» .
 - ٤ - إن وسائل الدفع الإيماني النبوي كلها وسائل مشروعة ، تقرها الفطر السليمة .
 - ٥ - إن وسائل الدفع الشرطي كلها وسائل ممنوعة ، تمجها الفطر السليمة .
 - ٦ - إن السمة الرئيسة في وسائل هذا التدافع هي الجدية المطلقة وتسخير جميع الطاقات المتاحة عند كلا الطرفين ؛ بما جعل منه صراعا حقيقيا استحوز على جميع مكونات النسيج الحياتي في العهد المكي .

٧ - نشأ عن هذا التدافع على الجانب الإيماني تشكيل قاعدة إيمانية صلبة بقيادة أحادية ، هي الرسول ﷺ ، موجهة من الوحي . كما بلور هذا التدافع على الجانب الشرطي قيادة ملاً جماعية ، يتصدرها عدد من المشركين الصناديد ذوي المصالح الخاصة ، أفرزهم على سطح الزعامة تنافسهم في التعبير عن تصديهم للدعوة الإيمانية عبر ثلاثة عشر عاماً ، لكنهم يقودون قاعدة عريضة غير منضبطة ، تفقد بعضاً من أفرادها باستمرار لمصلحة القاعدة الإيمانية .

٨ - التدافع لم يحسم مع نهاية المرحلة المكية ، بل دخل في مرحلة جديدة ، وهي الانفصال التام بين الفئتين المتدافعتين ، حيث هاجر النبي ﷺ ومن آمن معه إلى المدينة ، وبقي الملاً من قريش ومن تابعهم من المشركين في مكة .

٩ - كلُّ من المشركين والمسلمين ظن أن النتيجة النهائية لهذه المرحلة قد حسمت الأمر لمصلحتهم ، ثم جاءت الأحداث بعد ذلك لتبرهن أن ظن المشركين كان خاطئاً ، وأن ظن المسلمين كان صائباً .

النتيجة النهائية:

إن النتيجة النهائية للعهد المكي ؛ من خلال تدافع العقائد والمقاصد والوسائل : هي أنه قد تم إرساء قواعد ثابتة وراسخة تمثل أساس البنيان للعالمية ؛ لمقابلة حالة تدافعية مستمرة للعولمة الشركية ، والتي كانت قريش تمثل طليعتها في ذلك الوقت . وقد تبين لنا أن التدافع بين عالمية الإسلام وعولمة الشرك قد بدأ منذ أول يوم في الدعوة .

الثاني: التدافع في العهد المدني:

استمر التدافع في العهد المدني عشرة أعوام ، إنها المرحلة الثانية من الدفع الرسالي الإيماني ضد الدفع الكفري الشرطي .

انتهت هذه المرحلة بالحسم الإلهي لمصلحة الدعوة الإيمانية ، ثم فتحت

الأبواب على مصراعيها لمراحل التدافع اللاحقة إلى قيام الساعة .

لم يكن التدافع في العهد المدني مُنَبَّئاً الصلة عن مرحلة التدافع في العهد المكي ، بل هو متصل به ومكمل له ؛ غير أنه امتاز ببعض الخصائص التي تناسب الانتقال خطوة أخرى في اتجاه العالمية على مستوى التدافع في إطار العقائد والمقاصد والوسائل ؛ مع التوسع في دائرة المكان على امتداد تدرج الزمان .

أولاً: تدافع العقائد في العهد المدني؛

لم يتغير الإطار العام في تدافع العقائد في العهد المدني عما كان عليه في العهد المكي ، وهو التدافع بين الإيمان والكفر ، ولكن في داخل ذلك الإطار حصلت مستجدات ، أخصها بما يأتي :

١ - نزول الوحي في العهد المكي كان يتم والرسول ﷺ بين ظهراي المشركين ؛ مما ترتب عليه حصول البلاغ ومجادلات العقيدة وجهاً لوجه ؛ في حين أخذ الحال في العهد المدني وضعاً آخر ، أوجد صيغة أخرى في مضمون التدافع .

٢ - التكوين العقدي في المجتمع المكي كان يمثل فئتين متقابلتين هما : المسلمون وكفار قريش ؛ في حين كان النسيج العقدي في الحالة المدنية يضم المسلمين واليهود في داخل المدينة ، وكفار قريش وقبائل العرب والنصارى والمجوس في الدوائر الخارجية ، وفي داخل المسلمين كانت فئة المنافقين تمثل نوعاً عقدياً قائماً بذاته ، لقد أخذ التدافع العقدي مساحة أكبر كما وكيفاً .

٣ - المضمون العقدي في العهد المدني استمر على نسقه الذي كان في العهد المكي ؛ غير أنه توسع في بيان بطلان عقائد الأقوام الأخرى من اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم .

٤ - جميع العقائد الرئيسة استندت في العهد المدني إلى قوى مسلحة جعلت

التدافع العقدي يأخذ المنحى الحربي ، فقد استندت عقيدة الشرك لدى العرب إلى القوة المسلحة لقريش ومن حالفهم ، وعقيدة اليهود استندت إلى قواها المسلحة لدى بني النضير وبني قينقاع وبني قريظة وقلاع خيبر ، وعقيدتا النصاري والمجوس استندتا إلى قوتيهما المسلحة المتمثلتين في أكبر دولتين عالميتين في عصرهما الروم والفرس . لقد كان الاحتدام المسلح مع هذه القوى يمثل «التدافع العقدي الحربي» في العهد المدني .

٥ - لم يحلُ الصدام العقدي المسلح دون الإبلاغ الرسالي العقدي السلمي عبر مجادلة أهل الكتاب وإقامة الحجة عليهم من كتبهم ، وقد كان ذلك أظهر مع اليهود بسبب وجودهم في المدينة أو في أطرافها ، وقد شكّل ذلك وجهاً من أوجه «التدافع العقدي السلمي» في العهد المدني .

ما عدا ذلك - مما قد ذكرناه في تدافع العقائد في العهد المكي ؛ من الوضوح في البيان ، والتميز في المضمون ، والمفاصلة في المواقف ، والتجرد من مدلولات الانغلاق في المكان والمحدودية في الزمان - فقد حافظ على سمته في العهد المدني ، مع ملاحظة :

١ - الجزئيات التكوينية الخاصة بالانتقال من الكيان المختلط والممتزج كما في العهد المكي ؛ إلى الكيان المستقل الذي يمثل دولة كما في العهد المدني .

٢ - أن الكيان الجديد ضمَّ المهاجرين والأنصار ، وكلاهما على الفهم العقدي نفسه ؛ غير أن المهاجرين يَفْضُلُون الأنصار بالسبق الزمني في الإيمان ؛ أي يفضلونهم بالتراكم الإيماني ، كما يفضلونهم أيضاً بصبرهم على كل ما اكتنف المرحلة المكية من أهوال ومصائب وأذى وتعذيب ، عُجنت أيامهم بها ، فصقلت قلوبهم صقلاً إيمانياً فذاً ؛ غير أن الفريقين استحقا المدح من الله

تعالى، قال - سبحانه -: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَفَهُ فَإِنَّكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٨ - ٩] .

التدافع العقدي بين العالمية والعولمة في العهد المدني:

فيما عدا المدينة المنورة؛ فقد كانت عولمة الشرك تلف الدنيا من أقصاها إلى أقصاها، وقد لبس الشرك لبوسات متنوعة بحسب الأماكن وأديان قاطنيها، وهذه أبرزها:

- النصرانية: تغلغت فيها عقيدة التثليث والوثنية، وكثرت لديهم التماثيل والأصنام، وامتدت رقعتها عبر الإمبراطورية الرومانية (وتُعرف بالبيزنطية) إلى حكم دول اليونان والبلقان وبعض آسيا وسورية وفلسطين وحوض البحر المتوسط بأسره ومصر وكل إفريقيا الشمالية. وكانت عاصمتها القسطنطينية، وكانت دولة ظالمة جائرة، مارست التعسف الشديد على الشعوب التي حكمها. لقد حرّف النصارى الإنجيل، ودسّوا فيه ما أذهب معظم معالمه.

- اليهودية: حرّف اليهود التوراة، وأدخلوا الشرك على دين التوحيد، وأخذوا بالطقوس الوثنية. وقد جاء في دائرة المعارف اليهودية: «إن التلمود أيضاً يشهد بأن الوثنية كانت فيها جاذبية خاصة لليهود».

- المجوسية: عبّد المجوس النار، وكانوا يستقبلونها في صلاتهم، وحلف يزدجرد بالشمس باعتبارها الإله الأكبر في زعمهم. وكانت دولتهم هي الإمبراطورية الفارسية أو الكسروية، وهي أعظم وأكبر من الإمبراطورية الرومانية الشرقية، وكثرت فيهم الديانات المنحرفة، كالزرادشتية والمانية، ويرى

ملوكهم أنفسهم من نسل الآلهة .

- البوذية : ديانة وثنية بحتة ، تحمل الأصنام حيث سارت ، وتبني الهياكل ، وتنصب تماثيل بوذا حيث حلت ونزلت . وقد انتشرت هذه الديانة في الهند وآسيا الوسطى .

- البرهمية : امتازت بكثرة المعبودات والآلهة ، وهي دين الهند الأصلي^(١) .

قال - تعالى - : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِّينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [الحج : ١٧] .

وقد وصف النبي ﷺ حال العالم العقدي في زمانه ، فقال ذات يوم في خطبته ، فيما يرويه عنه عياض بن حمار المجاشعي - رضي الله عنه - : « ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا : كل مال نحلته عبداً حلال ، وإنني خلقتُ عبادي حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمتُ عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً . وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم ، عربهم وعجمهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب . وقال : إنما بعثتك لأبتيك وأبتي بك ، وأنزلتُ عليك كتاباً لا يغسله الماء ، تقرؤه نائماً ويقظان »^(٢) .

لقد كان العهد المدني يمثل المرحلة الثانية ، أو الدائرة الثانية ، في الانطلاقة الإسلامية العالمية لحسر عولمة الشرك عن بقاع الدنيا ، وقد اقتضى ذلك أمرين رئيسين :

الأول : بيان فساد عقيدة اليهود والنصارى بشكل مفصل ؛ مع الاستمرار في بيان فساد عقيدة المشركين عموماً ، والمجوس والصابئون من

(١) السيرة النبوية ، د . علي محمد الصلابي ، (١ / ١٣ - ١٩) ، بتصرف واختصار .

(٢) صحيح مسلم ، (٤ / ٢١٩٧) ، رقم ٢٨٦٥ .

ضمنهم .

الثاني : التحصين العقدي للمسلمين ضد العقائد الفاسدة .

فأما الأمر الأول : فقد جاء من خلال آيات كثيرة تفصل عقيدة اليهود والنصارى وتناقشهم فيها وتبين بطلانها ؛ لذا فقد جاء «التدافع العقدي» في هذه الدائرة ضمن هذا التوجه ، فقد وردت كلمة ﴿أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ ٣٢ مرة في القرآن الكريم ، وكلمة ﴿أَتُوا الْكِتَابَ﴾ ٢٨ مرة ، وجاء لفظ ﴿الْيَهُودُ﴾ و ﴿هَادُوا﴾ و ﴿هُودُ﴾ ٢٢ مرة ، ولفظ ﴿نَصَارَى﴾ و ﴿نَصْرَانِيًّا﴾ ١٥ مرة ، وجاء لفظ المجوس مرة واحدة ، و ﴿الصَّابِئِينَ﴾ و ﴿الصَّابِئُونَ﴾ ٣ مرات .

ونظراً لأن التدافع مع اليهود والنصارى يُعدُّ صفحة مفتوحة إلى يوم القيامة ؛ فإن القرآن الكريم قد توسع في دفع أقوالهم الباطلة وعقائدهم الزائفة ، وذكر قول كل منهم في دين الإسلام ؛ مما انفرد كل منهم به ، ومما اجتمعوا عليه ، وقول كل منهم في الطائفة الأخرى ، وأقام الحجة عليهم جميعاً .

وما يهمنا هنا هو إبراز عدة نقاط رئيسة لها علاقة بتدافع عالمية الإسلام مع عولمة النصارى واليهود والمشركون :

١ - إن الدين المرتضى والمقبول عند الله - تعالى - هو الإسلام فقط ، قال - تعالى - : ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران : ١٩] ، وقال - تعالى - : ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران : ٨٥] ، وقال ﷺ : «والذي نفس محمد بيده ! لا يسمع بي أحد من هذه الأمة ، لا يهودي ولا نصراني ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسِلت به إلا كان من أصحاب النار»^(١) .

٢ - إن أهل الكتاب كفار ومشركون ، قال - تعالى - : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ

(١) صحيح مسلم ، (١ / ١٣٤) ، رقم ١٥٣ .

اللَّهُ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴿ [المائدة: ٧٣] ، وقال - تعالى -: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة: ٧٢] ، وقال - تعالى -: ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ [البينة: ١] ، وقال - تعالى -: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤] ، وقد تولوا فثبت عليهم وصف الشرك كما في الآية . وقال - تعالى -: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٥١] .

٣ - إن أهل الكتاب يعرفون أن دين الإسلام هو الحق ، قال - تعالى -: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٦] ، وقال - تعالى -: ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ [البقرة: ١٤٤] ، وقال - تعالى -: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبَسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧١] ، قال قتادة: « ﴿ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ ﴾ : كتموا الإسلام وكتموا محمداً ﷺ » (١) .

٤ - نسب اليهود والنصارى إلى الله - سبحانه - الولد ، تعالى الله عن إفكهم علواً كبيراً ، قال - تعالى -: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٠] ، وقد جاء ذكر ذلك في كتاب الله - تعالى - في ٢٠ آية . وهذا الادعاء من أعظم الكفر ، قال - تعالى -: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۚ ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۚ ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۚ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۚ ﴿٩١﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۚ ﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٣] ، بل ادعوا أنهم

(١) زاد المسير في علم التفسير ، ابن الجوزي ، (١ / ٣٧٤) .

أبناء الله، قال - تعالى -: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ [البقرة: ١٨] .

٥ - إن عداوة أهل الكتاب للإسلام والمسلمين متأصلة في قلوبهم، فهم لا يقبلون من المسلمين إلا الخروج من دين الإسلام والدخول في دينهم، قال - تعالى -: ﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٢٠] ، قال - تعالى -: ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا ﴾ [البقرة: ١٣٥] ، وقال - تعالى -: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴾ [النساء: ٤٤ - ٤٥] .

٦ - اجترؤوا على الله - تعالى - بما لا يليق به - سبحانه -، قال - تعالى -: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ﴾ [المائدة: ٦٤] ، وقال - تعالى -: ﴿ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ [آل عمران: ١٨١] ، واتبعهم المشركون في اجترائهم ذلك، قال - تعالى -: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٨] .

إن ما ورد في هذه البنود الستة يمثل أهم وأبرز ما في عقائد أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وهو نفسه ما هم عليه اليوم، فما كان من «تدافع» بينهم وبين عقيدة التوحيد كما جاء بها الإسلام؛ هو نفسه «التدافع» القائم اليوم بين «عالمية الإسلام» وبين «العولمة» التي يقف وراءها اليهود والنصارى .

وأما الأمر الثاني: وهو المتعلق بالتحصين العقدي للمسلمين ضد العقائد الفاسدة، وهي عقائد اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم؛ فقد أرشد إليه الشارع وبينه في مواضع عدة، ويمكن إيجازه في النقاط الآتية:

١ - المحافظة على جعل الولاية لله - تعالى - ورسوله والمؤمنين حصراً،

قال - تعالى -: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ [المائدة: ٥٥] .

٢ - جعل الله - تعالى - مناط الغلبة في التمسك بتلك المحافظة ،
قال - تعالى -: ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥٦] .

٣ - غلب الشارع في هذه الآية الولاية على كل ما يمكن أن يخذلها أو يعارضها أو يناقضها ؛ مهما كانت قوة الرابطة بها ، قال - تعالى -: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [٢٣] . قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تُرَضُّونَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٣ - ٢٤] ، وقال - تعالى -: ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة: ٢٢] .

٤ - أمر الشارع المؤمنين أن يكونوا جماعة واحدة وكتلة واحدة ، قال - تعالى -: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة: ٧١] ، وقال - تعالى -: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠] ، وقال ﷺ : «المؤمنون تتكافأ دماؤهم ، وهم يد على من سواهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم» (١) .

(١) رواه أبو داود والنسائي والحاكم ، وهو في صحيح الجامع ، رقم ٦٥٤٢ .

٥ - نهى الشارع عن تولي اليهود والنصارى - وسيأتي الكلام عليه في تدافع الوسائل - وذلك لفساد عقائدهم ، وترتب على ذلك أمرين قليبين :

الأول : عدم محبتهم ، قال - تعالى - : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٣٢] ، والكافرون في هذه الآية هم اليهود - بحسب قول مقاتل - ، أو النصارى - بحسب قول أبي سليمان الدمشقي -^(١) ، فمن لا يحبه الله فالمؤمنون لا يحبونه .

الثاني : عداوتهم ، قال - تعالى - : ﴿ وَلَنْ تَقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ﴾ [التوبة : ٨٣] ، والعدو في هذه الآية هم الروم الذين خرج النبي ﷺ لقتالهم في تبوك . وقال - تعالى - : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ﴾ [النساء : ٤٥] ، والأعداء المقصودون في هذه الآية هم اليهود . وقال - تعالى - : ﴿ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾ [النساء : ١٠١] ، وتبين هذه الآية عداوة الكافرين (واليهود والنصارى منهم) للمؤمنين ، فالعداوة متبادلة . وقال - تعالى - في وصف شدة عداوتهم للمؤمنين : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [١١٨] هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [آل عمران : ١١٨ - ١١٩] .

قال الزجاج : «البطانة : الدخلاء الذين يستبطنون أمره وينبسط إليهم»^(٢) ، ويدخل فيهم اليهود والنصارى والمنافقون - بحسب عموم اللفظ - . وأما قوله - تعالى - : ﴿ هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ ﴾ ؛ فإما أن يكون بمعنى الإنكار على من مال إليهم بالطباع لموضع القرابة والرضاع والحلف - وهذا قول ابن عباس - ، وإما

(١) زاد المسير في علم التفسير ، ابن الجوزي ، (١ / ٣٧٤) .

(٢) المرجع السابق ، (١ / ٤٤٦) .

أن يكون بمعنى الإخبار عن ميل طباع المؤمنين إلى إرادة الرحمة لهم؛ لما يفعلونه من المعاصي التي يقابلها العذاب الشديد - وهذا قول قتادة -، وإما بمعنى إرادة الإسلام لهم - وهو قول الفضل والزجاج -^(١).

وبعد؛ فإن كلا الأمرين المذكورين، أعني: بيان فساد عقيدة اليهود والنصارى بشكل مفصل، والتحسين العقدي للمسلمين، قد شكلاً الإطار الكلي للتدافع العقدي؛ مع احتوائهما على تفصيلات جزئيات ما احتواه هذا الإطار، والتي هي: الوضوح في المعنى، والتميز في المضمون، والمفاصلة في المواقف العقدية، والتجرد من قيدي الزمان والمكان. وتعتبر هذه التفاصيل الأربعة امتداداً لما ذكرناه بشأنها في العهد المكي؛ مع مراعاة اتساع دائرة العالمية.

ويمكن الإشارة إلى ذلك بالمآلات سريعة على الوجه الآتي:

١ - الوضوح في المعنى:

جاء الخطاب القرآني بلغة العرب، فما قلناه بشأن ذلك في العهد المكي نقوله هنا، لكن نزيد عليه ما يخص اليهود والنصارى، فأما اليهود؛ فقد كانوا يعرفون العربية فعقلوا ذلك الخطاب وعلموا معناه تفصيلاً. فأما النصارى؛ فمن كان منهم في الجزيرة العربية: فهو كاليهود من حيث معرفته اللغة العربية، ومن كان خارجها فقد تُرجمت له بما أزال إشكال عدم علمه بمعانيها (ومنهم كسرى ملك الفرس وهو من المجوس)، أو أنه كان ممن يفهم اللغة العربية كالنجاشي، وقد قرئت عليه سورة مريم (في العهد المكي).

ولقد أصرَّ اليهود والنصارى (إلا من أسلم منهم) على نسبة الولد لله سبحانه، وعلى تكذيب ما جاء به النبي ﷺ، فكان الواقع في هذا الجانب من العقيدة تدافعاً تاماً؛ مع ملاحظة أن اليهود والنصارى يؤمنون باليوم الآخر، على خلاف المشركين، لكنهم قصرُوا الجنة عليهم، قال - تعالى -: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ

(١) زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، (١/ ٤٤٦، ٤٤٧)، بتصرف.

الْجَنَّةِ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ﴿البقرة: ١١١﴾، وقد استنكر القرآن عليهم هذه الدعوى العريضة فحاجهم بقوله - تعالى - : ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٩٤]، فانظر إلى التدافع في هذه المسألة أيضاً.

٢ - التميز في المضمون :

ما ذكرناه تحت هذا العنوان في العهد المكي بشأن التدافع من المشركين ؛ فإنه قد استمر على حاله معهم في العهد المدني .

وأما اليهود والنصارى ؛ فقد وقع التدافع في التميز في المضمون في أمرين أساسيين ؛ هما :

- المرجعية :

فأما النبي ﷺ فمرجعيته الوحي (ذكرنا ذلك سابقاً) . وأما اليهود والنصارى فمرجعتهم أحبارهم ورهبانهم ، قال - تعالى - : ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] .

- المحتوى :

إن ما جاء به النبي ﷺ هو منهاج كامل للحياة ، قال - تعالى - : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] ، (انظر تفصيل ذلك في العهد المكي) . وأما محتوى ما لدى الأحبار والرهبان ؛ فهو كتب محرفة نسبوها إلى الله زوراً وبهتاناً ، قال - تعالى - عن اليهود : ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [النساء: ٤٦] ، وقال - تعالى - : ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: ١٣] ، قال الحسن : «تركوا عرى دينهم ووظائف الله التي لا يقبل العمل إلا بها» . وقال غيره : «تركوا العمل فصاروا إلى حالة رديئة ، فلا قلوب سليمة ، ولا فطر مستقيمة ، ولا أعمال قويمه»^(١) ، بل

(١) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، (٣ / ٦٦) .

إنهم، أي أهل الكتاب من اليهود والنصارى، أخفوا كثيراً مما أنزل الله إليهم من الكتاب؛ أي من التوراة والإنجيل، قال - تعالى -: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]؛ قال ابن كثير: «أي يبين ما بدّلوه وحرفوه وأولوه وافتروا على الله فيه، ويسكت عن كثير مما غيروه ولا فائدة في بيانه»^(١).

٣ - المفاصلة في المواقف العقديّة:

استمرت المفاصلة في المواقف العقديّة مع المشركين في العهد المدني كما كانت في العهد المكي، لكنها لم تقتصر على الجانب النفسي والشعوري، بل زاد عليها التدافع في الجانب الحركي متمثلاً في الجهاد (سيأتي الحديث عليه في تدافع الوسائل)، وقد كان هذا التدافع بين الطرفين ملتعباً؛ مما أوجع نار المفاصلة العقديّة وأضرّم أوارها بشدة، حيث إن كلا الطرفين اشتدّ تمسّكه بعقيدته إلى درجة المقاتلة دونها والموت لأجلها؛ غير أن الأمر لم يكن سواء في العاقبة، قال - تعالى -: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]، ومثلما قال عمر - رضي الله عنه - في أعقاب غزوة أحد راداً على أبي سفيان عندما قال: «يوم بيوم بدر، الأيام دول وإن الحرب سجال»؛ فقال عمر: «لا سواء، قتلنا في الجنة وقتلناكم في النار»^(٢).

وأما المفاصلة في المواقف العقديّة مع اليهود والنصارى؛ فقد تجلّت فيما ذكرنا من الآيات، كما تجلّت عملياً في وقائع عدة؛ من أهمها مقاتلة اليهود من بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة ويهود خيبر، والدعوة لمباهلة وفد نجران من النصارى، ثم موقعة مؤتة مع النصارى، ثم غزوة تبوك التي اتجه فيها جيش النبي ﷺ لمقاتلة الروم، ثم توصية النبي ﷺ بتصفية جزيرة العرب من الوجود

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (٣ / ٦٧).

(٢) مسند أحمد، (١ / ٤٦٣)، المستدرک، الحاكم، (٢ / ٢٦٧)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

اليهودي والنصراني . تلك المواقف أظهرت بوضوح تباين الخنادق وعدم تداخلها ، وأن المسلمين أمة وحدهم ، لهم دينهم الذي ارتضاه لهم ربهم ، وأن من سواهم أمم متنوعة ومختلفة ، لهم أديانهم التي زينها الشيطان لهم ، وأن عقيدة المسلمين التوحيدية ليس فيها مجاملة ولا مصانعة لليهود ولا للنصارى ولا للمشركين بأنواعهم ، فلم تكن ثمة مجالس ومؤتمرات للحوار بين الأديان أو الثقافات أو الحضارات ، بل مجادلة بالتي هي أحسن ، ومقاتلة بالتي هي أعدل ، أو معاهدة بالتي هي أقوم ، أو مهادنة بالتي هي أنفع ، أو جزية عن يد وهم صاغرون .

كانت هذه المفاصلة العقدية تشمل مفهوم التدافع على الرقعة العالمية ؛ ذلك أن حركتها الامتدادية لم تكن تمثل وضعاً مختلطاً كما في العهد المكي ، بل تمثل كياناً دولياً متميزاً مستكماً لمقومات الدولة المستقلة بحسب اصطلاحاتنا المعاصرة .

٤ - التجرد من قيدي الزمان والمكان :

ليس من جديد في العهد المدني يمكن أن نضيفه إلى ما ذكرناه تحت هذا العنوان في العهد المكي . هذا من حيث الأصل ، وأما من حيث التطور الحركي ؛ فإن مفهوم هذا العنوان يأخذ وجهة خاصة عندما يراد إسقاطه على الواقع من خلال كيان مستقل ؛ أي من خلال دولة ؛ إذ إن معناه أن دولة الإسلام التي انبثقت فجرها من المدينة المنورة لم يكن لها حدود سياسية تقف عندها ، بل هي دائمة الامتداد في المكان مع ديمومة الامتداد في الزمان ، ولم يلق الرسول ﷺ ربه إلا وكانت هذه الدولة قد عمّت الجزيرة العربية كلها واليمن ، وبلغت تخوم فارس والروم على مدى عشر سنوات فقط .

وهذا لا يعني أن الدول عموماً في ذلك الزمن لم تكن لها حدود سياسية ، بل كانت الحدود السياسية قائمة ومُعترف بها ، فدولة الفرس ودولة الروم وغيرهما

من الدول كانت معروفة الحدود، ومعلومة الامتداد، لكن الإسلام كدولة - كما ظهر ذلك جلياً في العهد النبوي المدني - قد تجاوز المفهوم الدولي لتلك الحدود؛ باعتبار أن الحق الذي جاء به ينبغي أن يوصل إلى العالمين كافة، حتى إن تطلب ذلك إزالة الكيانات السياسية الكفرية القائمة التي تحول بينه وبين الوصول إلى شعوبها وشعوب الأرض أجمعين. وبما أن العولة تأخذ الاتجاه نفسه ولكن بمعطيات أخرى سنأتي على ذكرها؛ فإن التدافع بينها وبين عالمية الإسلام ماض في الاحتماد، وذلك بسبب اختلاف الإطار والمحتوى على مستوى العقائد.

ثانياً: تدافع المقاصد في العهد المدني؛

لقد اعتمد تدافع المقاصد في العهد المدني على عاملين رئيسين؛ هما:

أولاً: الإخلاص والتجرد من مصلحة الذات:

ما قلناه بشأن النبي ﷺ في العهد المكي نقوله هنا، ثم نضيف إليه استمرار مواظبة النبي ﷺ على حياة الزهد في الدنيا إلى أن لقي الرفيق الأعلى؛ رغم أنه كان رئيس الدولة - بحسب مصطلح اليوم -، والدنيا تتدفق خيراتها بين يديه، يقول عمر - رضي الله عنه - «... فجلست حين رأيت تبسم، فرفعت بصري في بيته (يعني بيت النبي ﷺ)، فوالله! ما رأيت في بيته شيئاً يرد البصر إلا أهبة ثلاثة...»^(١) وفي رواية مسلم: «... فدخلت على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على حصير، فجلست، فأدنى عليه إزاره، وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أتر في جنبه، فنظرت ببصري في خزانة رسول الله ﷺ فإذا بقبضة من شعير نحو صاع، ومثلها قرظاً (وهو ورق السلم يُدبغ به) في ناحية الغرفة، وإذا أفيق (وهو الجلد الذي لم يتم دباغه) معلق...» الحديث^(٢)، وثبت أن النبي ﷺ توفي ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين (يعني صاعاً من شعير)، رهنها قوتاً

(١) رواه البخاري، انظر: فتح الباري، ابن حجر، (٩ / ٢٧٩)، رقم ٥١٩١.

(٢) صحيح مسلم، (٢ / ١١٠٦)، رقم ١٤٧٩.

لأهله^(١)، هذا بخصوص ذات النبي ﷺ. فهذا هو المقصد الأول، وهو أن تكون الدعوة خالصة لله، وليس فيها نفع شخصي أو مصالح نفسية. أما المقصد الثاني فهو البلاغ.

ثانياً: البلاغ:

إن المجتمع المدني (أقصد به مجتمع المدينة المنورة)؛ فإنه وإن كانت الكلمة العليا فيه للمسلمين؛ لكن شأبه وجود اليهود، ونخر فيه كيد المنافقين، فكانت المقاصد فيه من جهة البلاغ بحسب ذلك.

المؤمنون كان قصدهم إعلاء كلمة الله وإعزاز دينه، واليهود كان قصدهم الكيد للمسلمين والمكر بهم، والمنافقون كانوا يستعلنون بما قصد إليه المؤمنون ويستبطنون الكفر، ويحيكون المؤامرات، ويدسون الدسائس، ويتواصلون سرّاً مع أعداء المسلمين.

وقد جاء القرآن ببيان هذه المقاصد من هذه الفئات الثلاث:

* ففي المؤمنين قال الله - تعالى -: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٨ - ٩]، وقد منَّ الله - تعالى - على هذه الفئة بأن وحد قلوبهم (وخاصة ما كان بين الأوس والخزرج في الجاهلية من تدابر وحروب)، فقال - تعالى -: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال - تعالى -: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣]، هذه الفئة لم يكن فيها ثمة تدافع داخلي؛ ذلك بما حازت

(١) رواه البخاري، انظر: فتح الباري، ابن حجر، (٨ / ١٥١)، رقم ٤٤٦٧.

من رضوان الله - تعالى - بقوله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]، وبما أكرمها الله - تعالى - من التوبة عليهم، قال - تعالى -: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [١١٧] وعلى الثلاثة الذين خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٧ - ١١٨]، وتدل آية الفتح سنة ٦ هـ وآيتا التوبة ٩ هـ على أن ما قصدت إليه هذه الفئة من ابتغاء فضل الله ورضوانه ونصرة الله ورسوله، والمذكور في سورة الحشر سنة ٤ هـ، قد تابع مجراه إلى النهاية.

لقد تحررت هذه الفئة من حب الذات وضغائن النفوس، واختطت طريقها على منهاج الله ورسوله، فلم تقع فريسة الشبهات ولم تتبع الشهوات، وبهذا استحققت الخيرية المتميزة، قال ﷺ: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»^(١).

* وعن الفئة الثانية وهم اليهود؛ قال - تعالى - فاضحاً مقاصدهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ [٤٤] وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤٤ - ٤٥]، وقال - سبحانه -: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

فتتلخص مقاصدهم بأن يضل المؤمنون السبيل ويتبعوا ملة اليهود.

وهذه المقاصد تمثل تدافعا تاماً ضد مقاصد المؤمنين.

* وعن الفئة الثالثة وهم المنافقون؛ قال - تعالى - فاضحاً مقاصدهم: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٦٨٨، رقم ١٦٤٦.

المَعْرُوف ﴿ [التوبة: ٦٧] .

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾
[الأحزاب: ١٢] .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١] .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (١) ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١ - ١٢] ، قال ابن جرير: «أهل النفاق مفسدون في الأرض بمعصيتهم فيها ربهم ، وركوبهم فيها ما نهاهم عن ركوبه ، وتضييعهم فرائضه ، وشكهم في دينهم الذي لا يقبل من أحد عمل إلا بالتصديق به والإيقان بحقيقته ، وكذبهم المؤمنين بدعواهم غير ما هم عليه مقيمون من الشك والريب ، ومظاهرتهم أهل التكذيب بالله وكتبه ورسله على أولياء الله إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً ، فذلك إفساد المنافقين في الأرض» (١) . وقال - تعالى - :
﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: ١٤] ، قال السدي عن أبي مالك : «يعني سادتهم وكبراءهم ورؤساءهم من أحبار اليهود ، ورؤوس المشركين والمنافقين» (٢) .

فخلص لنا من ذلك أن مقاصد المنافقين هي : الأمر بالمنكر ، والنهي عن المعروف ، والتشكيك في وعد الله ورسوله ، والإفساد في الأرض ، ومظاهرة اليهود والمشركين ، والاستهزاء بالمؤمنين . فهذه ستة مقاصد خبيثة ، جهد المنافقون في تحقيقها .

إذن ؛ قد كان هناك تدافع داخلي في المجتمع المدني في العهد النبوي ، وذلك بسبب تدافع المقاصد بين الفئات الثلاث ، فأما اليهود فقد تمت تصفيتهم من المدينة

(١) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، (١ / ١٨١) .

(٢) المرجع السابق ، (١ / ١٨٢) .

بعد غزوة الخندق مباشرة عندما تم القضاء على آخر جيوبهم وهم بنو قريظة، فبقي التدافع قائماً بين المؤمنين والمنافقين. وبما أن كلمة المؤمنين كانت هي العليا، والمدينة تخضع لسلطانهم بقيادة النبي ﷺ؛ فإن مدافعة المنافقين لهم اتسمت بالعمل الخفي، وإن كانت أحياناً تظهر للعلن عندما تسنح الظروف؛ كما حصل في رجوع عبد الله بن أبي بن سلول - رأس المنافقين - بثلاث الجيش قبل غزوة أحد، أو كما استغل حادثة الاختلاف على المياه في غزوة بني المصطلق فقال: «لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل»؛ غير أن الوحي كان لهم بالمرصاد؛ إذ كانت الآيات تنزل بفضحهم سواء كان كيدهم سرّاً أو جهراً.

هذا بخصوص الدائرة الداخلية للمجتمع المدني.

وأما ما يتعلق بالمساحة الخارجية؛ فإن مقاصد الأطراف المتدافعة كانت على الوجه الآتي:

١ - سجال من المعارك مع المشركين بين غزوات وسرايا، استمرت إلى نهاية غزوة الخندق. وكانت هذه مرحلة؛ القصد منها تثبيت دعائم دولة الإسلام في المدينة، وتوطيد أركانها بالذب عنها والقتال دونها.

٢ - المبادرة بغزو المشركين، وهذه هي المرحلة الثانية، وقد ابتدأت بعد غزوة الخندق - سنة ٥ هجرية -، حيث قال النبي ﷺ: «الآن نغزوهم ولا يغزونا، نحن نسير إليهم»^(١)، في هذه المرحلة حصل صلح الحديبية سنة ٦ للهجرة، ثم فتح مكة في عشرين رمضان سنة ٨ للهجرة، وهو الفتح الأعظم، ودانت جزيرة العرب واليمن بالإسلام، هذا واحد من مقاصد هذه المرحلة، والتي تضمنت أيضاً غزوتين هما حنين والطائف.

٣ - مقصد آخر ضمن هذه المرحلة هو القضاء على يهود خيبر، وقد تم ذلك بافتتاح حصونهم حصناً حصناً - وذلك سنة ٧ للهجرة -، فتم تخليص جزيرة

(١) رواه البخاري، انظر: فتح الباري، ابن حجر، (٧ / ٤٠٥)، رقم ٤١١٠.

العرب منهم (ما عدا الذين استبقوا لفلاحة أرض خيبر، ثم أخرجهم عمر - رضي الله عنه - فيما بعد في خلافته).

٤ - التمهيد لفتوح البلاد المتاخمة للجزيرة العربية، وقد ابتدأ ذلك بموقعة مؤتة عام ٨ للهجرة، ثم بغزوة تبوك عام ٩ للهجرة.

٥ - الإبلاغ العالمي للدعوة، وقد تضمن ذلك: داخلياً؛ استقبال الوفود التي جاءت تعلن إسلامها من جميع أنحاء جزيرة العرب، وخارجياً؛ مكاتبة الملوك والأمرء في العالم (وسوف يأتي الحديث عنه في تدافع الوسائل).
فهذه خمسة مقاصد رئيسة.

وأما أعداء النبي ﷺ فكانوا كلاً بحسبه، ويمكن إجمالهم على الوجه الآتي:

* المشركون :

كان لهم مقصد رئيس واحد؛ هو قتل النبي ﷺ، وإزالة دولة الإسلام من المدينة، وكان قمة ذلك حين حشدوا معهم غطفان والأحباش - بكيد من اليهود - في غزوة الخندق؛ بعد أن أخفقوا في تحقيق تلك المهمة في بدر وأحد. وقد خاب مقصدهم وانكفؤوا مهزومين، قال - تعالى -: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥]. في هذه المرحلة - أي من الهجرة إلى الخندق - كان دفعهم هجوماً؛ بعد ذلك تحول قصدهم إلى الاكتفاء بالدفاع عن وجودهم في مكة، لكنهم انهاروا وتم فتح مكة.

* اليهود :

بعد هزائمهم المنكرة؛ لم يبق لهم موقع إلا في خيبر، فانحصر قصدهم في أمرين :

الأول : استبقاء وجودهم في حصونهم .

الثاني : الكيد للنبي ﷺ، وهم الذين دسُّوا السم في طعامه - عليه الصلاة

والسلام-، وقد ورد من حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت : «كان رسول الله ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه : يا عائشة ! ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخير ، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم»^(١) .

لقد حصل التدافع في هذين المقصدين ، فأما الأول فقد كان الدفع فيه لمصلحة النبي ﷺ ، وأما الثاني فقد كان الدفع فيه لمصلحة اليهود ، فبئس ما قصدوا وحققوا ، ولقد كان ذلك دأبهم مع الأنبياء السالفين ، قال - تعالى - عنهم : ﴿ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [البقرة : ٦١] ، إلا أن النبي ﷺ كان قد أكمل الله به الرسالة ، فلم يلحق بالرفيق الأعلى إلا بعد أن أتم إبلاغها ودخل الناس في دين الله أفواجا .

✽ النصارى :

حصل التدافع بين المسلمين والنصارى في مرات عديدة ، وكان قصد النصارى في كل مرة بحسبه .

وأذكر من ذلك ثلاثة مواضع :

الأول : وفد نجران الذين جاؤوا النبي ﷺ يؤيدون عقيدتهم في عيسى - عليه السلام - ويدفعون عقيدة المسلمين فيه ، قال ابن كثير : «إن النصارى (وفد نجران) حين قدموا جعلوا يحاجون في عيسى ، ويزعمون فيه ما يزعمون من النبوة والإلهية ، فأنزل الله صدر هذه السورة (آل عمران)»^(٢) . وقد ذكر الله - تعالى - حادثة قدوم هذا الوفد في سورة آل عمران ، قال - تعالى - : ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ [آل عمران : ٦٠ - ٦١] ، ثم قال - تعالى - : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى

(١) رواه البخاري ، انظر : فتح الباري ، ابن حجر ، (٨ / ١٣١) ، رقم ٤٤٢٨ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، (٢ / ٥٠) .

كَلِمَةٍ سِوَاءِ بَيْنِنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ [آل عمران : ٦٤] ، وجاء في حديث حذيفة قال : «جاء العاقب والسيد صاحب نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعنا، قال أحدهما لصاحبه : لا تفعل ، فوالله ! إن كان نبياً فلاعنا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا ! قالوا : إنا نعطيك ما سألتنا ، وابعث معنا رجلاً أميناً ، ولا تبعث معنا إلا أميناً . فقال : لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين . فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ ، فقال : قم يا أبا عبيدة بن الجراح . فلما قام ، قال رسول الله ﷺ : هذا أمين هذه الأمة»^(١) . وكان النبي ﷺ قد كتب لهم كتاباً قبل أن يأتوه ، جاء فيه : «أما بعد ، فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد ، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد ، فإن أبيتم فالجزية ، فإن أبيتم أذنتكم بحرب . والسلام»^(٢) ، فلما أتوه وأبوا الملاعة نزلوا على حكمه ، كان ذلك في سنة تسع للهجرة ، وقال الزهري : «لا ؛ كان أهل نجران أول من أدى الجزية إلى رسول الله ﷺ ، وآية الجزية إنما أنزلت بعد الفتح»^(٣) .

فكان قصد النصاري الدفع بإثبات صحة عقيدتهم الفاسدة من زعمهم نبوة عيسى - عليه السلام - وإلهيته ، والمحااجة بالباطل ليدحضوا به الحق . وكان قصد النبي ﷺ الدفع بإقامة الحجة عليهم ، فكانت نتيجة هذا التدافع : إقامتهم على باطلهم ودفعهم الجزية ، فالذي حصل بين وفد نجران والنبي ﷺ لم يكن مؤتمر أديان ولا اجتماع تقارب ، بل هو لقاء إقامة حجة وبيان الحقيقة ، حصل فيه جدال بالتي هي أحسن . وقد ورد في سياق البيهقي : (ثم ساء لهم وساء لوه ، فلم تزل به وبهم المسألة ، حتى قالوا : ما نقول في عيسى (أي في كيفية خلقه) ؛ فإننا نرجع إلى قومنا ونحن نصاري ، يسرنا - إن كنت نبياً - أن نسمع ما تقول فيه ؟ قال رسول

(١) رواه البخاري ، انظر : فتح الباري ، ابن حجر ، (٨ / ٩٣ ، ٩٤) ، رقم ٤٣٨٠ ، ورواه مسلم

بلفظ مختصر ، (٤ / ١٨٨٢) ، رقم ٢٤٢٠ .

(٢) دلائل النبوة ، البيهقي ، (٥ / ٣٨٥) .

(٣) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، (٢ / ٥٤) .

الله ﷺ: «ما عندي من شيء يومي هذا، فأقيموا حتى أخبركم بما يقول لي ربي في عيسى»، فأصبح الغد وقد أنزل الله - عز وجل - هذه الآية: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [٥٩] الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُؤْمَرِينَ ﴿٦٠﴾ [آل عمران: ٥٩ - ٦٠].

إن فكر العولمة المعاصرة يحمل لواءه بدرجة أولى اليوم النصارى، وإن ما يدعون إليه هو نفسه ما دعا إليه أسلافهم وأشد؛ لذا فإن مدافعتهم لا تتم بالولاء لهم أو الخضوع لعنجهيتهم أو عقد المؤتمرات معهم تحت شعار وحدة الأديان أو ما شابه، إن ترسم منهج النبي ﷺ في إدارة هذا التدافع العقدي هو المطلوب اتباعه والأخذ بمنهاجه.

الثاني: هو دفع بالقتال لرد العدوان على مبلغ دعوة الله، وكان ذلك في معركة مؤتة، وسببها أن النبي ﷺ بعث الحارث بن عمير الأزدي بكتابه إلى عظيم بصرى، فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني، وكان عاملاً على البلقاء من أرض الشام من قبل قيصر، فأوثقه ثم ضرب عنقه، فجهز النبي ﷺ جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، فإذا بهرقل على رأس جيش من الروم قوامه مائة ألف، وانضم إليه من لحم وجذام وبلقين وبهراء مائة ألف أخرى، ودارت المعركة التي انتهت بتراجع المسلمين وعودتهم إلى المدينة. كان قصد الرسول ﷺ إثبات هيبة المسلمين، وأن قتل رسلهم لا يمر دون عقاب، وقد تم ذلك بنجاح كبير، حيث ذاع النبا في قبائل العرب فتركت أثراً حميداً بالغاً، وكان قصد الروم إثبات قوة جيشهم وتأكيد سمعة مكانتهم. فهذه الحرب في جوهرها ذات طابع تدافع عقدي، مغلف بتحريك عسكري، ممتزج بأهداف سياسية.

الثالث: استعلن الرومان باستعداداتهم للزحف إلى المدينة المنورة والقضاء على الإسلام في عقر دارهم، ورأى النبي ﷺ أن السماح للرومان بذلك عبر دخولهم الجزيرة العربية سيبدد المكانة والهيبة التي قد حصل عليها المسلمون خلال

السنوات السابقة، فقرر أخذ زمام المبادرة وغزو الروم في بلادهم قبل أن يتمكنوا من البدء بتنفيذ مخططهم رغم عدم الملائمة المناخية؛ حيث كان الصيف حاراً، والقيظ شديداً، والناس في قلة من الظهر وعسرة من التحرك. وكما استنفر هرقل قبائل غسان وغيرهم ليقوموا معه؛ استنفر النبي ﷺ قبائل العرب وأهل مكة لينفروا معه. وخرج النبي ﷺ إلى تبوك في ثلاثين ألف مقاتل، فلما وصلها خاف أتباع هرقل وحلفاؤه واجتاحهم الرعب فتفرقوا في بلادهم، فلم يحصل قتال.

وجاء يحنة بن روبة صاحب أيلة فصالح الرسول ﷺ وأعطاه الجزية، وكتب النبي ﷺ له كتاباً، وكذا فعل أهل جرباء وأهل أذرح وأكيدر ودومة الجندل، فتحقق بذلك ما قصده النبي ﷺ من أهداف دعوية وسياسية وعسكرية، ولم يتحقق من مقاصد الرومان شيء سوى الخيبة ومزيد من الخوف على ملكهم.

وبهذه الغزوة المباركة فتح المسلمون أفقاً جديداً من زحف عالمية الإسلام نحو تحقيق مضمونها، واستعدوا للخروج بالتدافع إلى ما بعد تخوم الجزيرة العربية، ولم يلق النبي ﷺ ربه إلا بعد أن أعد جيشاً عرمرماً أوعب فيه المهاجرين والأنصار، وأمر عليه أسامة بن زيد بن حارثة، وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين، وكان هذا هو آخر بعث بعثه رسول الله ﷺ^(١)، فاتسعت دائرة العالمية الإسلامية، وانحسر مزيد من عولمة النصراني.

* الخجوس (الفرس) :

كان التدافع معهم عجيباً، كان قصد النبي ﷺ الهداية لهم، وكان قصدهم القضاء عليه!! فقد بعث - عليه الصلاة والسلام - رسالة إلى كسرى بن هرمز ملك فارس، حملها إليه عبد الله بن حذافة السهمي: «فأسلم تسلم، فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك»، فخرق كسرى الكتاب، وكتب إلى باذان عامله على اليمن؛ أن

(١) السيرة النبوية، ابن كثير، (٤ / ٤٤٠).

ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جليدين ، فليأتياني به!! لكن الله سلط شيرويه (ابن كسرى) على أبيه فقتله . وأما اليمن فقد كانت تحت ولاية الفرس ، ثم إن أهل اليمن من الأشعرين وهمدان وغيرهم أسلموا وخرجت اليمن من ولاية الفرس إلى ولاية المسلمين . استمر التدافع مع الفرس حتى حسمه الله - تعالى - بانتصار المسلمين عليهم في القادسية في خلافة عمر - رضي الله تعالى عنه - ، فحقق الله - تعالى - للمسلمين ما قصدوه من مدافعتهم المجوس فأسلم أهل فارس ، فاتسعت دائرة العالمية الإسلامية ، وانحسر مزيد من عولة الشرك .

التدافع في المقاصد الكلية في العهد المدني:

قلنا إن المقاصد الكلية خمسة: حفظ الدين ، والنفس ، والعرض ، والعقل ، والمال .

هذه المقاصد الخمسة تخص المجتمع المسلم من حيث الأصل ، وتتجاوزه إلى غيره من المجتمعات من حيث البلاغ . وقد ذكرنا أن التشريعات بهذا الخصوص قد نزلت في العهد المكي لبيانها وتثبيتها من حيث الوجود ، أما في العهد المدني فقد جاءت تشريعات الأحكام الخاصة بها من حيث العدم ؛ أي بيان الأحكام التي يقيمها السلطان الحاكم على من تجاوزها لتكون معدومة الوجود في المجتمع المسلم . وباجتماع وتحقيق هذه المقاصد الخمسة في المجتمع من حيث الوجود والعدم يتحقق الأمن بمعناه الشامل ؛ بما يتيح للمجتمع الترقى الآمن في سلم الحصول على الحياة الطيبة السعيدة التي قال الله - تعالى - عنها : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٧] ، وقال - عز وجل - : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ [طه : ١٢٣] . وفي حال تخلي هذا المجتمع عنها كلياً أو جزئياً - أي في حال عدم وجودها كلياً أو جزئياً - فإنه يحيا حياة تعيسة ضنكاً ،

قال - تعالى -: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ [طه : ١٢٤] .

وما ينبغي لفت النظر إليه هو أن حركة المجتمع بهذه المقاصد تتجاوز أفراده إلى كل من تتجدد له به علاقة؛ سواء على مستوى الأفراد المسلمين مع غير المسلمين ممن هم داخل دولة الإسلام أو خارجها، أو على مستوى الدولة في حركتها ضمن علاقات المنظومة الدولية العالمية، ففي كل الحالات تبقى هذه الحركة ضمن هذا الإطار الرباني المحكم، ولا تتجاوزه أبداً لتدخل ضمن إطار الغاية تُسوِّغ الوسطة، وهذه سمة خاصة بالمجتمع الإسلامي دون سواه من كل المجتمعات عبر الجغرافيا والتاريخ، فإن حصل ثمة تجاوزات فهو من اختلال الالتزام لدى المتجاوزين وليس من اختلال الأحكام. وبما أن التشريعات الخاصة بحماية المقاصد من حيث العدم تضمنت إقامة الحدود على المتجاوزين؛ فإن التدافع في هذه المسألة جاء من هذا الوجه؛ سواء لدى بعض المسلمين في داخل المجتمع المسلم أو مع غير المسلمين ممن هم تحت سلطان الدولة؛ غير أن هذا التدافع بقي تحت السيطرة؛ مما حقق حالة استقرار داخلي لدى المجتمع الإسلامي المدني، ساعده وأهله ليتقحم ثم يقتحم بعالميته دوائر المدافعة العولمية، وليؤسس انبثاقاً من المدينة - عاصمة الدولة بلغة العصر - قاعدة انطلاق راسخة وقوية وثابتة، وذات مكتنز عظيم من قوة الإيمان، كانت كافية لدفع عجلة الإسلام لمواصلة انطلاقها عبر القرون والبلدان لتصل إلينا، ولتستمر بعدنا إلى يوم الساعة، وهي في سيرها ذاك استطاعت أن تطوي سجلات العولمة بأنواعها وأشكالها عبر مدافعات مضيئة، كان الرائي لها في حينها يظن أن تلك العولمة قد أوقفت تلك العالمية أو ردتها على أدبارها.

ولعل عصرنا هذا يحتمل على ظهره شيئاً من هذه المشاهد التي سبق أن رآها أولئك القوم فظنوها خاتمة المطاف، ولم يدر في خلدكم أن تدافعات التاريخ

التي حوت صراعات العقائد والمقاصد والوسائل أطول بكثير من أعمار الناس! فإننا لا ننسى مثلاً أن كثيراً من العقائد تتحرك في نفوس حاملها آمال عولتها، كالنصرانية والبوذية واليهودية والشيوعية والرأسمالية والوجودية والليبرالية وغيرها، ومثل ذلك يقال في الإمبراطوريات؛ كإمبراطورية الروم والفرس سابقاً، ويقال أيضاً في الدول العظمى؛ مثل ألمانيا والاتحاد السوفيتي وبريطانيا (والجميع قد زالت إمبراطورياتهم)، وكأمريكا الآن التي تحاول أن تجرّب حظها راكبة سفينة العولمة، وسوف تغرق فيما بعد في بحر فاعلية عالمية الإسلام.

التدافع في تطبيق تشريعات المقاصد من حيث العدم؛

أشير في هذه الإلمامة المختصرة إلى التدافع الذي حصل لدى اجتماع الوزع بالقرآن والسلطان معاً، حينما نزلت التشريعات بخصوص إقامة الأحكام على من تجاوز المساحة المحددة في كل مقصد؛ إلى المساحة التي يجب أن تكون فيها الحركة ضمن ذلك المقصد معدومة؛ أي غير موجودة.

١ - التدافع في مقصد حفظ الدين:

يريد المشركون واليهود والنصارى إخراج المسلمين من نور الإيمان إلى ظلمات الكفر، ويريد المسلمون إخراج أولئك من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، فبين الطرفين تدافع تام.

وبما أن دين الإسلام هو الدين الحق المنزل من الله تعالى، وهو المرتضى عنده؛ فإن الخروج منه - أي من نوره وهدايته - هو إصرار على سلوك طريق الباطل بعد استبانة طريق الحق، ولذلك شرع لحفظ الدين من حيث الدخول فيه الاستعلان بالشهادتين - وقد تكلمنا في ذلك -، ومن حيث الارتداد عنه شرع حد الردة، وهو القتل لمن أصر على ارتداده ولم يرجع إلى الإسلام فيتوب من فعلته

الشيعة، لقوله ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه»^(١) وهو - أي إقامة الحد - من وظائف السلطان وليس من وظائف الأفراد أو الهيئات، لهذا جاء تشريعه في الأحكام المدنية وليس المكية، وكذلك جميع الحدود التي سنذكرها في بقية المقاصد. وبناء على ذلك؛ فإن أي مسلم يترك دينه إلى النصرانية أو اليهودية أو المجوسية أو غيرها من الأديان والعقائد؛ فإنه يستتاب وإلا وجب على السلطان إقامة حد الردة عليه، فإن تخلف السلطان عن فعل ذلك؛ سواء بسبب وضعه لتشريع يخالف الشريعة، أو لتقاعسه عن تنفيذ أحكامها؛ فإن الفساد العقدي سينتشر بين المسلمين بما يهدد دنياهم وآخرتهم، وهذا من الطامات العظمى التي أثقلت بكلكلها صدور المجتمعات الإسلامية المعاصرة، فاستشرت بين صفوفها أفكار الإلحاد والكفر من مثل الشيوعية والعلمانية وغيرها.

٢ - التدافع في مقصد حفظ النفس:

الأصل أن النفس الإنسانية مصونة، ولا يحق لأحد إزهاق روح غيره بغير حق، وقد شرع الإسلام لحفظ النفس من حيث الوجود ما ذكرناه سابقاً، وشرع لحفظها من حيث العدم حد القصاص؛ مع حثه على قبول الفدية أو العفو، قال - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرِّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ١٧٨]، فمن علم أنه إذا قُتل قُتل كف عن الإقدام على القتل، فيستبقي حياة غيره فُتستبقي حياته، ولهذا قال - تعالى -: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩]، والحياة في الآية أعم من اختصاصها بالفرد، بل هي حياة للمجتمع بشكل أشمل. ولكن لا يُقتل مسلم بكافر لعظم تفاوت ما بينهما، فإن الإيمان لا يعدله شيء ولا يكافئه، فقد روى البخاري عن علي - رضي الله عنه - أن أبا جحيفة قال له: (هل عندكم من الوحي ما ليس في القرآن؟ قال: لا، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهماً يعطيه الله رجلاً في القرآن،

(١) رواه البخاري، انظر: فتح الباري، ابن حجر، (٦ / ١٤٩)، رقم ٣٠١٧.

وما في هذه الصحيفة . قلت : وما في هذه الصحيفة؟ قال : «المؤمنون تتكافأ دماؤهم - أي تتساوى في الدية والقصاص -، وفكاك الأسير، وألا يُقتل مسلم بكافر». وقد خَصَّ الشارع السلطان بتولي هذا الأمر؛ إما بنفسه، وإما بمن يفوضه عنه كالوالي أو القاضي، ولم يتركه للأفراد حفاظاً على استقرار الأمن الاجتماعي، وقمعاً لأسباب انتشار الفوضى ودرءاً للتسيب؛ قال - تعالى -: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣].

٣، ٤، ٥ - التدافع في مقاصد حفظ العرض والعقل والمال :

نزلت التشريعات الربانية في المدينة بخصوص حفظ هذه المقاصد من حيث العدم، وأرسيت قواعد إقامة الحدود الخاصة بالزنا والسرقه والحراة والقذف، وسأسوق أمثلة على ذلك في تدافع الوسائل .

هل حصل التدافع في المقاصد في المجتمع المدني؟:

استخدمنا لفظ «التدافع» في ذكر المقاصد؛ فهل ثمة تدافع في تحقيق المقاصد في المجتمع المدني؟

من المتوقع أن لا يكون ثمة تدافع؛ باعتبار وجود السلطة النبوية المشرعة والمنفذة، ولا يحق لأحد إمكانية الاعتراض، على خلاف الحال في العهد المكي، حيث كانت السلطة (الملا) تشن الحرب الشعواء على كل شيء له علاقة بالنبي ﷺ؛ غير أن وجود المنافقين في المجتمع المدني كان يشكل عامل تدافع ضمني، أغلبه غير معلن، وأحياناً معلن، وكانت الأعراف المتعلقة بأنساب القبائل لها دورها أيضاً في المسألة، وكتمان اليهود لما نزل عليهم في التوراة شكلاً أيضاً ترساً جهدوا في التترس خلفه، وقد حفلت السيرة النبوية المدنية بأمثلة عديدة من ذلك، سيأتي بعضها في ذكر «تدافع الوسائل»، ونترك للقارئ أيضاً مساحته البحثية لتغطية هذه النقطة .

التدافع في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

جميع المشكلات الرئيسة في المجتمع المدني جاءت من قبل المنافقين واليهود، وقد شكّل المنافقون عبئاً شديداً على مجتمع المدينة، حيث كانوا مثل الدود الذي ينخر في الأساسات ويأكل القواعد، فبينما كان المؤمنون بحسب الوصف الإلهي لهم: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: ٧١]؛ كان المنافقون بحسب الوصف الإلهي لهم: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ [التوبة: ٦٧]، وكان اليهود: ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٢].

ولما كانت مساحة المجتمع المدني محدودة؛ فإن التدافع بين المؤمنين من جهة والمنافقين واليهود من الجهة المقابلة كان تدافعا تاماً وشديداً، نجمت عنه مواقف وأحداث خطيرة، كما هو مفصل في كتاب الله - تعالى - وفي سيرة النبي ﷺ.

وأما التدافع مع أعداء الإسلام ممن هم خارج المجتمع المدني؛ فقد كان مندرجاً تحت المعنى الشامل للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وكنيت قد ذكرت ست مسائل في تدافع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في العهد المكي، وهي موجودة كذلك في العهد المدني؛ غير أنني أضيف إليها ما يأتي:

١ - حصل مزيد من التوسع القرآني في بيان بطلان ما عليه أهل الكتاب، وأمره لهم بالرجوع إلى الحق في مسائل الإلهيات والنبوات والأحكام.

٢ - إن التصعيد في طرائق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما يترتب عليه من أحكام قد سلك منهجاً تدريجياً؛ سواء في تدرج مسائل الجهاد أو في تدرج طرائق التعامل مع أهل الكتاب (وسياتي الكلام عليه في تدافع الوسائل).

٣ - اتبع النبي ﷺ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أسلوب المفاضلة والموازنة في تحقيق المصالح، وذلك بتقديم أعظم المصلحتين على أدناهما، ودرء

أكبر المفسدين باحتمال أصغرهما - وكذلك كان الحال في العهد المكي -.

٤ - متابعة إقامة الحجّة على المشاركين المكيين وغيرهم .

٥ - دخول الأعراب في معادلة الساحة الدعوية اقتضى توجيه خطابات قرآنية ونبوية خاصة بهم .

٦ - بروز مصطلحات شرعية جديدة تنظم مسائل ممارسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الجهات المحاربة؛ من مثل عقود الصلح والهدنة والذمة والأمان والعهد والجزية وغيرها، ولكل مصطلح أحكامه وفتاواه .

٧ - تشريع أحكام تدرج في معنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تنظم نسق التعامل الفردي والجماعي، وتبين منهج الممارسة الحياتية على مستوى الأشخاص والأسر والشعب والدولة، وتعزز مفهومات ارتباط حصاد الآخرة مع زرع الدنيا في إطار من الشمولية ومن إبراز مسؤولية الذات .

هذا الدفع - الذي ذكرته في البنود السبعة السالفة - قابله دفع مضاد من قبل أعداء الإسلام، سواء في داخل المجتمع المدني أو خارجه؛ غير أن ضغط الدفع النبوي كان من القوة والثبات بحيث أنه تمكن من مواصلة توسيع الاندفاع في تحقيق عالمية الإسلام، وتضييق عوامة الكفر .

ثالثاً: تدافع الوسائل في العهد المدني:

مع احتدام الصراع وتصاعد التدافع بين المؤمنين والكافرين والمنافقين؛ كان من اللازم لكل منهم أن يستنفر وسائله لتدعيم موقفه، وهكذا كان؛ غير أن ظروف التدافع في العهد المدني قد تغيرت إزاء ما كان عليه الحال في العهد المكي .

ومن أبرز ظروف التدافع المدني ما يأتي:

١ - أن الهيمنة والسلطان كانا للإسلام عقيدة وشرعية وحكماً .

٢ - أن المرجعية الواقعية في سائر أوجه الحكم كانت لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأنها نافذة على جميع من دخل تحت لواء الإسلام.

٣ - بروز المساجد كمجامع للصلاة والتوجيه والتربية، زاد المسجد النبوي على ذلك بأن كان مقراً للحكم، وعقد أُلوية الحرب، وتسيير السرايا، وتجهيز الجيوش، واستقبال الوفود.

٤ - الشمولية في استخدام جميع أنواع التدافع على المستويات كافة؛ العقيدة والسياسية والعسكرية والاجتماعية والإدارية والاقتصادية والإعلامية وغيرها.

٥ - أن قطوف التدافع كانت ثمراتها في الأوضاع النهائية تصب في سلة المسلمين؛ رغم التفوق المادي كماً ونوعاً الذي كان لدى أعدائهم كدولتي الروم والفرس.

٦ - أن الروح المعنوية للمسلمين كانت في تصاعد مستمر أثناء خوض الصراعات على الجهات كافة، حيث بلغت أوجها بفتح مكة؛ أي أن الطاقة الحركية التي كانت مكبوتة في العهد المكي قد تدفقت بوتيرة متصاعدة في العهد المدني لتشكّل اندفاعاً حركية كبيرة، استحققت أن تكون قدوة شحذت همم الأنصار وارتقت بها، ليتشكّل من مجموع المهاجرين والأنصار نهر دعوي هادر.

٧ - أن معادلة: (أقصى الطاقة الإيمانية = التوظيف الصحيح لها = أفضل النتائج المشروعة) قد استمرت على مسارها في العهد المدني - كما في العهد المكي -؛ مع اشتغالها على العناصر الثلاثة التي ذكرناها، وهي: الثقة المطلقة بوعده الله ونصره، والصبر على مشاق الدعوة وطبيعة المواجهة، والاستعداد التام والدائم للبذل في سبيل الله (انظر أيضاً ما ذكرناه سابقاً من متطلبات التوظيف الصحيح للطاقات الإيمانية).

لقد كان العهد المدني حافلاً بشكل مكثف جداً بالأحداث التدافعية التي

سيقت وفق مسار قدري ، رسمت لوحة مفعمة بالحركة والمواقف والتشريعات بما إذا ضُمَّتْ إلى مثيلاتها من العهد المكّي ؛ فإنها تشكّل بمجموعها مرجعية فذة لجميع الأجيال المتلاحقة ، فلكن ما هو متجدد من الأحداث عبر امتداد الزمن وفي مختلف البقاع وإلى قيام الساعة قد ضغطت قدواته فيها ، وهذا هو المعنى الشامل لقوله - تعالى - : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

ولأجل استخلاص بعض الخطوط العريضة والرئيسية من احتدام التدافعات في العهد المدني ؛ فإنني سأسوق بعض الأمثلة على الوجه الآتي :

المثال الأول : من حديث البراء عن أبي بكر - رضي الله عنه - في حديث الهجرة ، قال : « ومضى رسول الله ﷺ وأنا معه حتى قدمنا المدينة ، فتلقياه الناس ، فخرجوا في الطريق وعلى الأجاجير ، فاشتد الخدم والصبيان في الطريق يقولون : الله أكبر ، جاء رسول الله ﷺ ، جاء محمد . وتنازع القوم أيهم ينزل عليه . قال : فقال رسول الله ﷺ : أنزل الليلة على بني النجار أخوال عبد المطلب لأكرمهم بذلك . . . » الحديث (١) . وعند البخاري من حديث البراء بن عازب - رضي الله عنه - : « . . . ثم قدم النبي ﷺ ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ ، حتى جعل الإماء يقلن : قدم رسول الله ﷺ . . . » الحديث (٢) . وفي حديث أنس - رضي الله عنه - قال : « لما قدم الرسول لعبت الحبشة بحرابهم فرحاً لقدومه » (٣) .

المثال الثاني : قال ابن إسحاق : « . . . ثم نزل رسول الله على أبي أيوب ،

(١) مسند أحمد ، (١ / ٣) .

(٢) فتح الباري ، ابن حجر ، (٧ / ٢٦٠) ، رقم ٣٩٢٥ .

(٣) سنن أبي دود ، رقم ٤٩٢٣ ، الفتح الرباني ، (٢٠ / ٢٩٠ ، ٢٩١) ، وسنده صحيح ، انظر : صحيح السيرة ، إبراهيم العلي ، ص ١٣٣ .

وأمر رسول الله ﷺ ببناء مسجده في تلك السنة^(١). ومن حديث ابن عمر - رضي الله عنهما -: «أن المسجد كان على عهد الرسول ﷺ مبنياً باللبن، وسقفه الجريد، وعمده خشب النخل»^(٢).

المثال الثالث: أخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار، وقد جاء في ذلك حديث أنس - رضي الله عنه - قال: «قد حالف رسول الله ﷺ بين قريش والأنصار في داري»^(٣). ومن حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: «أن النبي ﷺ كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار: أن يعقلوا معاقلهم، وأن يفدوا عانيهم بالمعروف، والإصلاح بين المسلمين»^(٤).

المثال الرابع: الوثيقة بين النبي ﷺ واليهود، وهي وإن لم تثبت بنصها، لكن جاءت روايات تؤيد حصولها؛ من ذلك ما صرح به ابن إسحاق بالتحديث عن عاصم بن عمر بن قتادة: «أن بني قينقاع كانوا أول اليهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ»^(٥). وجاء في أثر موقوف على موسى بن عقبة بدون إسناد، وذكره ابن كثير في البداية والنهاية: «أن بني قريظة مزقوا الصحيفة التي كان فيها العقد»^(٦). قال الأستاذ إبراهيم العلي في (صحيح السيرة): «مجموع الآثار - أي المتعلقة بهذه الوثيقة - ليتقوى بعضها ببعض وتصل إلى درجة الحسن لغيره»^(٧).

(١) رواه الطبراني، انظر: مجمع الزوائد، للهيثمي، (٦ / ٦٢، ٦٣)، وقال الهيثمي: رجاله ثقات.

(٢) رواه البخاري، انظر: فتح الباري، لابن حجر، (١ / ٥٤٠)، رقم ٤٤٦.

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٦٨٧، رقم ١٦٤٤.

(٤) مسند أحمد، (١ / ٢٧١)، وصحح الساعاتي سنده في الفتح الرباني، وانظر: صحيح السيرة، إبراهيم العلي، ص ١٣٨.

(٥) السيرة النبوية، ابن هشام، (٢ / ٤٨)، إسناده صحيح غير أنه مرسل.

(٦) السيرة النبوية، ابن كثير، (٤ / ١٠٣، ١٠٤).

(٧) صحيح السيرة، إبراهيم العلي، ص ١٤٣، وانظر أيضاً: حديث سعيد بن المسيب وتخريجه في المصدر نفسه، ص ٢٨٢.

المثال الخامس: رأى عبد الله بن زيد كيفية الأذان في الرؤيا، فأخبر بذلك النبي ﷺ، فقال: «إنها رؤيا حق إن شاء الله، فقم مع بلال فألق عليه ما رأيت فليؤذن به؛ فإنه أندى صوتاً منك»، وزاد أحمد في روايته: «فسمع ذلك عمر بن الخطاب وهو في بيته، فخرج يجرد رداءه ويقول: والذي بعثك بالحق يا رسول الله! لقد رأيت مثل ما رأى...» (١).

المثال السادس: أذن الله - تعالى - بالقتال فقال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]، ثم فرض الله - تعالى - القتال على المسلمين لمن قاتلهم؛ دون من لم يقاتلهم، قال - تعالى -: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]، ثم فرض الله - تعالى - قتال المشركين كافة، قال - تعالى -: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦]، وأمر بقتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية، قال - تعالى -: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]، ثم أمر بالقتال العام الشامل لإزالة فتنة الكفر وليكون الدين كله لله، قال - تعالى -: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [٣٩] وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعَمَ النَّصِيرُ﴾ [الأنفال: ٣٩، ٤٠]، وكان الرسول ﷺ يوصي سراياه بتقوى الله في خاصة أنفسهم وفي المسلمين ويقول لهم: «اغزوا بسم الله، وفي سبيل الله، وقاتلوا من كفر بالله، ولا تمثلوا، ولا تغدروا، ولا تقتلوا وليداً» (٢)، وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: «وجدت امرأة مقتولة في بعض تلك

(١) سنن أبي دواد، باب كيف الأذان، رقم ٤٩٩، وسنن الترمذي، رقم ١٨٩، وسنن ابن ماجه، رقم ٧٠٦، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) صحيح مسلم، (٣ / ١٣٥٧)، رقم ١٧٣١.

المغازي، فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان»^(١).

المثال السابع: من طريق بريدة، عن النبي ﷺ قال: «وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال (أو خلال)؛ فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام؛ فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها؛ فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفية شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين؛ فإن هم أبوا فسلهم الجزية؛ فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم؛ فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم. وإذا حاصرت أهل حصن، فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه؛ فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك؛ فإنكم أن تخفروا ذمكم وذم أصحابك أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله. وإذا حاصرت أهل حصن، فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله؛ فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك؛ فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا»^(٢). وقال ﷺ: «الحرب خدعة»^(٣).

المثال الثامن: من حديث علي- رضي الله عنه- قال: «بعث رسول الله ﷺ سرية واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار، وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا، فعصوه في شيء، فقال: اجمعوا لي حطباً. فجمعوا، ثم قال:

(١) صحيح مسلم، (٣ / ١٣٦٤)، رقم ١٧٤٤.

(٢) صحيح مسلم، (٣ / ١٣٥٧)، رقم ١٧٣١.

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٤٣٧، رقم ١١٣٤.

أوقدوا ناراً! فأوقدوا، ثم قال: ألم يأمركم رسول الله ﷺ أن تسمعوا وتطيعوا؟! فقالوا: بلى! قال: فادخلوها! فنظر بعضهم إلى بعض، وقالوا: إنما فررنا إلى رسول الله ﷺ من النار! فكانوا كذلك حتى سكن غضبه، وطفئت النار! فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول ﷺ فقال: لو دخلوها، ما خرجوا منها أبداً. وقال: لا طاعة في معصية الخالق؛ إنما الطاعة في المعروف»^(١).

المثال التاسع: من حديث عقبة بن عامر - رضي الله عنه - قال: «سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر وهو يقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]؛ ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي»^(٢).

المثال العاشر: القيام بالغزوات وتسيير السرايا.

فمن الغزوات: غزوة الأبواء، وبواط، والعشيرة، وسفوان، وبدر الكبرى، وبني قينقاع، وأحد، وحمراء الأسد، وبني النضير، والأحزاب (الحنديق)، وبني قريظة، وبني لحيان، والحديبية، وخيبر، ومعركة مؤتة، وفتح مكة، وحنين، والطائف، وتبوك، وغيرها من الغزوات، حيث بلغت حوالي سبعاً وعشرين غزوة.

ومن السرايا: سرية حمزة بن عبد المطلب إلى سيف البحر من جهينة، وسرية عبيدة بن الحارث إلى ثنية مرة، وسرية عبد الله بن جحش إلى نخلة، وسرية عمير بن عدي، وسرية سالم بن عمير، وسرية محمد بن سلمة، وغيرها من السرايا، حيث بلغت حوالي خمسين سرية أو أكثر.

المثال الحادي عشر: تم إجلاء اليهود من بني قينقاع وبني النضير وبني

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٤٨٢، رقم ١٢٠٦.

(٢) صحيح مسلم، (٣ / ١٥٢٢)، رقم ١٩١٧.

قريظة، وفي كل نزل قرآن يتلى، ففي بني قينقاع نزل قوله - تعالى -: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سِتْغَلْبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَةِ الْقِتْلَةِ قِتْلَةُ قَتَاتِلٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَهُمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٢-١٣]، قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: «نزلت في بني قينقاع»، وهو أحد الأقوال^(١). وفي بني النضير نزل قوله - تعالى -: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢]، وما بعدها من الآيات.

وفي بني قريظة نزل قوله - تعالى -: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَّوُّهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٦-٢٧]، وكان من شأنهم - كما في حديث جابر بن عبد الله - أنهم «نزلوا على حكم سعد بن معاذ، فأرسل إليه، فحكم أن تقتل رجالهم، ويُسْتَحْيَا نساؤهم وذرايرهم، يستعين بهم المسلمون. قال رسول الله ﷺ: أصبت حكم الله فيهم. وكانوا أربعمائة، فلما فرغ من قتلهم، انفتق عرقه فمات»^(٢). وقد أمضى رسول الله ﷺ حكم سعد بن معاذ، كما ورد في حديث ابن عمر - رضي الله عنهما -: «... فقتل رجالهم، وقسم نساءهم وأولادهم بين المسلمين؛ إلا بعضهم لحقوا بالنبي ﷺ فأمنهم وأسلموا، وأجلى يهود المدينة

(١) انظر هذا القول في رواية ابن إسحاق، وقد ذكرها ابن كثير في صدر تفسير هذه الآية، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (٢ / ١٧).

(٢) مسند أحمد، (٣ / ٣٥٠)، سنن الدارمي، (٢ / ٢٣٨)، سنن الترمذي، رقم ١٥٨٢، وقال: حديث صحيح.

كلهم: بني قينقاع وهم رهط عبد الله بن سلام، ويهود بني حارثة، وكل يهود المدينة»^(١). وأما يهود خيبر فقد جاء في حديث ابن عمر- رضي الله عنهما -: «أن رسول الله ﷺ قاتل أهل خيبر حتى ألجأهم إلى مقرهم، فغلب على الأرض والنخل والزرع، فصالحوه على أن يجلوها منها، ولهم ما حملت ركابهم، ولرسول الله ﷺ الصفراء والبيضاء (الحلقة) ويخرجون منها . . . وسبى رسول الله ﷺ نساءهم وذرايرهم، وقسم أموالهم للنكت الذي نكثوا، وأراد أن يجليهم منها، فقالوا: يا محمد! دعنا نكون في هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها. ولم يكن لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه غلمان يقومون عليها، وكان لا يتفرغون أن يقوموا عليها، فأعطاهم خيبر على أن لهم الشطر من كل نخل وزرع وشيء ما بدا لرسول الله ﷺ . . . فلما كان زمان عمر بن الخطاب غشوا المسلمين وألقوا ابن عمر من فوق بيت ففدغوا يديه، فقال عمر بن الخطاب: من كان له سهم من خيبر فليحضر حتى نقسمها بينهم»^(٢)، ووقائع خيبر رواها البخاري ومسلم وأصحاب السنن^(٣).

المثال الثاني عشر: قال- تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التحریم: ٩]، وقال- تعالى -: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١]، وفي غزوة أحد- من طريق ابن إسحاق بسند حسن لكنه مرسل -: «حتى خرج في ألف من أصحابه، حتى إذا كانوا بالشوط بين المدينة وأحد؛ انخزل عنه عبد الله بن أبي بن سلول بثلاث الناس، وقال: أطاعهم وعصاني، ما ندري علام نقتل أنفسنا هنا أيها الناس!! فرجع بمن تبعه من قومه من أهل النفاق

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٤٥٠، رقم ١١٥٤.

(٢) موارد الظمان، ابن حبان، رقم ١٦٩٧، بإسناد صحيح.

(٣) انظر: صحيح السيرة النبوية، إبراهيم العلي، ص ٣٣٨-٣٥٠.

والريب...»^(١). وفي غزوة بني قينقاع - من طريق ابن إسحاق بسند صحيح لكنه مرسل -: «فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على حكمه، فقام عبد الله ابن أبي بن سلول إلى رسول الله ﷺ حين أمكنه الله - تعالى - منهم، فقال: يا محمد، أحسن في موالي!! فأعرض عنه فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: أرسلني! وغضب حتى روي لوجه رسول الله ﷺ ظلال. فقال له: ويحك أرسلني! فقال: والله! لا أرسلك حتى تحسن في موالي، أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة! أي والله! إني لا مرؤ أخشى الدوائر. فقال رسول الله ﷺ: هم لك!!»^(٢). وفي غزوة بني المصطلق قال عبد الله بن أبي بن سلول في جلسة مع أصحابه قولته الشنيعة!! وقد أنزل الله - تعالى - فيه قرآناً يتلى في سورة سُمِّيَتْ باسمهم، وهي (المنافقون)، حيث فضح الله مكنونهم المخالف لعلايتهم، ومما ورد فيها قوله - تعالى -: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۖ يَقُولُونَ لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨٠٧].

المثال الثالث عشر: إقامة الحدود:

- حد الردة: أهدر النبي ﷺ عند فتح مكة دم عبد الله بن خطل ومقيس ابن حبابه لأنهما ارتدا، فقتلا، وأهدر دم عبد الله بن أبي سرح، كان كاتباً للوحي ثم ارتد، لكنه أسلم مرة أخرى فحقن النبي ﷺ دمه^(٣). وفي حديث معاذ في اليهودي الذي أسلم ثم رجع إلى دينه قال: «ما أنزل حتى

(١) سيرة النبي ﷺ، ابن هشام، (٣ / ٨).

(٢) المرجع السابق، (٢ / ٤٢٧، ٤٢٨).

(٣) السيرة النبوية، ابن كثير، (٣ / ٥٦٣، ٥٦٤).

يقتل . فأمر به فقتل»^(١) .

- حد القتل العمد : في الحديث الصحيح : « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث . . . » ، وفيه : « والنفس بالنفس »^(٢) . وروى البخاري ومسلم من طريق أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ رضاً رأس يهودي بين حجرين ، وكان اليهودي قد فعل ذلك بجارية من الجواري^(٣) . ويجب السلطان القتل إن رضي أولياء المقتول بالعفو أو الفدية ، فمن طريق وائل بن حجر قال : « كنت عند النبي ﷺ إذ جيء برجل قاتل في عنقه النسعة . قال : فدعا ولي المقتول ، فقال : أتعفو؟ قال : لا . قال : أفتأخذ الدية؟ قال : لا . قال : أفتقتل؟ قال : نعم ! قال : اذهب به ، فلما ولي ، قال : أتعفو؟ قال : لا . قال : أفتأخذ الدية؟ قال : لا . قال : أفتقتل؟ قال : نعم . قال : اذهب به . فلما كان الرابعة ، قال : أما إنك إن عفوت عنه يبوء بإثمه وإثم صاحبه . قال : فعفا عنه . قال : فأنا رأيته يجر النسعة »^(٤) .

- حد الزنى : من حديث أبي هريرة وزيد بن خالد - رضي الله عنهما - : « أن رجلاً من الأعراب أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، أنشدك الله إلا قضيت لي بكتاب الله ! وقال الخصم الآخر - هو أفقه منه - : نعم ! فاقض بيننا بكتاب الله ، وأذن لي . فقال رسول الله ﷺ : قل . قال : إن ابني كان عسيماً (أي أجيراً) على هذا فزني بامرأته ، وإنني أُخبرت أن على ابني الرجم ، فافتديت منه بمائة شاة ووليدة ، فسألت أهل العلم ، فأخبروني أن على ابني جلد مائة وتغريب عام ، وأن على امرأة هذا الرجم . فقال رسول الله ﷺ : والذي نفسي بيده !

(١) رواه البخاري ، انظر : فتح الباري ، ابن حجر ، (٨ / ٦٠) ، رقم ١١٥٤ .

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ، محمد فؤاد عبد الباقي ، ص ٤١٧ ، رقم ١٠٩١ .

(٣) فتح الباري ، ابن حجر ، (٥ / ٧١) ، رقم ٢٤١٣ ، صحيح مسلم ، (٣ / ١٢٩٩) ، رقم ١٦٧٢ ، اللؤلؤ والمرجان ، محمد فؤاد عبد الباقي ، ص ٤١٥ ، رقم ١٠٨٧ .

(٤) صحيح سنن أبي داود ، الألباني ، رقم ٣٧٧٦ .

لأقضين بينكما بكتاب الله ، الوليدة والغنم رد عليك ، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام ، واغديا أنيس - رجل من أسلم - إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها . قال : فغدوا عليها فاعترفت ، فأمر بها رسول الله ﷺ فرُجمت» (١) .

- حد القذف : قال - تعالى - : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور : ٤] ، وعن عائشة - رضي الله تعالى عنها - قالت : « لما نزل عذري ؛ قام النبي ﷺ على المنبر فذكر ذاك ، وتلا - تعني القرآن - ، فلما نزل من المنبر أمر بالرجلين والمرأة فضربوا حدهم» (٢) .

- حد شارب الخمر : قال علي - رضي الله عنه - : « جلد النبي ﷺ أربعين ، وجلد أبو بكر - رضي الله عنه - أربعين ، وعمر - رضي الله عنه - ثمانين ، وكل سنة ، وهذا أحب إلي » (٣) .

- حد السرقة : من حيث عائشة - رضي الله عنها - : « أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت في عهد النبي ﷺ في غزوة الفتح . . . الحديث ، وفيه : « ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت فقطعت يدها . قالت عائشة - رضي الله عنها - : فحسنت توبتها بعد ، وتزوجت . . . » (٤) .

- حد الحراية : من حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - : « أن نفراً من عكل - وفي رواية أو عرينة - ثمانية ، قدموا على رسول الله ﷺ فبايعوه على الإسلام ، فاستوخموا الأرض ، وسقمت أجسامهم ، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فقال : ألا تخرجون مع راعينا في إبله فتصيبون من أبوالها وألبانها ؟ فقالوا : بلى !

(١) اللؤلؤ المرجان فيما اتفق عليه المرجان ، محمد فؤاد عبد الباقي ، ص ٤٧٢ ، رقم ١١٠٣ .

(٢) صحيح سنن أبي داود ، وقال الألباني : « حسن » ، رقم ٣٧٥٦ .

(٣) صحيح مسلم ، (٣ / ١٣٣٢) ، رقم ١٧٠٦ .

(٤) صحيح مسلم ، (٣ / ١٣١٥) ، رقم ١٦٨٨ .

فخرجوا فشربوا من أبوالها وألبانها، فصحوا، فقتلوا الراعي وطرّدوا الإبل، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فبعث في آثارهم، فأدركوا، فجاء بهم، فأمر بهم ففُطعت أيديهم وأرجلهم، وسُمرت أعينهم، ثم نبذوا في الشمس حتى ماتوا»^(١).

المثال الرابع عشر: الأعراب أصناف:

- منهم المؤمنون: وهم الذين قال الله - تعالى - عنهم: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٩].

- ومنهم المسلمون: وهم الذين قال الله - تعالى - عنهم: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تَوَدُّوا قَوْلُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]، قال ابن كثير: «هؤلاء الأعراب المذكورون في هذه الآية ليسوا بمنافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، فادّعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه، فأدبوا في ذلك، وهذا معنى قول ابن عباس وإبراهيم النخعي وقتادة، اختاره ابن جرير»^(٢).

- ومنهم منافقون: وهم الذين قال الله - تعالى - فيهم: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبيراً﴾ [١١] بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزَيْنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنُّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١١ - ١٢]، قال ابن كثير: «أي لم يكن تخلفكم تخلف معذور ولا عاص، بل تخلف نفاق، . .

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٤١٥، رقم ١٠٨٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (٧ / ٣٨٩).

أي اعتقدتم أنهم يقتلون وتُستأصل شأفتهم، وتستباد خضراؤهم، ولا يرجع منهم مخبر»^(١). وقد عاقب الله - تعالى - هؤلاء الأعراب بحرمانهم من الخروج مع النبي ﷺ في غزوة خيبر لينالوا من مغائنها؛ إذ لم يسمح النبي ﷺ لأحد أن يخرج معه لخيبر سوى الذين خرجوا معه في غزوة الحديبية، قال - تعالى -: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الفتح: ١٥]، فلا يقع غير ذلك شرعاً وقدرأً، كما قال ابن كثير رحمه الله - تعالى - وأجزل مثوبته .

- ومنهم كفار: وهم الذين قال الله - تعالى - عنهم: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(٩٧) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمْ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿[التوبة: ٩٧ - ٩٨] .

المثال الخامس عشر: من حديث البراء بن عازب - رضي الله عنه - قال: «لما كان حين أمرنا الرسول ﷺ بحفر الخندق عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ فيها المعاول، فاشتكيننا إلى رسول الله ﷺ، فجاءنا فأخذ المعول فقال: بسم الله . فضرب ضربة فكسر ثلثها، وقال: الله أكبر! أعطيت مفاتيح الشام، والله! إني لأبصر قصورها الحمر الساعة. ثم ضرب الثانية، فقطع الثلث الآخر، فقال: الله أكبر! أعطيت مفاتيح فارس، والله! إني لأبصر المدائن، قصر المدائن الأبيض. ثم ضرب الثالثة، وقال: بسم الله . فقطع بقية الحجر، فقال: الله أكبر! أعطيت مفاتيح اليمن، والله! إني لأبصر

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (٣ / ٣٣٧).

أبواب صنعاء من مكاني هذا الساعة»^(١).

ومن حديث عدي بن حاتم الطائي، وفيه: «فقال - أي النبي ﷺ -: يا عدي! هل رأيت الحيرة؟ قلت: لم أرها، وقد أنبئت عنها. قال: فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله. قلت فيما بيني وبين نفسي: فأين دعار طيء الذين قد سعروا البلاد؟! ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى. قلت: كسرى بن هرمز؟! قال: كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة، يطلب من يقبله منه، فلا يجد أحداً يقبله منه... قال عدي: فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله. وكنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبي أبو القاسم ﷺ: يخرج ملء كفه»^(٢).

المثال السادس عشر: من حديث ابن عباس - رضي الله عنه - قال: «كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة...» الحديث^(٣).

وعن زيد بن ثابت - رضي الله عنه -: «أن النبي ﷺ أمره أن يتعلم كتاب اليهود، حتى كتبت للنبي ﷺ كتبه، وأقرأته كتبهم إذا كتبوا إليه...» رواه البخاري معلقاً، ووصله البغوي، وأبو يعلى، ورواه أبو داود، والترمذي: وقال حسن صحيح. وفيه عند البغوي: «فتعلمته، فما مضى إلا نصف شهر حتى حذفته...»^(٤). ومن حديث البراء قال: «لما كان يوم الأحزاب وخذق رسول

(١) مسند أحمد، (٤ / ٣٠٤)، سنن النسائي، (٦ / ٤٣، ٤٤)، فتح الباري، ابن حجر، (٧ / ٣٩٧)، وحسن إسناده.

(٢) رواه البخاري، انظر: فتح الباري، ابن حجر، (٦ / ٦١٠)، رقم ٣٥٩٥.

(٣) مسند أحمد، تحقيق أحمد شاکر، (٤ / ٤٧)، وقال أحمد شاکر: إسناده صحيح.

(٤) فتح الباري، ابن حجر، (٣ / ١٨٥)، رقم ٧١٩٥، الإصابة، ابن حجر، (١ / ٥٦١)، سنن أبي داود، (٤ / ٦٠)، رقم ٣٦٤٥، سنن الترمذي، (٤ / ١٦٧)، رقم ٢٨٥٨، وقال: حسن صحيح، معجم الصحابة، البغوي، (٢ / ٤٦٢)، رقم ٨٤٠.

الله ﷺ؛ رأيتُه ينقل من تراب الخندق حتى وارىء عني التراب جلدة بطنه . . .»^(١). ومن طريق ابن إسحاق قال: «فحدثني من أثق به أن النبي ﷺ أول من رمى في الإسلام بالمنجنيق، رمى به أهل الطائف. وأن نفراً من الصحابة دخلوا تحت دبابه، ثم زحفوا ليحرقوا جدار أهل الطائف، فأرسلت عليهم سكك الحديد محماة، فخرجوا من تحتها فرمتهم ثقيف بالنبل فقتلوا منهم رجالاً، فحينئذ أمر رسول الله ﷺ بقطع أعناب ثقيف، فوقع الناس فيها يقطعون»^(٢)، ومن قبل «حرق رسول الله ﷺ نخل بني النضير وقطع، وهي البويرة، فنزلت: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٥]»^(٣).

المثال السابع عشر: من حديث أنس - رضي الله عنه - قال: «بعث رسول الله ﷺ بسيسة عيناً ينظر ما صنعت غير أبي سفيان»^(٤). وأرسلت هوازن رجلاً يتجسس على المسلمين فقتله سلمة بن الأكوع. والقصة بتفاصيلها رواها مسلم^(٥). وأرسل النبي ﷺ محمد بن سلمة ومعه رجلين فقتلوا كعب بن الأشرف لأنه آذى الله ورسوله (تفاصيل القصة رواها الشيخان)^(٦). ومن حديث البراء بن عازب - رضي الله عنه - قال: «بعث رسول الله ﷺ رهطاً إلى أبي رافع، فدخل عليه عبد الله بن عتيك بيته ليلاً وهو نائم فقتله»^(٧). ومن حديث عبد الله بن أنيس - رضي الله عنه - قال: «دعاني رسول الله ﷺ فقال: إنه قد بلغني أن خالد بن سفيان بن نبيح يجمع لي الناس ليغزوني، وهو بعُرنه،

(١) رواه البخاري. انظر: فتح الباري، ابن حجر، (٧ / ٣٩٩)، رقم ٤١٠٦.

(٢) السيرة النبوية، ابن كثير، (٣ / ٦٥٨).

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٤٣٩، رقم ١١٤٠.

(٤) صحيح مسلم، (٣ / ١٥١٠)، رقم ١٩٠١.

(٥) صحيح مسلم، (٣ / ١٣٧٤)، رقم ١٧٥٤.

(٦) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٤٦٧، ٤٦٨، رقم ١١٧٩.

(٧) فتح الباري، ابن حجر، (٧ / ٣٤٠)، رقم ٤٠٣٨.

فأته فاقتله . . .»، فذهب إليه قال: «فمشيت معه شيئاً حتى إذا أمكنني حملت عليه بالسيف حتى قتلته . . .»^(١). وروى أبو هريرة - رضي الله عنه - قصة اجتماع مائة من المشركين على عشرة من أصحاب النبي ﷺ في الرجيع، وقتلهم بعضاً منهم، وأسروهم خبيباً - رضي الله عنه - ثم قتلهم إياه (القصة بتمامها رواها البخاري)^(٢). ومن حديث أنس - رضي الله عنه - قال: «إن رجلاً وذكوان وعصية وبني لحيان استمدوا رسول الله ﷺ على عدو، فأمدهم بسبعين من الأنصار، كنا نسميهم القراء في زمانهم، كانوا يحتطبون بالنهار ويصلّون بالليل، حتى كانوا يبئّر معونة قتلوهم وغدروا بهم»^(٣).

المثال الثامن عشر: الموقف من النصارى، ذكرناه في المقاصد بما يغني عن الإعادة.

المثال التاسع عشر: صلح الحديبية، من حديث «المسور بن مخرمة ومروان ابن الحكم»: «... باسمك اللهم، هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله وسهيل ابن عمرو: على وضع الحرب عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض؛ على أنه من أتى رسول الله ﷺ من أصحابه بغير إذن وليه رده عليهم، ومن أتى قريشاً ممن مع رسول الله ﷺ لم يردوه عليه، وأن بيننا عيبة مكفوفة، وأنه لا إسلال، ولا إغلال، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد ﷺ وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وأنك ترجع عنا عامنا هذا، فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك، فتدخلها بأصحابك، وأقمت فيها ثلاثاً، معك سلاح الراكب، لا تدخلها بغير السيوف في القرب»، هذا لفظ مسند الإمام أحمد، وبعضه عند البخاري^(٤). وقد جاءت

(١) سنن أبي داود، رقم ١٢٤٩، وإسناده حسن.

(٢) فتح الباري، ابن حجر، (٧ / ٣٠٨، ٣٠٩)، رقم ٣٩٨٩.

(٣) هذا لفظ البخاري، فتح الباري، ابن حجر، (٧ / ٣٨٥)، رقم ٤٠٩٠، وانظر: صحيح مسلم، (١ / ٤٦٨)، رقم ٦٧٧.

(٤) مسند أحمد، (٤ / ٣٢٥)، فتح الباري، ابن حجر، (٥ / ٣٢٩)، رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢.

بعض هذه الشروط من حديث البراء بن عازب عند البخاري ومسلم، ومن حديث أنس عند مسلم، ومن حديث ابن عمر عند البخاري^(١). «فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن في عقد رسول الله ﷺ وعهده. وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم...»^(٢). وفي هذه الغزوة حصلت بيعة الرضوان التي قال الله - تعالى - فيها: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

المثال العشرون: من حديث مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة في الصحيح: «... فجاء أبو بصير فقال: يا نبي الله، قد والله! أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم، ثم أنجاني الله منهم، فقال النبي ﷺ: ويل أمه! مسعر حرب لو كان له أحد. فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر. قال: وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله! لا يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل، فمن أتاه فهو آمن، فأرسل النبي ﷺ إليهم، فأرسل الله - عز وجل -: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَّنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٢٤]»^(٣).

المثال الحادي والعشرون: من حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه -: «أن النبي ﷺ كتب إلى كسرى وإلى قيصر وإلى النجاشي وإلى كل جبار، يدعوهم

(١) من حديث البراء بن عازب، فتح الباري، ابن حجر، (٥ / ٣٠٤)، رقم ٢٧٠٠، وصحيح مسلم، (٣ / ١٤١٠)، رقم ١٧٨٣، ومن حديث أنس: صحيح مسلم، (٣ / ١٤١١)، رقم ١٧٤٨. ومن حديث ابن عمر عند البخاري، فتح الباري، ابن حجر، (٧ / ٤٩٩)، رقم ٤٢٥٢.

(٢) مسند أحمد، (٤ / ٣٢٥).

(٣) رواه البخاري، انظر: فتح الباري، ابن حجر، (٥ / ٣٣٢، ٣٣٣)، رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢.

إلى الله تعالى، وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي ﷺ^(١). وقد حمل دحية الكلبي الكتاب إلى هرقل، وحمل عبد الله بن حذافة السهمي الكتاب إلى كسرى عن طريق عظيم البحرين، فمزق كسرى كتاب رسول الله ﷺ «فدعا عليهم رسول الله ﷺ أن يُمزقوا كل ممزق»^(٢).

وحمل حاطب بن أبي بلتعة كتاب النبي ﷺ إلى المقوقس صاحب الإسكندرية، فقبل الكتاب وأكرم حاطباً وأهدى للنبي ﷺ كسوة وبغلة بسرجهما وخادمتين؛ إحداهما أم إبراهيم، وأما الأخرى فوهبها رسول الله ﷺ لجهم بن قيس العبدي، فهي أم زكريا بن جهم الذي كان خليفة عمرو بن العاص على مصر (مرسل وله شواهد)^(٣).

المثال الثاني والعشرون: أرسل النبي ﷺ إلى اليمن خالد بن الوليد، ثم أتبعه بعلي بن أبي طالب، ثم بعث إليها أبا موسى الأشعري، ثم أتبعه معاذ بن جبل. كما بعث النبي ﷺ المهاجر بن أبي أمية بن المغيرة إلى صنعاء، وزباد بن لبيد الأنصاري إلى حضرموت، وعدي بن حاتم إلى طيء وبني أسد، ومالك بن نويرة اليربوعي إلى بني حنظلة، والزبرقان بن بدر إلى ناحية من بني سعد، وقيس ابن عاصم إلى ناحية أخرى من بني سعد، والعلاء بن الحضرمي إلى البحرين، ثم أبان بن سعيد بن العاص وعلي بن أبي طالب إلى نجران؛ بعد أن أرسل مع وفد نجران عمراً بن حزم أميراً عليهم ليفقههم في الدين ويعلمهم الإسلام، ويأخذ منهم صدقاتهم، وكتب له كتاباً عهد إليه فيه عهده^(٤)، وأمر أبا بكر - رضي الله عنه - على الحج في العام التاسع، وأمر عثمان بن أبي العاص الثقفي على ثقيف،

(١) صحيح مسلم، (٣ / ١٣٩٧)، رقم ١٧٧٤.

(٢) رواه البخاري، انظر: فتح الباري، ابن حجر، (١ / ١٥٤)، رقم ٦٤.

(٣) رواه البيهقي في الدلائل، (٤ / ٣٩٥)، من رواية ابن إسحاق ورجال إسناده ثقات، وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث.

(٤) أطلس السيرة النبوية، د. شوقي أبو خليل، ص ٢٣٠.

وأمر خالد بن الوليد على رجال لهدم اللات؛ منهم المغيرة بن شعبة، فهدموها وسووها بالأرض وحفروا أساسها، وأتوا بحليها ولباسها إلى النبي ﷺ^(١).

المثال الثالث والعشرون: بعد انتصار النبي ﷺ على قريش وهوازن وغزوه الروم في تبوك وإسلام ثقيف؛ جاءت إليه الوفود من جميع الأنحاء، وكان معظمها في العام التاسع من الهجرة، فسُمي عام الوفود، حيث بلغت أكثر من سبعين وفداً.

المثال الرابع والعشرون: عن عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ إلى قوله: ﴿غُفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المتحنة: ١٢]، قال عروة: قالت عائشة - رضي الله عنها -: «فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات؛ قال لها رسول الله ﷺ: قد بايعتك. كلاماً، ولا والله! ما مست يده يد امرأة قط في المبايعة، ما يبايعهن إلا بقوله: قد بايعتك على ذلك»^(٢).

المثال الخامس والعشرون: في العام العاشر للهجرة حج النبي ﷺ حجة الوداع، فخطب الناس وقال: «إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث؛ كان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هذيل، وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربانا ربا العباس بن عبد المطلب؛ فإنه موضوع كله. فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله . . . وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به؛ كتاب الله . . .»^(٣).

(١) الرحيق المختوم، المباركفوري، ص ٥٠٥.

(٢) رواه البخاري، انظر: فتح الباري، ابن حجر، (٨ / ٦٣٦)، رقم ٤٨٩١.

(٣) صحيح مسلم، (٢ / ٨٨٩، ٨٩٠)، رقم ١٢١٨.

المثال السادس والعشرون: قال - تعالى -: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، قال أسباط عن السدي: «نزلت هذه الآية يوم عرفة - في حجة الوداع - فلم ينزل بعدها حلال ولا حرام، ورجع رسول الله ﷺ فمات»، قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «هذه أكبر نعم الله - عز وجل - على هذه الأمة، حيث أكمل - تعالى - لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيهم، صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا جعله الله خاتم الأنبياء، وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلال إلا ما أحله، ولا حرام إلا ما حرمه، ولا دين إلا ما شرعه، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق، لا كذب فيه ولا خلف»^(١).

المثال السابع والعشرون: لما حضرت النبي ﷺ الوفاة قال: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد. تقول عائشة: يحذر مثل الذي صنعوا»^(٢). ومن حديث أبي عبيدة بن الجراح - رضي الله عنه - قال: «آخر ما تكلم به النبي ﷺ: «أخرجوا يهود أهل الحجاز، وأهل نجران من جزيرة العرب، واعلموا أن شرار الناس الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»^(٣).

ومن حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه -: «أن أبا بكر كان يصلي لهم في وجع رسول الله ﷺ الذي توفي فيه، حتى إذا كان يوم الاثنين، وهم صفوف في الصلاة، كشف رسول الله ﷺ ستر الحجر، فنظر إلينا وهو قائم، كأن وجهه ورقة مصحف (أي في جماله وحسنه وبريقه)، ثم تبسم رسول الله ﷺ ضاحكاً، قال: فُبُهْتنا ونحن في الصلاة من فرح بخروج رسول الله ﷺ... قال: ثم دخل رسول الله ﷺ، ثم أرخى الستر. قال: فتوفي رسول الله ﷺ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (٣ / ٢٦).

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٨٧، رقم ٢٤٠.

(٣) مسند أحمد، (١ / ١٩٥)، أبو يعلى، رقم ٨٧٢، بسند صحيح.

من يومه ذلك»^(١).

وبعد، من خلال الأمثلة السابقة يتبين لنا أن التدافع في الوسائل بين معسكر الإيمان ومعسكرات الكفر قد أخذ مداه واستطالت رقعته، وأن هذا التدافع كان مثل مرحلة قطف ثمرات التدافع في العهد المكي؛ غير أن قطف هذه الثمرات احتاج إلى جهود مضنية وحروب قاسية وسياسات راسية. وقد لاحظنا من خلال الأمثلة كيف تدافعت أقصى الطاقات الإيمانية مع أقصى الطاقات الشريكية، وكيف اتسعت دائرة الصراع شيئاً فشيئاً لتأخذ طابع المواجهة الشاملة العالمية الإسلامية والعولمة الشريكية.

وكما فرزنا وسائل التدافع بين الطرفين في العهد المكي؛ كذلك سنفعله هنا، أي في العهد المدني، ونسوق ذلك على الوجه الآتي؛ مستدلين عليها بما ذكرناه من الأمثلة:

أولاً: وسائل الدفع النبوي في العهد المدني:

- ١ - تأسيس الدولة وممارسة الحكم (جميع الأمثلة).
- ٢ - إتاحة مجال التعبير الشعبي عن تأييده للدولة (الأمثلة: ١، ١٠، ١٩، ٢٣).
- ٣ - توطيد التآخي بين المؤمنين وشد أزر لحمة الجبهة الداخلية (الأمثلة: ٢، ٣).
- ٤ - تطهير المدينة من اليهود باعتبارهم داء عقدياً وسلوكياً؛ مع مراعاة التدرج في ذلك (الأمثلة: ٤، ١١).
- ٥ - التوصية بتطهير جزيرة العرب من اليهود والنصارى (الأمثلة: ١١، ٢٧).

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ١٠٧، رقم ٣٠٨.

- ٦ - تأسيس المسجد النبوي واعتباره منطلقاً لإدارة الدولة (مثال ٢).
- ٧ - رفع الأذان للصلاة لتأكيد معنى «الله أكبر» في مجمل حياة المسلمين (مثال ٥).
- ٨ - الحذر من المنافقين وفضحهم مع مراعاة تغليب المصلحة الإسلامية في طريقة التعامل معهم (مثال ١٢).
- ٩ - الجهاد في سبيل الله بنوعيه: الدفع والمبادرة (مثال: ٦، ١٠، ١١، ١٩).
- ١٠ - وجوب طاعة الأمير إلا في معصية (مثال ٨).
- ١١ - التدريب العسكري ومن أهمه الرمي (مثال ٩).
- ١٢ - تنفيذ الحدود لإقامة العدل وضمان الأمن الاجتماعي (مثال ١٣).
- ١٣ - تصنيف الأعداء بحسب معتقداتهم وتقاسيمهم ومراتب مواقفهم من الدعوة وبيان طريقة التعامل مع كل منهم بحسب ذلك.
- ١٤ - الدعوة إلى الإسلام أصل، والجهاد وسيلة من الوسائل، وهو لمن يرفض الاستجابة للدعوة أو يرفض دفع الجزية؛ ممن ليس له عقد صلح أو أمان أو هدنة أو عهد (مثال ٧).
- ١٥ - الملاعنة مع النصاري أو غيرهم وسيلة تحد، وليست بديلاً للبلاغ أو البيان أو الجهاد (مثال ١٨).
- ١٦ - استعمال الخدعة في الحرب (مثال ٧).
- ١٧ - بث الأمل في الأمة وإشاعة البشري فيها (مثال ١٥).
- ١٨ - مواكبة العصر في وسائله - المشروعة - (مثال ١٦).
- ١٩ - بث العيون وجمع المعلومات عن العدو (جهاز الاستخبارات) (مثال ١٧).

- ٢٠ - الصلح المؤقت مع العدو إذا كانت المصلحة غالبية (مثال ١٩) .
- ٢١ - الذين لا يخضعون لسلطة الدولة الإسلامية ؛ لا يلزمهم ما يلزم الدولة الإسلامية من معاهدات وعقود وسواها مما تعقده مع الأعداء (مثال ٢٠) .
- ٢٢ - الكتب والرسائل والمبتعثون إلى الزعماء والرؤساء والأمراء والملوك ، كل ذلك وسائل من وسائل الدعوة التي تقوم بها الحجة (مثال ٢١) .
- ٢٣ - استقبال الوفود الخارجية لإبلاغها الدعوة وما يترتب عليها من مسؤوليات وتبعات إزاء نفسها والدولة (مثال ٢٣) .
- ٢٤ - المرأة لها مكانتها ودورها في المجتمع المسلم ، وأخذ البيعة منها تأكيد لذلك (مثال ٢٤) .
- ٢٥ - إعلام الأمة بإكمال الدين (مثال ٢٥) .
- ٢٦ - أهمية الدعاء (مثال ١٠) .
- ٢٧ - الصبر بأنواعه (جميع الأمثلة) .
- ٢٨ - أخذ زمام المبادرة في معظم المواقف ؛ وخاصة بعد غزوة الخندق .
- ٢٩ - التصفية الجسدية لبعض رؤوس الكفر (مثال ١٧) .
- ٣٠ - شن الحرب الاقتصادية (مثال ١٧ ، ٢٠) .
- ٣١ - الحصار (مثال ١٠ : في غزوة ثقيف) .
- ٣٢ - الحفاظ على وحدة المسلمين بعد وفاة النبي ﷺ ، وذلك بالإشارة إلى الخليفة من بعده وهو أبو بكر الصديق تلميحاً وليس تصريحاً .
- وقد تَضَمَّنَت الخطوط العريضة لوسائل الدفع النبوي في العهد المدني الجوانب الإدارية والسياسية والمالية والعسكرية والتربوية والإعلامية والدعوية

والإنسانية والعلمية والتنموية وغيرها، وذلك بشكل متجانس ومتناغم، وضمن أسلوب اضطراذي يخدم وجهة مواصلة اتساع دائرة العالمية الإسلامية مع الزمن؛ مستفيداً في ذلك من جميع جهود النسيج الاجتماعي من الرجال والنساء بكل مراحلهم العمرية، مختطاً بهم منهجاً محدداً وواضحاً هو الكتاب والسنة، وبذلك اكتملت عناصر التفوق الإسلامي، وهي: القيادة الراشدة، والهدف السامي، والمنهج الرباني، والأتباع المؤمنون.

ثانياً: وسائل الدفع الكفري والنفاقي في العهد المدني:

- ١ - استجماع الجهود وجمع الحشود لمحاربة النبي ﷺ (مثال ١٠).
- ٢ - محاولة أخذ زمام المبادرة في بعض المواقف (مثال ١٠ : غزوة أحد وغزوة حنين).
- ٣ - التنسيق مع اليهود (مثال ١٠ : غزوة الأحزاب).
- ٤ - عقد التحالفات ضد النبي ﷺ (مثال ١٩ : التحالف مع بني بكر).
- ٥ - محاولة اغتيال النبي ﷺ (مثال ١١ : بنو النضير وخيبر، مثال ١٢ : تبوك).
- ٦ - التجسس والتحسس (مثال ١٧).
- ٧ - محاولات اختراق الجبهة الداخلية للمسلمين (مثال ١٢).
- ٨ - السعي للحصول على تنازلات من الرسول ﷺ (مثال ٢٣ : وفد ثقيف).
- ٩ - انتهاز الفرص للتشكيك في مصداقية الرسول ﷺ (مثال ٢١ : مقابلة أبي سفيان لهرقل عظيم الروم).
- ١٠ - التشفي بقتل بعض أسارى المسلمين وبالتمثيل بجثث المسلمين (مثال

- ١٧ : قتل خبيب رضي الله عنه ، مثال ١٠ : غزوة أحد) .
- ١١ - الموافقة على الصلح للاستفادة من مدة الهدنة (مثال ١٩) .
- ١٢ - السعي لتغيير بعض بنود الصلح التي تبين أنها ليست في مصلحة المشركين (مثال ١٩) .
- ١٣ - الإصرار على العقيدة الفاسدة (وفد نجران) .
- ١٤ - الإصرار على تحريف التوراة (مثال : ورود النبي ﷺ على اليهود في مدارسهم) .
- ١٥ - تكذيب النبي ﷺ فيما أرسل به (شمل ذلك المشركين واليهود والنصارى) .
- ١٦ - الحصار (مثال ١٠ : غزوة الخندق) .
- ١٧ - الاستكبار (مثال ٢٢ : تمزيق كسرى كتاب النبي ﷺ) .
- ١٨ - نقض العهود (مثال ١١ : بنو قريظة ، مثال ١٩ : صلح الحديبية) .
- ١٩ - الغدر (مثال ١٩ : غدر بني بكر حلفاء قريش ببني خزاعة حلفاء الرسول ﷺ) .
- ٢٠ - الإصرار على الانتصار تأكيداً لتمسكهم بالباطل (مثال ١٠ : غزوة أحد ، صلح الحديبية) .

وقفات مع التدافع في العهد المدني:

- بعد أن ذكرت معظم عناصر التدافع في العهد المدني بين الطرفين المتصارعين (طرف الإيمان وطرف الكفر) ؛ أود أن أسجل الوقفات الآتية :
- ١ - الوقفات من (١) إلى (٧) التي سجلناها في الوقفات في العهد المكي ،

هي نفسها نسجلها هنا؛ أي في العهد المدني .

٢ - اتسم التدافع - في معظمه - في هذه المرحلة بالشدة المتبادلة بين الطرفين؛ من جهة المسلمين كانت جهاداً، ومن قبل المشركين كانت قتالاً .

٣ - الدفع من جهة المسلمين كان منطلقاً من مفهوم دفع من خلال كيان مستقل؛ أي دولة بلغة العصر، أي رئيس وشعب وقرار، مع حدود جغرافية مرنة تتوسع بحسب ما يحرزه الدفع من مكتسبات حقيقية على الأرض، يقابله دفع من جهة المشركين له الخصائص نفسها، مع حدود جغرافية تقلصت مع تراجع قوة الدفع لديهم، إلى أن انتهت بهيمنة الإسلام على كل جزيرة العرب تقريباً .

٤ - كانت القوة المكتنزة في الدفع النبوي (التي تحولت إلى دفع إسلامي بعد وفاة النبي ﷺ) كبيرة جداً، حيث بلغت من الشدة أنها استطاعت أن تصفي جميع جيوب «الردة» في وقت قياسي لم يتجاوز ستين ونصف السنة في عهد الخليفة الأول، ثم ما لبثت أن اجتاحت الإمبراطوريتين العظيمين؛ إمبراطورية الفرس وإمبراطورية الروم، ثم واصلت اندفاعها في كل اتجاهات الأرض في عهد الخليفة الثاني، ومن بعده من الخلفاء والأمراء، حتى بلغت أقاصي الدنيا .

٥ - تميز الدفع النبوي في العهد المدني بشمولية المشاركة في المواجهات الكبرى، حيث كان الجند النبوي مكوناً من الإنس والملائكة والخليقة . فأما الإنس فبقيادته ﷺ، وأما الملائكة فبقيادة جبريل عليه السلام، وأما الخليقة فبتسخير من الله تعالى . وقد هيأ الله - عز وجل - هؤلاء الجند ليكون لهم جميعاً شرف إعلاء كلمة الله - تعالى - في الأرض، وقد أنزل الله - تعالى - آيات كريمات تبين ذلك؛ فمنها:

- في غزوة بدر: قال الله - تعالى - عن مشاركة الملائكة: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩]، وقال - تعالى -:

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاصْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢]، وقال - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٢٣) ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٣ - ١٢٤]. وعن إشراك جند الخليفة في غزوة بدر قال - تعالى -: ﴿إِذْ يَغْشِيكُمْ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١]، وقال - تعالى -: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [الأنفال: ١٢]، ومن حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «أخذتهم ريح عقيم يوم بدر» (١).

- وفي غزوة أحد: قال الله - تعالى - عن إشراك الملائكة: ﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥]، فمن قال إن المقصود هو غزوة أحد؛ قال إن هذا وعد فيما لو صبروا، لكنهم فروا فلم يمدوا بملك واحد. هذا قول مجاهد وعكرمة والضحاك والزهري وغيرهم (٢). لكن يُستدرك عليهم بحديث سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - قال: «رأيت رجلين عن يمين رسول الله ﷺ ويساره يوم أحد عليهما ثياب بيض، يقاتلون عنه كأشد القتال ما رأيتهما قبل ولا بعد» (٣).

ومن حديث جابر بن عبد الله عندما بكى مقتل أبيه في أحد، قال له رسول الله ﷺ: «تبكيه أو لا تبكيه؛ ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه» (٤). وعن إشراك جند الخليفة قال - تعالى -: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ

(١) رواه البزار، ورجاله ثقات، انظر: مجمع الزوائد، الهيثمي، (٦ / ٧٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (٢ / ١١٣).

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٦٠٧، رقم، ١٤٨٨.

(٤) المرجع السابق، ص ٦٦٧، رقم ١٦٠٦، واللفظ لمسلم، انظر: صحيح مسلم، (٤ / ١٩١٨)، رقم ٢٤٧١.

الْعَمَّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴿[آل عمران: ١٥٤]، عن أبي طلحة قال: «غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد، قال: فجعل سيفي يسقط من يدي وأخذه يسقط وأخذه»^(١)، وقال - تعالى -: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [آل عمران: ١٥١]، وهذه في غزوة أحد حيث هُزم المشركون ابتداءً، لكن انقلب الحال عندما حصل نزول معظم الرماة من على الجبل يتغنون المغانم فزال الرعب عن المشركين، قال - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، هذا في الحالة الأولى، ثم قال: ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِّنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، وهذا في المرحلة اللاحقة.

- وفي غزوة النضير: قال الله - تعالى -: ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ [الحشر: ٢].

- وفي غزوة الأحزاب: أرسل الله - تعالى - جنده من الملائكة والخليقة لينصروا المؤمنين، قال - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩]، فأما الريح فهي ريح الصبا؛ كما جاء في حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأُهْلِكْتُ عَادَ بِالْدُبُورِ»^(٢). قال عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما -: «أرسلني خالي عثمان بن مظعون ليلة الخندق في برد شديد وريح إلى المدينة... قال: فذهبت والريح تسفي كل شيء»^(٣). ومن حديث حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - قال: «لقد

(١) رواه البخاري، انظر: فتح الباري، ابن حجر، (٧ / ٣٦٥)، رقم ٤٠٦٨.

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ١٧٥، رقم ٥١٩.

(٣) رواه ابن جرير، انظر: تفسير الطبري، ابن جرير، (٢١ / ٨٠).

رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب في ليلة ذات ريح شديدة وقر...»^(١)، وأما الملائكة فقد «زلزلتهم وألقت في قلوبهم الرعب والخوف»^(٢)، وقد جاء من حديث عائشة - رضي الله تعالى عنها - قالت: «لما رجع النبي ﷺ من الخندق ووضع السلاح واغتسل أتاه جبريل - عليه السلام - فقال: قد وضعت السلاح!! والله ما وضعناه! فاخرج إليهم. قال: إلى أين؟! قال: ها هنا. وأشار إلى قريظة، فخرج النبي ﷺ إليها»^(٣). وفيه دليل على تأييد الملائكة للمسلمين في الخندق وغزوة بني قريظة، ويدل عليه ما جاء في حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: «كأنني أنظر إلى الغبار ساطعاً في زقاق بني غنم موكب جبريل حين سار رسول الله ﷺ إلى بني قريظة»^(٤). ويؤيده أن الآيات المنزلة في غزوة الخندق وبني قريظة جاءت في سياق واحد، وقد أيد الله - تعالى - المؤمنين في هذه الغزوة بقذفه الرعب في قلوب يهود بني قريظة، قال - تعالى -: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ [الأحزاب: ٢٦]، وهكذا حصل في كثير من الغزوات (وأترك استقصاء ذلك للقارئ إن أحب).

٦ - اتَّسم التدافع في مجموعه (المكي والمدني) بشمولية احتوائه على أنواع التدافع كلها؛ بحيث يصح وصفه بـ «التدافع التام الجامع»، فقد كان تدافعاً مادياً ومعنوياً في كل شيء مما له علاقة بالحياة الإنسانية من إنس وجن وملائكة وجماد ومشاعر وأحاسيس؛ بما شكّل في مجموعه لوحة حركية مثالية زاخرة استوعبت في عمقها الزمني البالغ ثلاثة وعشرين عاماً احتياجات البشرية إلى قيام الساعة؛

(١) صحيح مسلم، (٣ / ١٤١٤)، رقم ١٧٨٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (٦ / ٣٨٥).

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٤٥٣، رقم ١١٥٩.

واللفظ للبخاري، فتح الباري ابن حجر، (٧ / ٤٠٧)، رقم ٤١١٧.

(٤) رواه البخاري، انظر: فتح الباري، ابن حجر، (٧ / ٤٠٧)، رقم ٤١١٨.

عاماً فيما تحتاج إليه بالعموم، ومفصلاً فيما تحتاج إليه بالتفصيل، وذلك في سياق نبوي رسالي مندرج في اتباع وحي رباني إلهي، جعل من هذه اللوحة الحياتية العامرة موقع القدوة البشرية عبر تتابع الزمان وامتداد المكان، قال - تعالى -: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، فأيا قوم في أي زمان وفي أي مكان وفي أي ظرف فإنهم سيجدون لهم في هذه اللوحة، في زمان ما منها أو في أكثر من زمان، وفي مكان ما منها أو في أكثر من مكان، ما يستهدون به إلى الحق والصواب.

٧ - احتوت اللوحة النابضة للتدافع في مسيرة الدعوة كثيراً من أنواع المعاناة والمصابرة؛ تَضَمَّنَتِ الجوع والعطش والخوف والسجن والتعذيب وهتك الأعراض والقذف بالفاحشة والحصار وهجرة الأوطان والأرحام والأموال والتضحية بالنفس والمساكن والتجارات والضياع والبساتين والثمار، وتَضَمَّنَتِ سهر التهجد، والحراسة، والسري، وصوم النهار، ومكابدة الحر والقر وعواصف الرياح، والصبر على الجراحات والأسر وفواجع الحروب من قتل وتمثيل وتدمير وتيتيم وترميل وترقُب وتوجُّس وتقنيط وتيئس، وصبر على مكاييد المنافقين واليهود والنصارى، وتجسيد جسيم لمعاني الولاء والبراء؛ حصل بسببه تقاتل الإخوان والأبناء والآباء والأقارب والأصحاب وأهل القبائل وذوي الأنساب.

٨ - كما احتوت اللوحة النابضة للتدافع في مسيرة الدعوة النبوية المباركة على كثير من إشراقات الفضائل وجلائل الأعمال؛ تَضَمَّنَتِ كثيراً جداً من فيوضات دلائل النبوة وبركاتها، كما تَضَمَّنَتِ ألواناً من الكرامات الباهرة لصحابته الأبرار. وأما أنواع السمائل الكريمة والخصال الحميدة من مثل الجهاد والشجاعة والإقدام والاستبسال والكرم والمروءة والعفة والشهامة والإيثار والتضحية والفداء والصبر والتحابب والتآخي والعفو والصفح والغيرة والمثابرة والمبادرة والتبشير والزهد والعبادة والتصدق والوفاء والرضا عن الله والتسابق في المكارم

والتنافس في الفضائل والتواصي بالحق والتناصح والترابط واتباع النبي ﷺ في المنشط والمكره والإيمان العميق بما أخبرهم به والأمر بالعرف والإعراض عن الجاهلين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والفحشاء . . وغيرها كثير؛ فحدث ولا حرج!!

٩ - رغم شدة التدافع وقسوته وحدته وشموليته؛ فقد حافظ الرسول ﷺ على سمات النبوة في جميع أحواله، وقد تضمن سمته - عليه الصلاة والسلام - قسّمات النبوة وجلالها في محيّاها في حله وترحاله وفي حربه وسلمه وفي إغلاظه ولينه وفي غضبه وانبساطه وفي تعامله وفي خاصة نفسه بل في كل شأن من شؤون حياته، فاستحق بذلك المدح الإلهي والثناء الرباني، فكان بحق أسوة لأمتّه في صياغة جميع أمورهم خلال تدافعهم مع أعدائهم، قال - تعالى -: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وقال - تعالى -: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال - تعالى -: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال - تعالى -: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وآيات أخرى، وأحاديث عدة.

١٠ - إن الصحابة الذين قاموا بهذا التدافع مع النبي ﷺ في نسق من الأداء المضني؛ قاموا به أحسن قيام وأدّوه على خير وجه، فاستحقوا أن ينالوا مدح الله - تعالى - لهم وتزكيته لأفعالهم، فكما كان النبي ﷺ قدوة لأمته كلها؛ فإن مجمل الأداء الجليل لصحابته - رضي الله عنهم - استحق أن يكون محل نظر الإكبار وجميل الاعتبار لكل الأجيال من بعدهم، قال - تعالى -: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ

وَرَضُونَا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوْقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴿٢٩﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال - تعالى -: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]، وقال - تعالى -: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال - تعالى -: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [١٧٢] الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ [آل عمران: ١٧٢ - ١٧٣]، وآيات أخرى كثيرة، ومن حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فو الذي نفسي بيده! لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»^(١).

١١ - اتسمت قرارات الرسول ﷺ - في كثير منها، وخاصة عند احتدام التدافع - بروح التشاور؛ تأكيداً لمعنى جماعية القرار، وتجسيداً للمشاركة في مسؤوليته، وقد نزل الوحي بآيات بينات جعلت من الشورى أصلاً مكيناً من أصول الحكم، وخلقاً راسخاً من أخلاق التعامل، قال - تعالى -: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال - تعالى -: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]، وقال - تعالى -: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ [البقرة: ٢٣٣]، وقد شاور النبي ﷺ أصحابه في المدينة في غير قريش قبل الخروج إلى بدر، وقد ورد من حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ شاور أصحابه حين بلغه إقبال أبي سفيان، قال: «فتكلم أبو بكر فأعرض عنه، ثم تكلم عمر فأعرض عنه...» الحديث^(٢). وشاورهم مرة ثانية عندما خرجت

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٦٩٠، رقم ١٦٤٩.

(٢) صحيح مسلم، ص ١٤٠٣، رقم ١٧٧٩.

قريش لمنع غيرها. وقد ورد من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - قال «...». وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم يمنعوا غيرهم، فاستشار الناس... الحديث، وفيه: «ثم قال رسول الله ﷺ: أشيروا عليَّ أيها الناس!...»^(١). قال ابن كثير: «وشاورهم أين يكون المنزل - أي يوم بدر -، وشاورهم في أحد في أن يقعد في المدينة أو يخرج إلى العدو...، وشاورهم يوم الخندق في مصلحة الأحزاب بثلاث ثمار المدينة... وشاورهم يوم الحديبية في أن يميل على ذراري المشركين... فكان يشاورهم في الحروب ونحوها»^(٢). وقد أخذ النبي ﷺ بما أشارت عليه به أم سلمة - رضي الله عنها - في الحلق والنحر يوم الحديبية (وهي عند البخاري مفصلة)^(٣).

السنن وحسم التدافع في العهد النبوي:

لقد تم حسم التدافع في العهد النبوي بنصر باهر للرسول ﷺ ولصحبه رضي الله عنهم، وذلك لأنهم خلال دفعهم للشرك وأهله أحكموا الأخذ بالأسباب التي أمر الله - تعالى - بها، فكانوا في كل ذلك متسايرين مع اتجاه السنن الربانية في مجمل الحركة العامة، سواء في العهد المكي أو العهد المدني. وأما المشركون فقد كانوا متسايرين مع سنن التعذيب أو الإهلاك، حائدين عن سنن التأييد فاستحقوا الهزيمة والإذلال.

ومن المناسب أن أذكر ما يتعلق بكل طرف من أعمال وأفعال قاداته في النهاية إلى ما انتهى إليه.

(١) سيرة النبي ﷺ، ابن هشام، (٢ / ٢٥٣)، بإسناد صحيح، وقد صرح فيه ابن إسحاق بالسماع، وله شواهد عند البخاري وغيره، وهو في مجمع الزوائد، (٦ / ٧٣)، من رواية الطبراني، قال الهيثمي: إسناده حسن.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، باختصار، (٢ / ١٤٩).

(٣) فتح الباري، ابن حجر، (٥ / ٣٣٢)، رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢.

أولاً: أعمال المشركين وأهل الكتاب التي عاكسوا أو خالفوا فيها اتجاه السنن:

إن لله - تعالى - سنناً في أخذه لأعدائه وأعداء رسله وأوليائه، وهذه السنن جارية بحسب ما يقترفونه من أعمال وما يجترحونه من طامات وموبقات .

ولأجل الاختصار؛ فإنني سأذكر عنواناً لكل ذنب مما كان عليه المشركون، ثم أذكر آية أو آيات من القرآن الكريم تدل على وقوع ذلك الذنب منهم، وأذكر في بعضها سنة الله - تعالى - فيمن وقع منه ذلك الذنب، وهذه الذنوب قد وقعت من مشركي العرب وغير العرب أو من اليهود أو النصارى أو سواهم . وهذه أمثلة ذلك :

١ - الكفر والصد عن سبيل الله : قال - تعالى - : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعْدَبَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ [آل عمران : ٥٦] ، وقال - تعالى - : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٦] ، وقال - تعالى - : ﴿ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [الحج : ٤٤] ، وقال - تعالى - : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد : ١] ، فسنة الله - تعالى - في الكافرين هي العذاب الشديد والحسرة على إنفاق الأموال ، وإيقاع الهزيمة بهم واستدراجهم وإضلال أعمالهم .

٢ - الشرك : قال - تعالى - : ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾ [آل عمران : ١٥١] ، وقال - تعالى - : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء : ٤٨] ، وقال - تعالى - : ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ [التوبة : ٢٨] ، وقال - تعالى - : ﴿ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّشْرِكِينَ ﴾ [الروم : ٤٢] ، وقال - تعالى - : ﴿ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ﴾ [المائدة : ٧٢] ، وقال - تعالى - : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ [البينة : ٦] ، وقال - تعالى - : ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ﴾ [الأحزاب : ٧٣] .

٣ - تأليه غير الله - تعالى - : وهذا أعم من الشرك ، فإنه تأليه بشر ، وبغير شرك ، قال - تعالى - : ﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [٣٣] إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا آلِهَتَنَا لَشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴿ [الصفات : ٣٣ - ٣٦] ، وقال - تعالى - : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ [هود : ١٠١] ، وقال - تعالى - : ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المؤمنون : ١١٧] .

٤ - الاستكبار : قال - تعالى - : ﴿ وَيَلْ لَّكُلِّ أَفَّاكَ أَثِيمٌ ﴾ [يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصير مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم] [الجنات : ٧ - ٨] ، وقال - تعالى - : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنِ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ [٤٢] اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرُ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ [فاطر : ٤٢ - ٤٣] .

٥ - الافتراء على الله - تعالى - : والتقول عليه بغير الحق وبغير علم ، قال - تعالى - : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام : ٩٣] ، وقال - تعالى - : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [٣٣] وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٣ - ٣٤] .

٦ - كتمان الحق : قال - تعالى - : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٩] .

قال ابن كثير: «هذا وعيد شديد لمن كتم ما جاءت به الرسل من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة والهدى النافع للقلوب؛ من بعد ما بينه الله - تعالى - لعباده في كتبه التي أنزلها على رسله، قال أبو العالية: نزلت في أهل الكتاب، كتموا صفة محمد ﷺ . . .»^(١)، وقال - تعالى -: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٤٠]، وهي في أهل الكتاب، وتناولهم سنة الله - تعالى - في الظالمين - على ما سيأتي - .

٧ - الظلم: قال - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ [يونس: ١٣]، وقال - تعالى -: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، وقال - تعالى -: ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾ (٤٥) ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ (٤٦) ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: ٤٥ - ٤٧] .

٨ - الذنوب: قال - تعالى -: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦]، وقال - تعالى -: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠] .

٩ - البطر: قال - تعالى -: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨] .

١٠ - البطش: قال - تعالى -: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: ٨]، وقال - تعالى -: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (١ / ٤٧٢) .

فَقَبُّوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَّحِيصٍ ﴿ [ق: ٣٦] .

١١ - الغرور: قال - تعالى -: ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴾ [الملك: ٢٠] ، وقال - تعالى -: ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا ﴾ [الأنعام: ٧٠] .

١٢ - الإجماع: قال - تعالى -: ﴿ وَلَا يَرُدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [يوسف: ١١٠] ، وقال - تعالى -: ﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ [السجدة: ٢٢] ، وقال - تعالى -: ﴿ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٤] ، وقال - تعالى -: ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [الدخان: ٣٧] .

١٣ - المكر: قال - تعالى -: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَارَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٣] ، وقال - تعالى -: ﴿ وَمَكُرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٤] ، وقال - تعالى -: ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٩] .

١٤ - الترف والإسراف: قال - تعالى -: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَانًا وَرَعِيًّا ﴾ [مريم: ٧٤] ، وقال - تعالى -: ﴿ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴾ [١٣] قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٣ - ١٥] .

١٥ - الفسق: قال - تعالى -: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦] ، وقال - تعالى -: ﴿ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الأحقاف: ٣٥] ، وقال - تعالى -: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمْ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٩] .

١٦ - الفساد والإفساد: قال - تعالى -: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٣]، وقال - تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

١٧ - نقض العهد والميثاق: قال - تعالى -: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [٥٥] الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ [٥٦] فَإِذَا تَشَفَّعْنَاهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدْ بِهِمْ مَن خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدَّكُرُونَ [٥٧] وَإِذَا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ [٥٨] وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ [٥٩ - ٥٥]، وقال - تعالى -: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣].

١٨ - قطع ما أمر الله بوصله: قال - تعالى -: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [٢٦] الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ [البقرة: ٢٦ - ٢٧]، وآية (الرعد: ٣٥) التي ذكرناها في (١٦) الفساد والإفساد.

١٩ - الضلال: قال - تعالى -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]، وقال - تعالى -: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان: ٦]، وقال - تعالى -: ﴿وَإِنْ تُطْعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

٢٠ - التولي عن الإيمان: قال - تعالى -: ﴿وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يَعْذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة: ٧٤]، وقال - تعالى -: ﴿وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣]، وقال - تعالى -: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ [٢٢] إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ [٢٣] فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ [الغاشية: ٢٣].

٢٢ - ٢٤] .

٢١ - نسيان ما ذُكِّروا به : قال - تعالى - : ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ [المائدة: ١٤] ، فاستحقوا العذاب ومنه العداوة والبغضاء فيما بينهم ، قال - تعالى - : ﴿ فَأَعْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [المائدة: ١٤] ، وقال - تعالى - : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ [٤٤] فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٤ - ٤٥] .

٢٢ - العتو : قال - تعالى - : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكَرًا ﴾ [٨] فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٨ - ٩] .

٢٣ - العلو والاستعلاء : قال - تعالى - : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَفَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل: ١٤] .

٢٤ - قسوة القلب : قال - تعالى - : ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [٤٣] فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ [٤٤] فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٣ - ٤٥] .

٢٥ - السخرية والاستهزاء : قال - تعالى - : ﴿ وَيْلٌ لَكُمْ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ [٧] يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [٨] وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ [الجنات: ٧ - ٩] ، فمن فعل ذلك كان مستحقاً لنزول العذاب عليه ، قال - تعالى - : ﴿ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠] ، وقال - تعالى - : ﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَى بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَاْمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [الرعد: ٣٢] .

٢٦ - العداوة والعدوان : قال - تعالى - : ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [المائدة : ٨٢] ، ولقد جرت سنة الله - تعالى - فيهم بالإهلاك والهزيمة ، كما ذكرنا ذلك في التدافع في العهد المدني .

٢٧ - التكذيب : قال - تعالى - : ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ ٢٥ ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [فاطر : ٢٥ - ٢٦] ، وقال - تعالى - : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام : ١١] ، وقال - تعالى - : ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهْلُهمْ قَلِيلًا﴾ ١١ ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا﴾ ١٢ ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل : ١١ - ١٣] ، وقال - تعالى - : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل : ١١٦] .

٢٨ - اتباع الهوى : قال - تعالى - : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص : ٥٠] ، وقال - تعالى - : ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام : ٥٦] .

٢٩ - اتباع الشهوات : قال - تعالى - : ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا﴾ [النساء : ٢٧] ، وقال - تعالى - : ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ ٥٣ ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ [سبا : ٥٣ - ٥٤] .

٣٠ - حكم الجاهلية : قال - تعالى - : ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة : ٥٠] ، وقال - تعالى - : ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة : ٤٤] ، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة : ٤٥] ، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة : ٤٧] ، وبيَّنا سنة الله - تعالى - في إهلاك الكافرين والظالمين والفاستقين .

٣١ - الجحود: قال - تعالى -: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٦] .

٣٢ - الإثم: قال - تعالى - ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٠] ، وقال - تعالى -: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٨] ، وقال - تعالى -: ﴿ وَيَلْ لَّكُلِّ أَفَّاكَ أَثِيمٌ ﴾ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الجاثية: ٧ - ٨] .

٣٣ - العصيان: قال - تعالى -: ﴿ وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦] ، وقال - تعالى -: ﴿ وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴾ [الجن: ٢٣] .

٣٤ - المحادة لله ورسوله: قال - تعالى -: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَبِتُوا كَمَا كَبَتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ [المجادلة: ٥] ، وقال - تعالى -: ﴿ وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا ﴾ [النساء: ١٤] .

٣٥ - اتباع سبل الخسران: قال - تعالى -: ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ [يونس: ٤٥] ، وقال - تعالى -: ﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر: ١ - ٣] ، وقال - تعالى -: ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٩] ، وقال - تعالى -: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الزمر: ٦٣] .

٣٦ - إيذاء رسول الله ﷺ والمؤمنين: قال - تعالى -: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦١] ، وقال - تعالى -: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ

وَالْمُؤْمِنَاتِ بغيرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿ [الأحزاب : ٥٨] .

٣٧ - سلوك طرق النار والسعير : قال - تعالى - : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة : ٣٩] ، وقال - تعالى - : ﴿ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة : ٨١] ، وقال - تعالى - : ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [المالك : ١٠ - ١١] ؛ أي أن سنة الله - تعالى - قد جرت في أن الذين لم يصغوا السمع لما جاء به أنبياءهم من الوحي ولم يستخدموا عقولهم لفقه ذلك ؛ استحقوا في الآخرة أن يكونوا من أصحاب السعير .

٣٨ - بغض النبي ﷺ : قال - تعالى - : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ [الكوثر : ٣] ، قال ابن كثير : «أي : إن مبغضك - يا محمد - ومبغض ما جئت به من الهدى والحق والبرهان الساطع والنور المبين ؛ هو الأبر الأقل الأذل المنقطع ذكره»^(١) .

٣٩ - الإعراض : قال - تعالى - : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ [طه : ١٢٤] ، وقال - تعالى - : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [فصلت : ١٣] .

٤٠ - زعم الباطل : قال - تعالى - : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ [التغابن : ٧] ، وقال - تعالى - : ﴿ قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء : ٥٦] .

٤١ - الخرص : قال - تعالى - : ﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴾ [الذاريات : ١٠ - ١١] ، وقال - تعالى - : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ

(١) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، (٨ / ٥٠٤) .

هَلْ عِنْدَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ [الأنعام: ١٤٨ - ١٤٩].

٤٢ - اعتراف الخطايا: قال - تعالى -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

٤٣ - الصدف عن آيات الله: قال - تعالى -: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَايَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٧ - ١٥٨].

٤٤ - العمى عن الحق: قال - تعالى -: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، فالملقصود هنا هو عمى القلوب، قال - تعالى -: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢]، وقال - تعالى -: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ [طه: ١٢٤ - ١٢٦].

٤٥ - العمه - وهو الضلال -: قال - تعالى -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زِينًا لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل: ٤]؛ أي أن سنة الله - تعالى - جارية في أصحاب العمه (أي الضلال)؛ أن تزين لهم أعمالهم إلى أن يحين وقت إهلاكهم، قال - تعالى -: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَلَیْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَیْهِمْ حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٢ - ٧٥].

٤٦ - السفه: هي صفة وسم الله - تعالى - بها الذين رغبوا عن ملة إبراهيم عليه السلام (أي أشركوا)، والذين قتلوا أولادهم بغير علم، وهو ما كانت عليه

عادة كثير من العرب ، قال - تعالى - : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤٠] ، وقد بينا سنة الله - تعالى - في إهلاك المشركين والضالين .

٤٧ - الغفلة : قال - تعالى - : ﴿ فَأَعْرِقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٣٦] ، وقال - تعالى - : ﴿ وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٩٧] ، وقال - تعالى - : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٩] ، إن سنة الله - تعالى - جارية في الذين يغفلون عن آيات الله - تعالى - أن يحلَّ بساحتهم العذاب أو الهلاك كما حلَّ ذلك بفرعون وقومه .

٤٨ - الغواية : قال - تعالى - : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّآيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [١٤٦] ، والذين كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءَ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٤٦ - ١٤٧] ، وقال - تعالى - : ﴿ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ [٦٣] ، وقيل ادَّعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴾ [القصص : ٦٣ - ٦٤] .

٤٩ - حب المال وكنزه : قال - تعالى - : ﴿ وَتَحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ [الفجر : ٢٠] ، وقال - تعالى - : ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ [الهمزة : ٣] ، وقال - تعالى - : ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ [المسد : ٢] ، وظنوا أن ذلك حاجب عنهم العذاب ، فما صدق ظنهم ، قال - تعالى - : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [٣٤] ، وقالوا نحن أكثر أموالاً

وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿ [سبأ: ٣٤ - ٣٥] ، وقال - تعالى -: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿ [التوبة: ٣٤] ، وهي سنة جارية فيمن انطبق عليهم هذا الوصف .

٥٠ - إنفاق المال للصد عن سبيل الله : قال - تعالى -: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿ [الأنفال: ٣٦] .

٥١ - الفرح بغير حق : قال - تعالى -: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿ [الأنعام: ٤٤] ، وقال - تعالى -: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُوتُوا وَيُحْشَرُونَ أَن يُعْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿ [آل عمران: ١٨٨] .

٥٢ - المعاجزة : قال - تعالى -: ﴿ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿ [الزمر: ٥١] ، وقال - تعالى -: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿ [الأنفال: ٥٩] ، وقال - تعالى -: ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ ﴿ [سبأ: ٥] ، وقال - تعالى -: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ﴿ [التوبة: ٢] .

٥٣ - كراهية الحق وكراهية ظهور المؤمنين : قال - تعالى -: ﴿ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿ [التوبة: ٤٨] ، وقال - تعالى -: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿ [محمد: ٩] ، وقال - تعالى -: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَصْحَبَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ ﴿ [محمد: ٢٨] ، وقال - تعالى -: ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ

وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿ غافر: ١٤ ﴾، وقال - تعالى -: ﴿ لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [الأنفال: ٨]، وقال - تعالى -: ﴿ وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [التوبة: ٣٢]، وقال - تعالى -: ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣].

٥٤ - الخيانة: قال - تعالى -: ﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٧١]، وقال - تعالى -: ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ [يوسف: ٥٢]، وقال - تعالى -: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٧]؛ أي أن سنة الله - تعالى - جارية في عدم تمكين الخائنين من المؤمنين الصادقين، وأنه يضل كيدهم ولا يحبهم.

٥٥ - الطغيان: قال - تعالى -: ﴿ وَفِرْعَوْنُ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَكَثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿ الفجر: ١٠ - ١٣ ﴾، وقال - تعالى -: ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ [النازعات: ٣٧ - ٣٩]، وقال - تعالى -: ﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَأْبٍ ﴾ [ص: ٥٥].

٥٦ - الامتراء - وهو الشك -: قال - تعالى -: ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾ [فصلت: ٥٤]، وقال - تعالى -: ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ [الحج: ٥٥].

٥٧ - النظر والبصر بريئة وترصد: قال - تعالى -: ﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ [المدثر: ٢١ - ٢٦]، وقال - تعالى -: ﴿ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بَأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٧]، وقال - تعالى -: ﴿ وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٨]، قال ابن كثير: «أي يقابلونك بعيون مصورة؛ كأنها

ناظرة وهي جماد»^(١)، وبمثله قال ابن الجوزي، وأضاف معنى آخر، قال: «وتراهم ينظرون إليك بأعينهم ولا يبصرون بقلوبهم»^(٢)؛ أي جرت عليهم سنة الله - تعالى - في صرف قلوبهم عن الحق فهي لا تبصر وإن كانت العين ترى. وأما قوله - تعالى -: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: ٥١]؛ فهذا حين تتواطأ قلوبهم وأبصارهم على الشر.

٥٨ - الانتظار المصحوب باللامبالاة: قال - تعالى -: ﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ١٠١] فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴿[يونس: ١٠١ - ١٠٢].

٥٩ - ثني الصدور، واستغشاء الثياب، وإغلاق القلوب، والآذان، واتخاذ الحجاب دون سماع الحق: قال - تعالى -: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ لَيَسْتَخِفُّوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [هود: ٥]، وقال - تعالى -: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاغْمِلْ إِنَّا غَامِلُونَ﴾ [فصلت: ٥]، ومجمل ذلك هو الإعراض، وقد ذكرنا سنة الله - تعالى - في المعرضين.

٦٠ - الانصراف إلى عبادة غير الله تعالى: قال - تعالى -: ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢]، وقال - تعالى -: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنِّي يُصْرَفُونَ﴾ [غافر: ٦٩]، قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: «كيف تُصرف عقولكم إلى عبادة من لا يرزق ولا يحيي ولا يميت»^(٣).

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (٣ / ٥٣٠).

(٢) زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، (٣ / ٣٠٧).

(٣) المرجع السابق، (٤ / ٢٩).

٦١ - الإِدْبَار: قال - تعالى -: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦] ، وقال - تعالى -: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ [المدثر: ٢٢] ، وقال - تعالى -: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَأُظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُو مِّنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [المعارج: ١٥ - ١٧] .

٦٢ - التَّوَلَّى: قال - تعالى -: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمِ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٣ - ١٤] ، وقال - تعالى -: ﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ﴾ [التغابن: ٦] ، وقال - تعالى -: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣] .

٦٣ - عدم تدبر القرآن: قال - تعالى -: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤] ، وقال - تعالى -: ﴿أَفَلَمْ يَذَكِّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨] ، وقصدنا هنا الإشارة إلى أن سنة الله - تعالى - جارية في أن من يدبر آيات القرآن تنفتح مغاليق قلبه وتنفك أقفال الباطل التي عليه .

٦٤ - النفور من الحق: قال - تعالى -: ﴿فَمَا لِلَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ ﴿٣٧﴾ أَيُطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يَدْخُلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ ﴿٣٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ ﴿٤١﴾ [المعارج: ٣٦ - ٤١] ، قال ابن كثير: «﴿مُهْطِعِينَ﴾؛ أي مسرعين نافرين منك . . وعزيرين: أي متفرقين»^(١) . وقال - تعالى -: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ﴾ ﴿٤٩﴾ كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُّسْتَفِرَّةٌ﴾ ﴿٥٠﴾ فَزَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩ - ٥١] .

٦٥ - الجد والنشاط في العمل الباطل: قال - تعالى -: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (٨ / ٢٢٨) .

[الأنعام: ١٣٥]، وقال - تعالى -: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ﴾ [هود: ١٢١]، وقال - تعالى -: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاَعْمَلْ إِنَّا نَحْمِلُونَ﴾ [فصلت: ٥].

٦٦ - المحاجبة بالباطل : قال - تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ١٦]، وقال - تعالى -: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ [آل عمران: ٦٦]، وقال - تعالى -: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ﴾ [آل عمران: ٢٠].

٦٧ - يرون أعمالهم الباطلة حقاً : قال - تعالى -: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨]، وقال - تعالى -: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْ رَبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ [محمد: ١٤]، وقال - تعالى -: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٣٧].

٦٨ - يتبعون ما يسخط الله : قال - تعالى -: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢٨].

٦٩ - التجبر والعناد : قال - تعالى -: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [١٥] مِّنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٥ - ١٦]، وقال - تعالى -: ﴿كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾ [١٦] سَأَرْهَقُهُ صُعُودًا﴾ [المدثر: ١٦ - ١٧].

٧٠ - يعلّقون آمالاً على أعمالهم الباطلة : قال - تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فُورْقًا حِسَابُهُ﴾ [النور: ٣٩]، وقال - تعالى -: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨].

٧١ - كَيْلُ الأوصافِ الباطلة للرسول ﷺ : قالوا : مجنون ، شاعر ، معلم ، ساحر ، مفتر ، كذاب ، وأوصاف أخرى . وقد سبق ذكر الآيات القرآنية في ذلك عند حديثنا عن العهد المكي .

٧٢ - طلب المعجزات من الرسول ﷺ مما هو ليس في مقدور البشر : قال - تعالى - : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۖ ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۖ ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۖ ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْفَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرَفْقِكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ۖ ﴾ [الإسراء : ٩٠ - ٩٣] .

٧٣ - القنوط : قال - تعالى - : ﴿ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ۖ ﴾ [الروم : ٣٦] .

٧٤ - قولهم الإفك : قال - تعالى - : ﴿ أَتُنْفَكُوا إِلَهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ۖ ﴾ [الصفافات : ٨٦] ، وقال - تعالى - : ﴿ وَيَلْ لَّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٌ ۖ ﴾ [الجاثية : ٧] ، وقال - تعالى - : ﴿ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۖ ﴾ [الأحقاف : ٢٨] ، وقال - تعالى - : ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۖ ﴾ [العنكبوت : ١٧] .

٧٥ - نسبهم الولد والبنات لله عز وجل ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ، وقولهم إن الملائكة إناث : قال - تعالى - : ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ۖ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ۖ ﴾ [١٥٠] أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۖ ﴾ [الصفافات : ١٤٩ - ١٥٢] ، وقال - تعالى - : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۖ ﴾ [المائدة : ١٨] .

٧٦ - عبادتهم للملائكة: قال - تعالى -: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [١٩] وقالوا لو شاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿ [الزخرف: ١٩ - ٢٠] .

٧٧ - فعلهم للخطايا: قال - تعالى -: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨١] ، وقال - تعالى -: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ﴾ [٣٥] وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿ [٣٦] لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ [الحاقة: ٣٥ - ٣٧] .

٧٨ - عبادتهم لغير الله: قال - تعالى -: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٤] ، وقال - تعالى -: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ﴾ [المائدة: ٦٠] ، وقال - تعالى -: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ [يونس: ١٨] ، وقال - تعالى -: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا﴾ [النحل: ٧٣] ، وقال - تعالى -: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ [الحج: ٧١] .

٧٩ - التفاعل المتبادل مع الشياطين: قال - تعالى -: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ [الحج: ٣] ، وقال - تعالى -: ﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [العنكبوت: ٣٨] ، وقال - تعالى -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥] ، وقال - تعالى -: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٩] ، وقال - تعالى -: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢] ، وقال - تعالى -: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾ [٢٢١] تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿ [٢٢٢] يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٣] .

٨٠ - اتباع الظن : هو أنواع :

الأول : الظن الباطل بالله تعالى : قال - تعالى - : ﴿ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [فصلت : ٢٢] ، وقال - تعالى - : ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [فصلت : ٢٣] ، وقال - تعالى - : ﴿ وَظَنُوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ [الحشر : ٢] ، وقال - تعالى - : ﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ [آل عمران : ١٥٤] ، وقال - تعالى - : ﴿ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السُّوءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [الفتح : ٦] .

الثاني : الظن بالرسول ﷺ : قال - تعالى - : ﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ﴾ [الفتح : ١٢] .

الثالث : الظن في اليوم الآخر : قال - تعالى - : ﴿ وَظَنُوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾ [القصص : ٣٩] ، وقال - تعالى - : ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَقِينَ ﴾ [الحجرات : ٣٢] .

الرابع : مطلق الظن : قال - تعالى - : ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام : ١١٦] ، وقال - تعالى - : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ [يونس : ٣٦] ، وقال - تعالى - : ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴾ [النجم : ٢٣] .

٨١ - عبادة الجن : قال - تعالى - : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ﴾ [الأنعام : ١٠٠] ، قال ابن كثير : «هذا رد على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره ، وأشركوا في عبادة الله أن عبدوا الجن ، فجعلوهم شركاء لله في العبادة»^(١) .

٨٢ - تقليد الآباء في العقيدة : قال - تعالى - : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٠] .

(١) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، (٣ / ٣٠٧) .

٨٣ - فعلهم الفواحش وتسويغهم البذيء لذلك : قال - تعالى - : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٨] .

٨٤ - القسم بالله على الكذب : وهو أنواع :

الأول : القسم على يوم البعث : قال - تعالى - : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ ﴾ [النحل : ٣٨] ، وقال - تعالى - : ﴿ أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴾ [إبراهيم : ٤٤] .

الثاني : القسم على إيمانهم بالمعجزة إذا جاءت : قال - تعالى - : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾ [الأنعام : ١٠٩] ، لكنهم أخلفوا بقسمهم عندما جاءتهم آيات وليس آية واحدة .

الثالث : القسم على أن يكونوا أهدى الأمم : قال - تعالى - : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ﴾ [فاطر : ٤٢] ؛ أي : من جميع الأمم .

٨٥ - تعاطيهم الربا : قال - تعالى - : ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبٍّ لَيْرَبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَبُّو عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [الروم : ٣٩] ، وقال - تعالى - : ﴿ وَأَخَذَهُمُ الرَّبُّ وَقَدْ نَهَوْا عَنْهُ ﴾ [النساء : ١٦١] .

٨٦ - تكذيبهم بالبعث : قال - تعالى - : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا ﴾ [التغابن : ٧] ، وقال - تعالى - : ﴿ وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [هود : ٧] ، وقال - تعالى - : ﴿ قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ [المؤمنون : ٨٢] .

٨٧ - أكلهم أموال الناس بالباطل : قال - تعالى - : ﴿ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ

بِالْبَاطِلِ ﴿ [النساء: ١٦١] ، وقال - تعالى -: ﴿ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴾ [التوبة: ٣٤] .

٨٨ - الاستفتاح بالعذاب : قال - تعالى -: ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [إبراهيم: ١٥] ، قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : «استفتحت الأم على أنفسها»^(١) ، كما قالوا : ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال: ٣٢] .

٨٩ - انتقاصهم العلم الإلهي : قال - تعالى -: ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [فصلت: ٢٣] .

٩٠ - نسيان الذكرى ولقاء الله - تعالى -: قال - تعالى -: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٤٤] ، وقال - تعالى -: ﴿ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾ [طه: ١٢٦] ، وقال - تعالى -: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾ [الحشر: ١٩] ، وقال - تعالى -: ﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ ﴾ [السجدة: ١٤] .

٩١ - سبهم للرب - تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً : قال - تعالى -: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٨] .

٩٢ - التحليل والتحريم من عند أنفسهم : قال - تعالى -: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [النحل: ١١٦] .

٩٣ - قتل الأولاد ووآد البنات : قال - تعالى -: ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٠] ، وقال - تعالى -: ﴿ وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (٦ / ٥٥٩) .

شُرَكَاءُ هُمْ لِيُرَدُّوهُمْ وَلِيَلْبَسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴿ [الأنعام: ١٣٧] ، وقال - تعالى - : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ [التكوين: ٨ - ٩] .

٩٤ - أكلهم الميتة : قال - تعالى - : ﴿ وَإِنْ يَكُنْ مَيِّتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ﴾ [الأنعام: ١٣٩] .

٩٥ - تفضيلهم شركاءهم من الأصنام على الله تعالى : قال - تعالى - : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣٦] .

٩٦ - تخصيصهم لأنعام لا يذكرون اسم الله عليها : قال - تعالى - : ﴿ وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا ﴾ [الأنعام: ١٣٨] ، قال مجاهد : « كان من إبلهم طائفة لا يذكرون اسم الله عليها ولا في شيء من شأنها ، لا إن ركبوا ، ولا إن حلبوا ، ولا إن حملوا ، ولا إن سحبوا ، ولا إن عملوا شيئاً »^(١) .

٩٧ - تفريقهم في الطعام بين الرجل والمرأة : قال - تعالى - : ﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا ﴾ [الأنعام: ١٣٩] .

٩٨ - استقلالهم بأحكامهم وضعوها لأنعام : قال - تعالى - : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٣] .

٩٩ - أكلهم السحت : قال - تعالى - : ﴿ سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ﴾ [المائدة: ٤٢] .

١٠٠ - استكبارهم عن السجود لله - تعالى - : قال - تعالى - : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنْسَاجِدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ

(١) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، (٣ / ٣٤٦) .

نُفُورًا ﴿ [الفرقان : ٦٠] .

وبعد، فتلك مائة من الطامات التي استخدمها المشركون وأهل الكتاب كوسائل وطرق للدافعة ما جاء به الرسول ﷺ من عند ربه تبارك وتعالى، وكانوا فيها كلها على اتجاه معاكس ومخالف لسنن الله تعالى، فانتهى بهم الأمر إلى الهزيمة والانكسار، فمن شابههم في ذلك فسينتهي به الأمر إلى مثل ما انتهوا إليه. فهل من مشمّر يُعدُّ بحثاً في مدى مشابهة صفات أصحاب ودعاة العولمة فيما هم فيه لهذه الطامات المائة التي ذكرناها!!

ثانياً: أعمال المؤمنين التي سايروا فيها اتجاه السنن:

إن لله - تعالى - سنناً في نصرة أنبيائه ورسله وأوليائه، وهي جارية بحسب ما يكسبونه من أعمال صالحة وأفعال كريمة. وعلى منوال ما سبق نفسه؛ فإنني سأذكر عنواناً لكل عمل أو فعل مما كان عليه الرسول ﷺ والمؤمنون، ثم أذكر آية أو آيات من القرآن الكريم تدل على مدح ذلك العمل والثناء على فاعله، وربما ذكرت في بعضها سنة الله - تعالى - فيمن وقع منه ذلك العمل، ولقد بين النبي ﷺ مجمل ذلك في حديث شعب الإيمان الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه، ونصه: «الإيمان بضع وسبعون - أو بضع وستون - شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»^(١)، ورواه البخاري، وفيه: «الإيمان بضع وستون شعبة. . .» الحديث^(٢).

قال ابن حجر - رحمه الله تعالى - في الفتح: «إن هذه الشُّعب تتفرع عن أعمال القلب وأعمال اللسان وأعمال البدن. . .» ثم سردها عدداً، ثم قال في آخرها: «. . . فهذه تسع وستون خصلة، ويمكن عدّها تسعاً وسبعين خصلة

(١) صحيح مسلم، (١ / ٦٣)، رقم ٣٥.

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر، (١ / ٥١)، رقم ٩.

باعتبار أفراد ما ضم بعضه إلى بعض»^(١). وها أنذا أذكرها وأذكر أدلتها؛ مع بعض التنبیہات والتلمیحات؛ مع مراعاة تقسیمها - غالباً - على أعمال القلوب وأعمال اللسان وأعمال البدن؛ مع ملاحظة التداخل أحياناً بين تلك الأعمال، وهي كالآتي:

١ - الإيمان بالله - تعالى - رباً: قال - عز وجل - : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [النور: ٦٢].

٢ - الإيمان بالإسلام ديناً: قال - تعالى - : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران: ١٩] ، وقال - تعالى - : ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

٣ - توحيد الله - تعالى - : ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً؛ من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تأويل ولا تجسيم؛ مع إثبات ما أثبتته الله - تعالى - لنفسه من الأسماء والصفات: قال - تعالى - : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] ، وقال - تعالى - : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩].

٤ - اعتقاد حدوث ما دونه: قال - تعالى - : ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الزمر: ٦٢].

٥ - عبادته وحده وعدم الشرك به: قال - تعالى - : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ [النساء: ٣٦].

٦ - الكفر بالطاغوت: قال - تعالى - : ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

٧ - الإيمان بأسماء الله الحسنى: قال - تعالى - : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾ [الأعراف: ١٨٠] ، والإيمان بصفاته العلى،

(١) فتح الباري، ابن حجر، (١ / ٥٢ ، ٥٣).

قال - تعالى -: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠]، قال ابن كثير: «أي الكمال المطلق من كل وجه»^(١).

٨ - الإيمان بالرسول محمد ﷺ، وبالرسل كافة: قال - تعالى -: ﴿فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال - تعالى -: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

٩ - الإيمان بالملائكة: الآيات السابقة.

١٠ - الإيمان بالقرآن وبالكتب المنزلة من عند الله تعالى: الآيات السابقة.

١١ - الإيمان باليوم الآخر: قال - تعالى -: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾

[البقرة: ٤].

وكل ما ذكرناه مجموع في قوله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

١٢ - الإيمان بالقدر: قال - تعالى -: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب:

٣٨]، وقال رسول الله ﷺ عندما سأله جبريل: «فأخبرني عن الإيمان؟» قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»^(٢).

١٣ - الإيمان بأن الله - تعالى - يتوفى الأنفس: قال - تعالى -: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى

الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (٤ / ٥٧٨).

(٢) صحيح مسلم، (١ / ٣٧)، رقم ١.

١٤ - المسألة في القبر : من حديث البراء بن عازب - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «المسلم إذا سئل في القبر ؛ شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فذلك قوله : ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم : ٢٧]» (١) .

١٥ - البعث : قال - تعالى - : ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج : ٧] .

١٦ - النشور : قال - تعالى - : ﴿وَالِيهِ النُّشُورُ﴾ [الملك : ١٥] .

١٧ - الحشر : قال - تعالى - : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجر : ٢٥] .

١٨ - الحساب : قال - تعالى - : ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد : ٤٠] .

١٩ - الميزان : قال - تعالى - : ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأنبياء : ٤٧] .

٢٠ - نشر الصحف وتوزيع الكتب : قال - تعالى - : ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ [التكوير : ١٠] ، وقال - تعالى - : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيَةَ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَةَ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَةَ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرَمَا حِسَابِيَةَ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَةَ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَةَ ﴿٢٩﴾ خُدُّوهُ فَعَلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ

(١) رواه البخاري ، انظر : فتح الباري ، ابن حجر ، (٨ / ٣٧٨) ، رقم ٤٦٩٩ ، لفظ البخاري ، وصحيح مسلم ، (٤ / ٢٢٠١) ، رقم ٢٨٧١ .

هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينَ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾ [الحاقة: ١٩ - ٣٧].

٢١ - الحوض: قال - تعالى -: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١]، وقال ﷺ: «أنا فرطكم على الحوض» (١).

٢٢ - الصراط: قال - تعالى -: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ [٧١] ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مریم: ٧١ - ٧٢].

٢٣ - الجنة والنار: قال - تعالى -: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال - تعالى -: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]،

والمقصود بالإيمان بكل ما ذكرناه من ١٣ إلى ٢٣.

٢٤ - تقوى الله ومحبته ومحبة نبيه محمد ﷺ: قال الله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

٢٥ - الحب في الله والبغض في الله: من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله، والمعاداة في الله، والحب لله، والبغض في الله عز وجل» (٢).

٢٦ - الموالاة في الله والبغض في الله: قال - تعالى -: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، وانظر الحديث السابق.

٢٧ - طاعة الله - تعالى - ورسوله ﷺ: قال - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩].

٢٨ - طاعة ولي الأمر، فيما فيه طاعة لله ورسوله: قال - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٦٠٣، رقم ١٤٧٥.

(٢) رواه الطيالسي والحاكم والطبراني، وهو حديث حسن، انظر: صحيح الجامع، رقم ٢٥٣٦.

الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴿ [النساء: ٥٩] ، وأولو الأمر هم العلماء والأمراء .

٢٩ - الاقتداء بالرسول ﷺ واتباع سنته: قال - تعالى -: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١] ، وقال ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ»^(١) .

٣٠ - الصلاة على رسول الله ﷺ: قال - تعالى -: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦] .

٣١ - الإخلاص وترك الرياء والبعث عن النفاق: قال - تعالى -: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ [البينة: ٥] ، وقال - تعالى -: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٢] .

٣٢ - التوبة: قال - تعالى -: ﴿ قَالَ اللَّهُ - عز وجل - : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١] .

٣٣ - الخوف من الله - تعالى -: ﴿ قَالَ اللَّهُ - عز وجل - : ﴿ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٥] .

٣٤ - الرجاء: قال - تعالى -: ﴿ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ [النساء: ١٠٤] .

٣٥ - شكر الله - تعالى -: قال - تعالى -: ﴿ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُوا ﴾ [البقرة: ١٥٢] .

٣٦ - الوفاء: قال - تعالى -: ﴿ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ٧٦] .

(١) رواه أبووداد، والترمذي، وقال: «حديث حسن صحيح»، انظر: صحيح الجامع، رقم ٢٥٤٦ .

٣٧ - الصبر : قال - تعالى :- ﴿ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ [النحل : ١٢٦] ، وقال - تعالى :- ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ [الإنسان : ٢٤] .

٣٨ - الرضا بالقضاء : من حديث صهيب - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : «عجباً لأمر المؤمن ؛ إن أمره كله له خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» (١) .

٣٩ - التوكل : قال - تعالى :- ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق : ٣] ، وقال - تعالى :- ﴿ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر : ٣٨] .

٤٠ - رجاء رحمة الله ، واتصافهم برحمة الخلق : قال - تعالى :- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢١٨] ، وقال رسول الله ﷺ : «الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» (٢) .

٤١ - التواضع : قال - تعالى :- ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٣] ، ومن التواضع قول النبي ﷺ في حديث عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - : «ليس منا من لم يجل كبيرنا ، ويرحم صغيرنا ، ويعرف لعالمنا حقه» (٣) .

٤٢ - ترك الحسد : قال - تعالى :- ﴿ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ [الفلق : ٥] .

٤٣ - ترك الغضب لغير الله : من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي

(١) صحيح مسلم ، (٤ / ٢٢٩٥) ، رقم ٢٩٩٩

(٢) رواه الترمذي ، انظر : صحيح الجامع ، رقم ٥٣١٦ .

(٣) رواه أحمد والحاكم ، انظر : صحيح الجامع ، رقم ٥٣١٩ .

ﷺ قال لرجل «لا تغضب»^(١).

٤٤ - التلطف بالشهادتين: من حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة»^(٢)، ومن حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله نفعته يوماً من دهره، يصيبه قبل ذلك ما أصابه»^(٣).

٤٥ - تلاوة القرآن: قال - تعالى -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾^(٢٩) لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَرْبِدَهُمْ مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿فاطر: ٢٩ - ٣٠﴾.

٤٦ - تعلم العلم: قال - تعالى -: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وقال - تعالى -: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال - تعالى -: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

٤٧ - تعليم العلم: قال - تعالى -: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

٤٨ - الدعاء: قال - تعالى -: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال - تعالى -: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

٤٩ - الذكر: قال - تعالى -: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال - تعالى -: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل

(١) رواه البخاري، انظر: فتح الباري، ابن حجر، (١٠ / ٥١٩)، رقم ٦١١٦.

(٢) رواه البزار، انظر: صحيح الجامع، رقم ٦٣٠٩.

(٣) رواه البزار، انظر: صحيح الجامع، رقم ٦٣١٠.

عمران: ١٩١]، وقال - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١].

٥٠ - الاستغفار: قال - تعالى -: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨]، وقال - تعالى -: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المزمل: ٢٠].

٥١ - التسبيح: قال - تعالى -: ﴿وَسَبِّحْهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٢]، وقال - تعالى -: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة: ١٥].

٥٢ - اجتناب اللغو: قال - تعالى -: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]، وقال - تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٣].

٥٣ - تمني الصلاح للنفس والزوج والذرية: قال - تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

٥٤ - سؤال الله - تعالى - الوقاية من النار: قال - تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [٦٥] ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥ - ٦٦]، وقال - تعالى -: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

٥٥ - التوسط في الإنفاق: قال - تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

٥٦ - الإنفاق في سبيل الله: قال - تعالى -: ﴿وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقال - تعالى -: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢١].

٥٧ - التصدق وكفالة اليتيم وحفظ ماله: قال - تعالى -: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]، وقال

- تعالى -: ﴿ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ [الإنسان: ٨]، وقال
- تعالى -: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ
سَعِيرًا ﴾ [النساء: ١٠] .

٥٨ - التطهير حساً وحكماً: قال - تعالى -: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ
الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وقال - تعالى -: ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ
يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴾ [التوبة: ١٠٨] .

٥٩ - الوضوء: قال - تعالى -: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا
وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾ [المائدة: ٦]
.

٦٠ - التيمم: قال - تعالى -: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ
مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ [المائدة: ٦] .
٦١ - الصلاة: قال - تعالى -: ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾
[النساء: ١٠٣] .

٦٢ - الزكاة: قال - تعالى -: ﴿ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ [النور: ٥٦] .

٦٣ - فك الرقاب: قال - تعالى -: ﴿ وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ وَدِيَّةٌ
مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ ﴾ [النساء: ٩٢]، والآيات في ذلك عديدة، وكلها في الكفارات
أو في مصارف الزكاة، قال - تعالى -: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ
عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ [التوبة: ٦٠] .

٦٤ - الجود والكرم: من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن الرسول ﷺ
قال: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ جَائِزَتَهُ . قيل: وما جائزته يا رسول الله؟ قال: يوم وليلة،
والضيافة ثلاثة أيام، فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ

واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»^(١).

٦٥ - قول المعروف : الحديث السابق .

٦٦ - إكرام الجار : الحديث السابق .

٦٧ - الصيام : قال - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٣] .

٦٨ - الحج : قال - تعالى - : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران : ٩٧] .

٦٩ - العمرة : قال - تعالى - : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ [البقرة : ١٩٦] .

٧٠ - الطواف : قال - تعالى - : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ [البقرة : ١٥٨] .

٧١ - الاعتكاف : قال - تعالى - : ﴿ وَلَا تَبَاشَرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ﴾ [البقرة : ١٨٧] .

٧٢ - التماس ليلة القدر : قال - تعالى - : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ [القدر : ١] .

٧٣ - هجرة دار الشرك : قال - تعالى - : ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَآغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ [النساء : ١٠٠] .

٧٤ - الفرار بالدين : قال - تعالى - : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَغْفِرَ عَنْهُمْ

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٤٣٤، ٤٣٥، رقم ١١٢٦ .

وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا غَفُورًا ﴿ [النساء: ٩٧ - ٩٩] .

٧٥ - الوفاء بالنذر: قال - تعالى -: ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ [الحج: ٢٩] ، وقال - تعالى -: ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾ [الإنسان: ٧] .

٧٦ - التحري في الأيمان: قال - تعالى -: ﴿ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ﴾ [المائدة: ٨٩] .

٧٧ - أداء الكفارات: قال - تعالى -: ﴿ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ﴾ [المائدة: ٤٥] ، وقال - تعالى -: ﴿ ذَلِكَ كَفَّارَةٌ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ﴾ [المائدة: ٨٩] .

٧٨ - التعفف بالنكاح: قال - تعالى -: ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾ [النساء: ٣] .

٧٩ - القيام بحقوق الناس والعيال: من حديث ابن عمر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «كلكم راع، فمسؤول عن رعيته، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسؤولة عنهم . . .» الحديث^(١)، فالأمير الذي على الناس راع، وهو مسؤول عنهم، والرجل راع على أهل بيته، وهو مسؤول عنهم .

٨٠ - بر الوالدين: قال - تعالى -: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ [الإسراء: ٢٣] .

٨١ - صلة الرحم: قال - تعالى -: ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا ﴾ [الأحزاب: ٦] ، وقال - تعالى -: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٢٢] ، وقال - تعالى -: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ﴾ [النساء: ١] ، ومن حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «أفش

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٤٧٨، رقم ١١٩٩ .

السلام، وأطعم الطعام، وصل الأرحام، وقم بالليل والناس نيام؛ وادخل الجنة بسلام»^(١).

٨٢ - الرد إلى الرسول ﷺ وإلى أولي الأمر: قال - تعالى -: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

٨٣ - النصيحة: من حديث تميم بن أوس الداري - رضي الله عنه - قال ﷺ: «الدين النصيحة. قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»^(٢).

٨٤ - متابعة الجماعة: قال - تعالى -: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ومن حديث أبي ذر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ «من فارق الجماعة شبراً؛ فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه»^(٣).

٨٥ - الإصلاح بين الناس: قال - تعالى -: ﴿لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس﴾ [النساء: ١١٤].

٨٦ - قتال الخوارج والبغاة: قال - تعالى -: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

٨٧ - الأخوة في الله: قال - تعالى -: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وتتضمن ما جاء في قوله - تعالى -: ﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا

(١) أخرجه أحمد والحاكم، انظر: صحيح الجامع، رقم ١٠٦٩.

(٢) صحيح مسلم، (١ / ٧٤)، رقم ٩٥.

(٣) رواه أحمد وأبو داود والحاكم، انظر: صحيح الجامع، رقم ٢٦٨٦.

كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠-١٢﴾ [الحجرات : ١٠ - ١٢] .

٨٨ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : قال - تعالى - : ﴿ وَلَتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] ، وقال - تعالى - : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

٨٩ - إقامة الحدود : قال - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَى بِعَدْوٍ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٨] - [١٧٩] .

٩٠ - الجهاد : قال - تعالى - : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ [الحج : ٧٨] ، وقال - تعالى - : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ﴾ [التوبة : ١١١] .

وقال - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصف : ١٠ - ١٣] ، ومن حديث عبد الله بن عمر - رضي الله تعالى عنهما - قال رسول الله ﷺ : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا

الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله تعالى»^(١).

٩١ - أداء الأمانة : قال - تعالى - : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ [النساء : ٥٨] ، وقال - تعالى - : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] .

٩٢ - تحليل الغنائم : قال - تعالى - : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ [الأنفال : ٤١] ، وقال ﷺ : «أُعْطِيَتْ خُمُسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي : نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ . . . وفيه : «وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ . . .»^(٢).

٩٣ - النصر بالرعب : ذكرنا الآيات في غير ما موضع ، وانظر الحديث السابق .

٩٤ - أداء حقوق المسلم : من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «حق المسلم على المسلم ست : إذا لقيته فسلم عليه ، وإذا دعاك فأجبه ، وإذا استنصحك فانصح له ، وإذا عطس فحمد الله فشمته ، وإذا مرض فعده ، وإذا مات فاتبعه»^(٣).

٩٥ - فرض الحجاب : قال - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٥٩] .

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ، محمد فؤاد عبد الباقي ، ص ٥ ، رقم ١٣ ، واللفظ لمسلم ، صحيح مسلم ، (١ / ٥٣) ، رقم ٣٦ .

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ، محمد فؤاد عبد الباقي ، ص ١٠٤ ، رقم ٢٩٩ .

(٣) صحيح مسلم ، (٤ / ١٧٠٥) ، رقم ٢١٦٢ .

٩٦ - ترك البدع ومحدثات الأمور والشبهات : من حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ »^(١) . وفي رواية : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد »^(٢) . ومن حديث العرباض بن سارية - رضي الله عنه - قال رسول الله ﷺ : « وإياكم ومحدثات الأمور ؛ فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة »^(٣) . ومن حديث النعمان بن بشير - رضي الله عنهما - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الحلال بين وإن الحرام بين ، وبينهما مشتهيات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه » الحديث^(٤) .

٩٧ - الحكم بما أنزل الله : قال - تعالى - : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ [الأحزاب : ٣٦] ، وقال - تعالى - : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥] ، وقال - تعالى - : ﴿ وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة : ٤٩] ، وقال - تعالى - : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة : ٤٤] ، ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [المائدة : ٤٥] ، ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة : ٤٧] .

٩٨ - الإحسان وحسن الخلق : قال - تعالى - : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ، محمد فؤاد عبد الباقي ، ص ٤٣١ ، رقم ١١٢٠ .

(٢) صحيح مسلم ، (٣ / ١٣٤٤) ، رقم ١٧١٨ .

(٣) رواه أبو داود والترمذي ، وقال : حسن صحيح . انظر : صحيح الجامع ، رقم ٢٥٤٦ .

(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ، محمد فؤاد عبد الباقي ، ص ٣٨٩ ، رقم ١٠٢٨ ، واللفظ لمسلم ، صحيح مسلم ، (٣ / ١٢١٩) ، رقم ١٥٩٩ .

هُم مُّحْسِنُونَ ﴿ [النحل: ١٢٨] ، وقال - تعالى -: ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤] ، وقال - تعالى -: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤] . وفي حديث جبريل من رواية عمر - رضي الله عنه - قال جبريل : « فأخبرني عن الإحسان؟ فقال ﷺ : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »^(١) . ومن حديث أبي يعلى شداد بن أوس - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله كتب الإحسان على كل شيء » الحديث^(٢) ، ومن حديث عائشة - رضي الله عنها - عندما سُئِلَتْ عن خُلُقِ رسول الله ﷺ قالت : « فَإِنْ خُلِقَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ »^(٣) .

٩٩ - الحياء : هو خُلُقٌ مُدَحٌّ في القرآن : قال - تعالى -: ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَىٰ اسْتِحْيَاءٍ ﴾ [القصص: ٢٥] ، وقال ﷺ : « إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستح فاصنع ما شئت »^(٤) . ومن حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال ﷺ : « الحياء لا يأتي إلا بخير »^(٥) . وعنه أيضاً قال ﷺ : « . . . والحياء شعبة من الإيمان »^(٦) .

١٠٠ - إمطة الأذى عن الطريق : وهو أدنى مراتب شعب الإيمان ، كما هو مثبت في حديث شعب الإيمان من رواية أبي هريرة رضي الله عنه ، وفيه قول النبي ﷺ : « وأدناها إمطة الأذى عن الطريق »^(٧) .

فهذه مائة خصلة ، ويمكن اعتبارها تسعاً وسبعين شعبة إذا ضممنا بعضاً منها إلى بعض ، والأمر فيه متسع من الاجتهاد ، وربما فاتني ذكر بعض الخصال

(١) صحيح مسلم ، (١ / ٣٧) ، رقم ١ .

(٢) المرجع السابق ، (٣ / ١٥٤٨) ، رقم ١٩٥٥ .

(٣) المرجع السابق ، (١ / ٥١٣) ، رقم ٧٤٦ .

(٤) رواه البخاري ، انظر : فتح الباري ، ابن حجر ، (١٠ / ٥٢٣) ، رقم ٦١٢٠ .

(٥) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ، محمد فؤاد عبد الباقي ، ص ٩ ، رقم ٢٣ .

(٦) المرجع السابق ، ص ٩ ، رقم ٢١ .

(٧) صحيح مسلم ، (١ / ٦٣) ، رقم ٣٥ .

الأخرى، فهي عند التحقيق تقع ضمن واحدة أو أكثر مما ذكرته .

للاختصار كان بالإمكان ذكر العدد إجمالياً؛ كأن أقول: قد عاكس المشركون السنن في مائة خصلة؛ في حين ساير المؤمنون السنن في مائة خصلة. ولكنني عدلت عن ذلك لأجعل القارئ الكريم يعيش بحسّه وعقله ووجدانه عمق ومساحة ما كان عليه كل طرف في مجمل عقائده ومقاصده ووسائله؛ ليرى ويكتشف بنفسه حجم التدافع وشدته وعنفه وامتداده وآثاره .

النتيجة النهائية:

ولما كان ما عليه المؤمنون من الخصال مسائراً لاتجاه السنن الإلهية، وما كان عليه المشركون وأهل الكتاب معاكساً لها؛ فإن النتيجة النهائية حُسمت باندحار الكافرين وانتصار المؤمنين؛ تحقيقاً لوعده الله - تعالى - وإنجازاً له . وبين يديك الآن موجز ذلك:

أولاً: سنة الله - تعالى - في اندحار الكافرين:

إن المتمعن في سنة الله - تعالى - في إنزال الهزيمة والاندحار في ساحة الكافرين يراها تسير على النسق الآتي:

١ - الاستدراج: قال - تعالى -: ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾ [مريم: ٧٥]، وقال - تعالى -: ﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبْ بِهِذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [٤٤: ٤٤ - ٤٥]، وقال - تعالى -: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّنا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأنفُسِهِمْ إِنَّا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وقال - تعالى -: ﴿ قُلْ إِنِّي أَدْرِي أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴾ [الجن: ٢٥] .

٢ - الاندحار: قال - تعالى -: ﴿ حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِثْمًا الْعَذَابِ وَإِثْمًا السَّاعَةِ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴾ [مريم: ٧٥]، وقال - تعالى -: ﴿ حَتَّى إِذَا

رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْئَلُونَ مَنْ أضعفُ ناصِرًا وأقلُّ عددًا ﴿ [الجن : ٢٤] .

وقد لاحظنا في سنة الاستدراج أنها ماضية في جميع الأمثلة التي ذكرناها بخصوص موقف الأقوام من أنبيائهم ، وقد تضمن ذلك إتاحة فرصة الاستعلاء بالباطل لدى الكافرين وهم منهمكون في مدافعة المؤمنين ؛ بما يتضمن ذلك من عنف واضطهاد للأنبياء وأتباعهم قد يستمر سنين طويلة ، فيظن الكافرون أن لا ناصر لأولئك ولا ولي يحميهم أو يدافع عنهم ، فرموا اجتماعهم عليهم من أقطارها ، فإذا ما بلغ الأجل عند الله - تعالى - مواعده ؛ أتاهم الله من حيث لا يحتسبون ، وأدال الحال عليهم ، فانقلبوا على رؤوسهم فأصبحوا من الهالكين أو المهزومين ؛ أي جرفتهم سنة الإهلاك فاجتثتهم من جذورهم ، قال - تعالى - : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلَكَنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ [محمد : ١٣] ، وقال - تعالى - : ﴿ وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُرْلَوْكُمْ الْأَذْيَارُ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [آل عمران : ١١١] ، وقال - تعالى - : ﴿ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [التوبة : ٧٤] ، وقال - تعالى - : ﴿ جُنْدٌ مِمَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴾ [ص : ١١] .

وما أجمل ما خطته يد سيد قطب - رحمه الله تعالى - في سفره القيم ؛ إذ قال : «إنهم ما يزيدون على أن يكونوا جنداً مهزوماً ملقى ﴿ هُنَالِكَ ﴾ بعيداً ، لا يقرب من تصريف هذا الملك وتدبير تلك الخزائن ، ولا شأن له فيما جرى في ملك الله ، ولا قدرة له على تغيير إرادة الله ، ولا قوة له على اعتراض مشيئة الله . . . ﴿ جُنْدٌ مِمَّا ﴾ جند مجهول منكر هين الشأن ، ﴿ مَهْزُومٌ ﴾ كأن الهزيمة صفة لازمة له ، لا صفة له ، مركبة في كيانه ! ﴿ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴾ . . . المختلفة الاتجاهات والأهواء !» (١) .

(١) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، (٥ / ٣٠١٣) .

ثانياً: سنة الله - تعالى - في نصر المؤمنين:

إن المتمعن في سنة الله - تعالى - في نصره للمؤمنين يراها تسير على النسق الآتي:

١ - الابتلاء: قال - تعالى -: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال - تعالى -: ﴿لُتَبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلِتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، وقال - تعالى -: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾ [الأحزاب: ١١].

٢ - الامتثال للمنهاج: وهو النجاح في تحقيق طاعة الله ورسوله خلال فترة الابتلاء، ويتضمن ذلك التنفيذ والاتباع مع الرضا والصبر الجميل، وملاك ذلك كله هو أن يحقق المؤمنون نصرهم لدين الله بكل ما أوتوا من جهد وقوة، وقد فعلوا!! فأثبت الله - تعالى - لهم ذلك في القرآن شهادة لهم تتلى إلى يوم الدين، قال - تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٧٤]، وقال - تعالى -: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال - تعالى -: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصَرُونَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [التوبة: ٨]، والَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٨ - ٩].

إن ابتلاء المؤمنين يسير متزامناً مع استدراج الكافرين، قد امتزج بعضه ببعض امتزاجاً تنافرياً، شكّل نسيج التدافع بين الطرفين، ولا يزال يغالب بعضهم بعضاً مع بروز غلبة الكافرين وضعف المؤمنين في بداية التدافع، ثم تأخذ تلك الغلبة

بالانحدار، وذلك الضعف بالارتفاع؛ حتى يتعادلا، ويمكننا على هذه الحال زمناً، يكون التدافع قد بلغ أوج حدته وقمة شدته، ثم بعد ذلك تثقل كفة المؤمنين شيئاً فشيئاً، وتضمحل كفة الكافرين شيئاً فشيئاً، والمؤمنون في كل ذلك يقولون: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

٣ - نصر الله: هو المرحلة الثالثة، وهي قبل الأخيرة في إتمام النعمة، وهي ثمرة امتزاج الامتثال بالابتلاء، قال - تعالى -: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وقال - تعالى -: ﴿فَاتْلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤]، وقال - تعالى -: ﴿وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال - تعالى -: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف: ١١٠]، إن هذا النصر الذي أنزله الله - تعالى - على المؤمنين هو سنة جارية لمن نجح في الابتلاء والامتثال، قال - تعالى -: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]، وقال - تعالى -: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [٤١] بنصر الله يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم: ٤ - ٥]، وقال - تعالى -: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، وقال - تعالى -: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

٤ - التمكين: وهو ثمرة النصر المبين، فبعد أن حقق المؤمنون خصال شعب الإيمان، وخاضوا من خلالها مع أصحاب شعب الكفر غمار صراع ضار ومرير؛ انتهى بنصر الله - تعالى - الحاسم لهم؛ استحقوا عند الله - تعالى - أن ينجز لهم وعده بالتمكين في الأرض ليرفعوا راية التوحيد على ربوعها، ويحققوا العبودية الخالصة له - سبحانه -، قال - تعالى -: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]، وقد مكّن الله لرسوله ﷺ، ودانت له الجزيرة

العربية، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، كما قال - تعالى -: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ [النصر: ١ - ٣]، وانفتحت مرحلة جديدة في العالمية الإسلامية ليمتد الإسلام في أنحاء الأرض، فاحتاج الحال إلى طمأننة النبي ﷺ إلى أن هذا التمكين ستمتد رقعته، وأن الكافرين سيهزمهم الله بجنوده وبالمؤمنين، فقال في الآية التي بعدها - أي بعد الآية التي ذكرناها في سورة النور -: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦]، فإذا فعلوا ذلك - وقد فعلوا - فلتقر عينك يا نبي الله، بالتمكين الشامل، قال - تعالى - بعد الآية المذكورة: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [النور: ٥٧] .

وسيستمر هذا التمكين ما حافظ المسلمون على خصال الإيمان وشعبه، وإن الإسلام سيعم الأرض وتعلو المآذن في كل مكان، وستعمر أرجاؤها بالمصلين والذاكرين، قال - تعالى -: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٦ - ٣٨]، فإذا فعلوا ذلك؛ فإن مدافعة الكفار لهم لا قيمة لها ولا وزن؛ لأن ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩] .

التدافع المعاصرين عالمية الإسلام والعولمة:

نريد الآن أن نستفيد من الدراسة المفصلة التي ذكرناها بشأن قواعد التدافع في منهاج الأنبياء، ونطبق ذلك على واقعنا المعاصر .

ولنسجل ابتداء الملاحظات الآتية :

١ - أن امتداد رقعة الإسلام قد استمر بعد وفاة الرسول ﷺ حتى بلغ مشارق الأرض ومغاربها .

٢ - أن هذا الامتداد قد شقَّ طريقه عبر تدافع شديد من خلال معارك جهادية عظيمة ، حصل فيها كرٌّ وفرٌّ ، وسقط فيها مئات الآلاف من الشهداء (نحسبهم كذلك والله حسبيهم ولا نزكي على الله أحداً) ، وأضعافهم من الجرحى ؛ مما خلف أعداداً كبيرة من الأيتام والأرامل .

٣ - أن المجتمع الإسلامي قد تعود الصياغة الحركية المبنية على الرباط والجهاد ؛ حتى يمكن وصفه بحق أنه مجتمع جهادي .

٤ - أن الإسلام قد استوعب أثناء امتداده الجهادي والدعوي كل الشعوب والأجناس والحضارات ، ثم أعاد صياغتها من جديد ، وأدخلها في مفهوم الإيمان الشامل ، فأضفى على حياتها تلك الخصال والشعب الإيمانية التي ذكرناها ، فأصبحت مؤهلة لمداغة المجتمعات الشريكة بخصالها الكفرية ، ففزَّ عولمتها تقزياً شديداً ، وحصرها في بقاع أرضية قليلة .

٥ - لقد كان لافتاً أن هذا المجتمع الجهادي الدعوي قد شيد حضارة إنسانية فذة ، حوت في طياتها جميع أسباب الرقي الإنساني ، وقد حافظت تلك الحضارة على امتدادها الزمني عبر القرون ، ووجدت في دينها جميع المتطلبات التي تساعد على التطور والتقدم والازدهار إلى حدٍّ أثار الانبهار !!

٦ - أن كثيراً من البلدان قد فتحها الإسلام بأخلاق أهله وليس بسلاحهم ، وأن كثيراً من الجيوش التي غزت بلاد الإسلام آل بها الأمر إلى اعتناقه والجهاد في سبيله (كالتتار مثلاً!!) .

٧ - وقد تتابع قيام الدول الإسلامية إلى أن آل الأمر إلى هيمنة الخلافة العثمانية .

٨ - وما زالت رايات الإسلام خفاقة في أرجاء المعمورة تحت ظل الخلافة العثمانية إلى أواخر القرن التاسع عشر، حيث بدأت الدولة العثمانية بالاضمحلال، وبدأت خصال وشُعب الإيمان تتهاوى ويخبو ضوءها في قلوب المسلمين. وبدأت كفة المدافعة تميل لمصلحة أعداء الإسلام ويتعاضم تأثيرها ووقعها على المسلمين؛ حتى سقطت راية الخلافة الإسلامية رسمياً عام ١٩٢٤م، وتنحت خصال الإيمان وشُعبه عن صياغة المجتمع الإسلامي، وبقي منها بصيص في بعض أفراد المسلمين، يخبو أحياناً ويتوهج أحياناً أخرى.

٩ - ومنذ ذلك التاريخ وإلى الآن؛ فإن العولمة لا تزال تواصل مد بساطها على ربوع الأرض؛ بما فيها البلاد الإسلامية، وتقوم بالضغط الشديد على العالم الإسلامي على جميع المستويات في العقائد والمقاصد والوسائل.

بعد تلك الملاحظات؛ لا بد أن نتلمس واقع الطرفين المتدافعين، وهما:

- المسلمون (المفترض أن يكونوا معبرين عن عالمية الإسلام).

- أعداء الإسلام (وهم الذين يرفعون لواء العولمة).

فأقول وبالله التوفيق:

أولاً: واقع المسلمين على ضوء شعب الإيمان وموجات العولمة:

لا شك أن المسلمين اليوم قد خَلَفُوا وراءهم عدداً كبيراً من شعب الإيمان، وما تبقى بين ظهرانيهم منه فإنه باهت خافت لا تكاد ترى آثاره في حياتهم إلا قليلاً. ولأجل أن لا يكون كلامنا جزافاً، ولا يكون تصدينا للحقائق القائمة على الأرض متخيلاً؛ فإنني سأذكر باختصار أهم الشعب التي فُقدت بالكلية أو التي أصابها تدهور شديد، وسأرتب كلامي وفق عناوين رئيسة، وتحت كل عنوان ينضوي عدد من الخصال والشُعب الإيمانية التي ذكرناها، وأترك للقارئ الكريم الاجتهاد في تتبعها (أي الخصال والشُعب) ليعيش المشكلة بنفسه، لعلّه يكون له

دور إيجابي في حل بعض إشكالاتها وتقزيم مآلاتها، وعليه أن يستحضر أيضاً المستويات الثلاث التي ذكرناها، وهي العقائد والمقاصد والوسائل، باعتبارها مكونات التدافع!!

١ - الأحزاب القومية والعلمانية: وهي أحزاب انتشرت في طول العالم الإسلامي وعرضه، انضوت في صفوفها أعداد كبيرة من الجماهير الإسلامية التي ضمت شرائح متنوعة من السياسيين والمتعلمين وغيرهم؛ من الجنسين الرجال والنساء، وتمكّنت هذه الأحزاب من السيطرة على أنظمة الحكم في كثير من البلاد الإسلامية، وتمكّنت أيضاً من الهيمنة على النقابات والنوادي والجمعيات والروابط الطلابية والمؤسسات الفكرية والثقافية والاجتماعية والإدارية والتربوية، بل الرياضية أيضاً، ونشطت إعلامياً من خلال إصدار الصحف والمجلات، وتأسيس الإذاعات، واستخدام وسائل البث الفضائي والحاسوب والشبكة العالمية (الإنترنت).

إن أهم ما اعتمدته هذه الأحزاب في نشر فكرها ووضع برامجها هو اعتبار الإسلام عدوها الأول، فبعضهم جاهر بذلك وبعضهم أسرّ به، ولذلك جاءت جميع الوسائل وانصبت كل المقاصد في بحيرة هذه الدائرة الخطيرة، وراحت هذه الأحزاب تدك بمعاولها معاقل شعب الإيمان في كل أنحاء العالم الإسلامي؛ مركزة على أساسيات تلك الشعب، ومن أهمها تبديد المعنى الحقيقي لـ «لا إله إلا الله محمد رسول الله»؛ تارة بالمجابهة السافرة، وتارات بالمواربة والمخاتلة. لقد نجحت هذه الأحزاب في اختراق الهوية الإسلامية لهذه الأمة، ووصلت في اختراقها إلى موقع القلب منها، فالتقت مع العولمة في السبل نفسها، وتوحدت مع أهدافها، فجمع بينهما الطريق.

لقد أضعفت هذه الأحزاب روح الانتماء الإسلامي في الشعوب الإسلامية،

مما بدد قواها الذاتية، وأطاح بمكتسباتها التاريخية، وأهال التراب على أمجادها الحضارية، فأضحت فريسة سهلة لمن يريدون عولة أفكارها وثقافتها وسلوكياتها.

٢ - الحكم بالدساتير الوضعية: مع انطفاء نور الخلافة العثمانية ساد ظلام الدساتير الوضعية الوافدة، حيث تخلّت الحكومات الإسلامية عن حكم الكتاب والسنة بالكلية، واستوردت تشريعات وقوانين الدول الغربية، وجعلتها محل التحاكم في كل الشؤون الحياتية على جميع المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية والثقافية وغيرها، ولا يزال الحال على ما هو عليه منذ حوالي ثمانين عاماً. لقد أعادت هذه الدساتير صياغة الأمة الإسلامية على نحو الصيغة الجاهلية؛ وانظر الآن أخي القارئ في الحصل المائة التي كان عليها الجاهليون؛ فستجد كثيراً منها قد أخذ حظه الأوفى من واقع الأمة الآن كلياً أو جزئياً، ولا يعني هذا الكلام تكفير المجتمعات الإسلامية؛ بل يعني أن هذه القوانين الوضعية قد غيّرت الصبغة التي قال الله عنها: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨]. إن أقصى ما يمكن للمسلم اليوم فعله هو احتفاظه بالقيام بالفرائض الفردية المتعلقة بأركان الإسلام، أما ما يتعلق بالمقاصد الكلية والتي هي من وظيفة الحاكم، وذلك في التحاكم في العقائد والدماء والأموال والأعراض، فهذه كلها قد وضعت لها الدساتير المستوردة تشريعات وقوانين مخالفة لشريعة الإسلام. وبناءً على ذلك؛ فإن هذه الدساتير قد أدت وظيفتها في حثّ شعب الإيمان من قلوب المسلمين، وإضعاف التزامهم بها إلى أقصى حد ممكن، ولا تزال تمارس هذه الوظيفة الخطيرة إلى يومنا هذا.

إن هذه الدساتير الوضعية قد فرضت على المسلمين بالقوة، حيث جيشت تلك الدول جيوشها وشرطتها ومخابراتها وكل وسائلها لحماية هذه الدساتير، وتأكيد فرضها على الشعوب الإسلامية، وإجبار المسلمين على الاحتكام إليها

تحت طائلة العقوبات المشددة التي تتضمن أقصى الأحكام بما فيها السجن المؤبد، بل الإعدام؛ مع ما يرافق ذلك من ألوان التعذيب الوحشي، وأنواع الإهانات التي تهوي بالإنسان إلى أدنى من قيمة الحيوان بمراحل عديدة!! وإذا كانت الأحزاب العلمانية قد اخترقت هوية الأمة، فهذه الدساتير قد غيرت تلك الهوية وطمسها، فصَبَّ ذلك كله في مصلحة الذين يعملون دساتيرهم وأنواع طرق معاشهم.

٣ - أنظمة الحكم السياسية: لقد سادت أنظمة الحكم الديكتاتوري الأمة الإسلامية؛ تارة مسفرة عن «الحاكم الفرد»، وتارة متوارية خلف «الحزب الحاكم»، وأخرى وراء «المجلس النيابي». جميع هذه الأنظمة - تقريباً - اعتبرت الإسلام عدواً لها، فمنهم من جاهر بذلك، ومنهم من أسر. لقد سامت هذه الأنظمة السياسية الشعوب الإسلامية سوء العذاب، وشجعت جميع الفعاليات التي تبتعد بالأمة عن دينها، وفرضت عليها أنواعاً من أساليب الحياة، فتارة شيوعية، وأخرى اشتراكية، وثالثة رأسمالية، وكلما استولت فئة على نظام الحكم لعنت من قبلها وفرضت على الشعب المسلم الاصطباغ بصبغتها!

غير أن آخر ما أصبح مطروحاً على بساط الحراج السياسي هو «النظام الديمقراطي» الذي أخذت الولايات المتحدة (اليهود والنصارى) على عاتقها فرضه بالقوة على العالم الإسلامي، وهو نظام علماني بحث يخترق الإسلام في صميم أصوله، حيث يجعل الشعب مصدر التشريعات (أي ليس الكتاب والسنة)، إن هذا النظام السياسي هو من أخطر الأنظمة التي تمكن للعولمة في بلاد المسلمين، ولذلك فهو يحظى بدعم شديد وقوي وضغط من قبل أعداء الإسلام. وفي ظل النظام الديمقراطي؛ فإن جميع شعب الإيمان وجميع خصال الكفر تصبح في إناء واحد، يختلط بعضها ببعض مثل «السَّلَطة»، وتطرح على المزاد العلني المسمى «التصويت»، ولكن ما هو أخطر من ذلك أن هذه الخاصية تصبح هي الطاغية في علاقات المسلمين في جميع إداراتهم التعااملية، حيث

يستطيع كل فرد فعل ما يريد تحت ضمان حماية «دستور النظام الديمقراطي»؛ إذ إن حرية الأفراد في ظل هذا النظام مكفولة بالقانون .

٤ - مناهج التعليم : العلمانية هي القاسم المشترك في معظم مناهج التعليم في العالم الإسلامي ، ومادة التربية الإسلامية في تلك المناهج - إن وجدت - هي مادة طارئة ومُسيّسة . إن كثيراً من مادة تلك المناهج هي تمجيد للنظام الحاكم ، وتسبيح بفضائله وحسناته ، إنها تمسخ الهوية الإسلامية من عقل الطالب وقلبه لدعم أفكار ومبادئ الفئة الحاكمة ؛ سواء كانت حزباً أو طائفة أو عائلة أو ما سوى ذلك ؛ أي أنها تعمل لتدعيم المبادئ الأساسية التي قامت وتقوم عليها العولمة . لقد بلغت نسبة الأمية في العالم العربي حوالي ٦٥ ٪ ، وهو رقم كارثي في عصر اعتبرت فيه بعض الدول أن تعريف الأمية هي الجهل بالحاسوب وليس عدم القراءة أو الكتابة . إن المصيبة القادمة هي أن جميع برامج محو الأمية أساسها مناهج العولمة التي ذكرناها ؛ أي أنه لا توجد أي خطط لمحو الأمية بالدين ، إذاً ستبقى الأمة بعيدة عن شعب الإيمان ، قريبة من خصال المعولمين من اليهود والنصارى وأذنانهم .

٥ - الإعلام : إنه الغشاء الذي يدخل إلى كل بيت مع الهواء وعبر الفضاء ، ومع الكتب والصحف والمجلات ، ومن خلال الفيديو والأقراص والشبكة العالمية (الإنترنت) . لقد سيطرت الأنظمة الحاكمة العلمانية على هذا الإعلام ، هذا في البلاد الإسلامية ، وأما في غيرها فقد سيطرت مؤسسات العولمة بإشراف اليهود والنصارى على جميع مكوناته ، وراح هذا الموكب المكتظ بالسوء والسيئات يدلف إلى عقول المسلمين وقلوبهم ليصنعهم على عينه ، وعلى وفق منهجه . إن حجم هذا الإعلام بات خارج إمكانية العد أو القياس ، وقد أدى ذلك ، بشكل مضطرب ومتسارع ، إلى سحب المسلمين بعيداً بعيداً عن شعب الإيمان وخصاله ، ورميهم بين براثن شعب الكفر ودروبه ، وأما الذين لا يزالون

يتشبثون ببعض شُعب الإيمان؛ فمثلهم كمثل الملقى في البحر ويتشبث بقطع من الخشب متناثرة على سطح الماء هنا وهناك!

٦ - الأسرة: لقد أحكم الإسلام بناء الأسرة إحكاماً قوياً ومتيناً؛ بوصفها اللبنة الرئيسة في بناء المجتمع، ولقد صبّت كثير من شُعب الإيمان في صنع مادة هذه اللبنة لتضمن لها التماسك والبقاء؛ غير أن العوامل الخمسة السابقة التي ذكرناها قد وجّهت سهامها القاتلة إلى تلك اللبنة فأضعفت تماسكها، وأحياناً كثيرة تمكنت من تفتيتها. وإنك لتجد كثيراً من الأسر قد شردمتها أفكار العولمة ونشرت أشلاءها يميناً وشمالاً، وإن أبرز ما ساعد على ذلك نزع المرأة لحجابها واتساع اختلاطها مع الرجال في جميع المرافق بلا استثناء؛ بما في ذلك المؤسسات العسكرية والأمنية، وعند تدقيقك في بيوت أسر المسلمين ستفتقد كثيراً من شُعب الإيمان، وستجد كثيراً من الشُّعب الأخرى!

٧ - انتشار الفساد والجريمة: قال - تعالى -: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، إنه لمن المؤسف القول إن الفساد قد عم المستويات كافة، سواء على مستوى الأنظمة الحاكمة أو على مستوى الشعوب المسلمة المحكومة، بل إنه أصبح في حالات كثيرة من المسلّمات! لقد أضحي شراء الدم، وفشو الرشوة، وأكل أموال الناس بالباطل، واستغلال المناصب، والاستغناء بالمال الحرام، وتعري النساء، والاختلاط الماجن، ونوادي الليل، والأفلام الخليعة، والاحتيال والاعتصاب، والزنى، وأنواع الجرائم التي تغصّ بذكرها الصحافة في صباح كل يوم، ومحاربة الفضيلة، وإعلان الإرهاب على الدعاة والمصلحين، وبث الرعب في قلوب المتدينين. . . وسوى ذلك كثير، كل ذلك أضحي مشاعاً ومعلناً ومعلومًا!

ولو قارنت أحوال المجتمع الإسلامي اليوم مع شُعب الإيمان التي ذكرناها لرأيت حالاً مهولاً ووضعاً مزرياً، ولا حول ولا قوة إلا بالله! لعلك أخي القارئ

تجد في هذا الكلام وصفاً للوحة سوداء ليس فيها بصيص نور!! كلا، ليس الأمر كذلك، ولكن الذي ذكرته هو مما لا يخفى، وإننا لن نستطيع إصلاح واقعنا ما لم تكن لدينا الجرأة على التشخيص الحقيقي لأمرضه وأوبائه. إن هذا الفساد ما هو إلا مظهر بارز من مظاهر تأثير العولمة.

٨ - التخلف التنموي: رغم أن العالم الإسلامي تتزاحم فيه الثروات وتتعاظم في جنباته الكنوز؛ غير أنه مصنف ضمن منظومة العالم الثالث؛ أي العالم المتخلف. ومن الواضح جداً أن انحطاط برامج التنمية أو عدم وجودها قد أوجد هوة واسعة جداً بين العالم الإسلامي والعالم الغربي الذي يقوده اليهود والنصارى. ومعنى ذلك أن العالم الإسلامي - بسبب شدة تخلفه التنموي - يعتمد اعتماداً كلياً على ما يأتيه من الغرب، وعلى ما يتصدق به عليه من التقنية (التكنولوجية). ولقد أدى هذا التخلف إلى هجرة المفكرين والباحثين والمتخصصين والخبراء المسلمين إلى بلاد الغرب ليجدوا عنده ما يناسب طموحاتهم العلمية التخصصية، فأصبحت رياح العولمة تهب علينا من جهتهم إضافة إلى هبوبها من جهة الغرب أصلاً. ستبقى أبواب العالم الإسلامي مشرعة لرياح العولمة إلى أن يتمكن من ردم الفجوة بينه وبين أولئك، ولكن متى سيكون ذلك؟!

٩ - اختلافات الإسلاميين: قال - تعالى -: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، لقد باتت اختلافات الإسلاميين موضع أزمة في العمل الإسلامي، اختلافات في مفهوم العقيدة، وفي تشخيص أمراض الواقع، وفي طريقة التعامل معه، وفي أساليب التعبير عن الإسلام. . وغير ذلك كثير، ثم أضحت هذه الخلافات موضع استنزاف لطاقتهم ومحلاً لتنازعهم؛ مما جعل بأسهم بينهم، فاجتمع عليهم سوء علاقات بعضهم ببعض مع كيد السلطات المحلية والعالمية لهم. ومما زاد الحال تدهوراً عدم اتساع صدورهم للحوار

أو النقد . وهكذا تفعل الهزائم بالشعوب ؛ فإنها تُذهب لبهم ، وتشوّش على سلامة تفكيرهم ، وتوردهم المزالق ، وتدفعهم للمهالك ، وهل الإسلاميون وجماعاتهم إلا جزء من هذه الشعوب ؟! ولقد كانوا مظنة أن يبرزوا كأطباء يعالجون أمراض الهزائم ، ولكن للأسف تسربت إلى أجسادهم الأمراض فباتوا بحاجة إلى من يداويهم !!

وبعد .. فتلك تسعة عوامل رئيسة تنخر في واقع المسلمين من داخلهم ، وتسوقهم بقوة وثبات وعزيمة إلى الهوي في وديان العولمة ، وإلى الغرق في بحار أمواجها المتلاطمة . ونلاحظ أن تلك العوامل قد شملت واقع المسلمين من زوايا العقائد والمقاصد والوسائل ، وقد أوهنت تلك العوامل قوى العالم الإسلامي لمداغة الهجمة الشرسة لأعداء الإسلام . إن الطابع العام للعالم الإسلامي اليوم هو الاصطباغ بالعولمة في هذه الأمور الثلاثة (قارن بين واقع العالم الإسلامي الآن وبين ما ذكرناه من واقع العقائد والمقاصد والوسائل لأعداء الإسلام الذين جابهوا رسلهم وخاصموهم ، حيث ستجد مقارنة كبيرة!!) .

ثانياً: واقع أعداء الإسلام على ضوء شعب الكفر وموجات العولمة؛

إذا استعرضنا واقع أعداء الإسلام على ضوء شعب الكفر المائة التي ذكرناها ؛ فإننا سنجد أنهم قد حازوها كلها بجدارة - في السوء والمكر - ، وأضحت منطلقهم في مدافعة العالم الإسلامي . إن «العولمة» المعاصرة ما هي إلا «عنوان شامل» لتلك الخطط والبرامج . وقد آن أوان ذكر شيء من تفاصيل العمل المؤسسي اليهودي النصراني ضد المسلمين في هذا المضمار ، وذلك ضمن مشروعاتهم للعولمة .

لقد وضع أعداء الإسلام عناوين رئيسة لحربهم على الإسلام ؛ من مثل «خطر الأصولية الإسلامية» و «الحرب على الإرهاب» وضرورة «هزيمة تطرف

الإسلاميين» و «صراع الحضارات» وعناوين أخرى، وجميعها تصب في بحيرة العولمة. ولا شك أن هؤلاء يرمون إلى استغلال الظرف التاريخي الحالي لمصلحتهم؛ لكون أن كفتهم في ميزان التدافع مثقلة بضخامة خططهم وبرامجهم؛ في حين أن كفة المسلمين في ميزان التدافع خفيفة، بل طائشة!

سأذكر الآن أربعة مؤثرات لليهود والنصارى ضد الإسلام والمسلمين في هذا الخصوص، وذلك في إطار العولمة الاستراتيجية التي سبق التنويه عنها:

١ - التدافع ودور أوروبا الموحدة:

نوجزه في النقاط الآتية:

١ - تُعدُّ أوروبا الموحدة أول تكتل صليبي موحد، يملك إمكانات سياسية واقتصادية وعسكرية واسعة. إن هذا التكتل يعطي النصارى الأوروبيين وغير الأوروبيين قوة معنوية كبيرة، تزودهم بالعاطفة الجياشة إزاء أي قرار يتعلق بالصراع مع العالم الإسلامي.

٢ - وبسبب وحدة المنطلق الصليبي؛ فإن ما يسمونه «الإرهاب» و «الأصولية الإسلامية» هي العدو الوريث للمعسكر الشرقي - على حد زعم رؤسائهم - الذي ستكون المنازلة معه هي سمة القرن الحالي.

٣ - في إطار تحديد «الأصولية الإسلامية» عدواً رئيساً؛ قامت وستقوم أوروبا الموحدة بتقديم الدعم المنوع الأشكال لكل المؤسسات النصرانية العاملة في العالم، وخاصة العاملة في العالم الإسلامي، ولن يقتصر هذا الدعم على الجوانب الإعلامية والاجتماعية، بل سيتعداه إلى الدعم العسكري كذلك؛ كما حصل في تيمور الشرقية وأفغانستان والعراق وغيرها.

٤ - يعتبر الموقف الغربي في قضية القتل الجماعي الذي قام به النصارى الصرب في البوسنة والهرسك نموذجاً شاخصاً لحقيقة ما يمكن أن تقوم به أوروبا

الموحدة ضد المسلمين ، وكذلك الموقف في كوسوفا والشيستان وتيمور الشرقية والفلبين ؛ إذ إن أصناف المجازر البشرية التي مارسها النصاري في البوسنة والهرسك وكوسوفا وفي تيمور الشرقية ؛ قد تمت جميعاً تحت سمع وبصر الدول الأوروبية ، والتي لم تحرك ساكناً سوى بعض الإجراءات الشكلية التي لم تتجاوز ذرّ الرماد في العيون .

٥ - ستواصل «أوروبا الموحدة» تقديم كل أنواع الدعم لكل من يعيق إعادة قيام دولة أفغانستان الإسلامية على وفق ما كانت عليه أيام حكم طالبان ، ويتضمن ذلك دعم القوى النصراية التبشيرية (النصرانية) التي تمارس الآن كثيراً من الأنشطة في صفوف الشعب الأفغاني المسلم !

٦ - في ظل أوروبا الموحدة لنا الحق أن نتساءل عن الضمانات التي تكفل للمسلمين في البلاد الأوروبية حرية ممارسة شعائرهم والتعبير عن انتمائهم الإسلامي ، وخاصة بعد أحداث ١١ سبتمبر !

٧ - تقوم أوروبا الموحدة بدعم جميع الأنظمة في العالم الإسلامي التي ترفع شعارات العلمانية والقومية ضد العمل الإسلامي ، والذي أخذ تفاعله مع الشعوب الإسلامية أبعاداً ما زالت تتوسع في اتجاه دفعه لأخذ زمام المبادرة .

٨ - من خلال قوة نفوذها السياسي والعسكري ؛ فإن أوروبا الموحدة ستستمر في فرض إرادتها على الأنظمة في العالم الإسلامي لاتخاذ ما تراه مناسباً لمصالحها وداعماً لنفوذها .

٩ - ستبقى أوروبا الموحدة واحدة من أقوى وأبرز قوى الدعم للجهود اليهودية في العالم عموماً ، والكيان العبري على سبيل الخصوص .

٢ - التدافع ودور حلف الأطلسي :

عندما نتحدث عن حلف الأطلسي وعلاقته بالعالم الإسلامي ؛ فإننا نستحضر في أذهاننا قروناً مديدة من الصراع بين المسلمين والصليبيين ، ويمكننا

تلخيص موقف حلف الأطلسي من العالم الإسلامي في النقاط الآتية :

١ - إن حلف الأطلسي يشكّل تكتلاً نصرانياً ينوء ظهره بشارت الحروب الصليبية ، ولا نشك في أن قادة الحلف يستحضرون في أذهانهم تلك الثارات ليرجموها في الخفاء إلى خطط وبرامج توضع خلف أبواب مغلقة ، ثم تُهَيَأ الظروف لتأخذ طريقها إلى التنفيذ (فلسطين ، كوسوفا ، أفغانستان ، العراق ..) .

٢ - نظر حلف الأطلسي بعين القلق إلى أحداث البوسنة والهرسك وكوسوفا ؛ من حيث أن ذلك قد يؤدي إلى إيجاد موطئ قدم إسلامي متقدم في القارة الأوروبية ، ولذلك احتوى تلك الأحداث بطريقته الخاصة ، البوسنة والهرسك عن طريق «اتفاقية دايتون» ، وكوسوفا عن طريق القوات الدولية ، ولذلك فإننا نرى أن حلف الأطلسي يشكّل خطراً بالغاً على المسلمين في أوروبا .

٣ - في قضية الصراع بين أرمينيا النصرانية وأذربيجان الإسلامية ؛ وقف حلف الأطلسي بقوة وراء أرمينيا ، وقدم لها الدعم بأنواع شتى ؛ منها عن طريق الإيعاز لروسيا بمساندة أرمينيا ، ومنها الحيلولة بين تركيا وبين تقديم دعم مؤثر لأذربيجان .

٤ - المصالح البترولية في البلاد الإسلامية تشكّل شريان غذاء رئيس للصناعات الغربية ، ولن يتوانى حلف الأطلسي أو أمريكا وحلفاؤها من أعضاء الحلف عن القيام بعمليات عسكرية تدعم حصوله على البترول من البلاد الإسلامية ، حتى إن أدى ذلك إلى وجود مستمر لقواته في مناطق الآبار النفطية كما هو الحال الآن في العراق . وقد لا يتدخل حلف الأطلسي بشكل مباشر ، بل يستظل بمظلة الأمم المتحدة ؛ كما حصل في حرب الخليج .

٥ - الصراع الإسلامي اليهودي هو واحد من الصراعات الحاسمة في التاريخ ، ويلتقي النصاري واليهود في عدائهم للمسلمين ، ومن ثمّ فإن حلف

الأطلسي يقف بجميع إمكاناته لدعم إسرائيل ، ومن الزاوية الإسرائيلية فإن حلف الأطلسي يشكّل عمقاً استراتيجياً لها .

٦ - إن حلف الأطلسي هو أيضاً العمق الاستراتيجي لبعض الأنظمة الحاكمة في البلاد الإسلامية ، والتي يمكن أن تسقط تحت مطرقة ضغوط الإسلاميين الذين بدؤوا في بعض البلاد الإسلامية بأخذ زمام مبادرة قيادة الشعوب فيها (السودان) ؛ مما يعني احتمال قيام دول إسلامية أصولية حسب تعبيرهم . إن هذه الدول - إن قامت - ستشكّل خطراً ماحقاً على آمال الصليبيين في المنطقة الإسلامية في العالم .

٧ - أيضاً فإن حلف الأطلسي يُعدّ داعماً استراتيجياً مهماً للحركات التبشيرية النصرانية في البلاد الإسلامية ، وذلك بتوفيره الغطاء المعنوي لهذه الحركات ؛ مما يعطيها سهولة في التحرك وقدرة على تنفيذ برامجها .

٨ - سيولي حلف الأطلسي اهتمامات خاصة لكل من أوضاع السودان وإيران وسوريا وليبيا ، وقد يوفر مسوغات للتدخل العسكري في إحدى هذه الدول ، على منوال ما حصل للعراق .

٩ - يعتبر حلف الأطلسي قيام دولة إسلامية في الشيشان نواة لقيام دولة إسلامية في القوقاز وما حولها ، وفي الجمهوريات الإسلامية التي استقلت عن الاتحاد السوفيتي ، ومن ثمّ فإن ذلك يشكّل خطراً استراتيجياً بالنسبة له ، ولهذا فهو يدعم روسيا بقوة للقضاء على المجاهدين في الشيشان بأسرع وقت ، ولكن إلى الآن لم تتمكن روسيا رغم دعم حلف الأطلسي لها من تحقيق تلك الغاية ، ولن تستطيع بإذن الله تعالى .

٣ - التدافع واستراتيجية الهيمنة الأمريكية :

نريد هنا أن نذكر الخطوط العريضة لمواصفات استراتيجية الهيمنة الأمريكية

في تدافعها مع العالم الإسلامي ، وذلك ضمن النقاط الآتية :

١ - وجه صليبي ، وانبعث أصولي نصراني صهيوني .

٢ - دعم مطلق وشامل للكيان اليهودي المغتصب لأرض فلسطين ، وذلك على جميع المستويات السياسية والعسكرية والاقتصادية والإعلامية والثقافية والتربوية والاجتماعية وغيرها ، وهي شريك قوي وفعلي في جميع الأعمال الوحشية والجرائم الهمجية التي يمارسها ذلك الكيان على مدار الأيام والسنين ضد الشعب الفلسطيني الأعزل ، كما أنها توفر له الدعم المعنوي والمادي على جميع الأصعدة الدولية ، وخاصة الأمم المتحدة ؛ بما في ذلك استعمال حق النقض (الفيتو) في مجلس الأمن لإجهاض أي قرار إدانة ضد ذلك الإجرام المذكور .

٣ - التدخل في الشؤون الداخلية لمختلف دول العالم ؛ بما يجعلها تركع للقرار الأمريكي في تلك الشؤون .

٤ - رسم السياسات الخارجية لمختلف دول العالم ؛ بما يحقق مصالح الولايات المتحدة .

إن الدول الكبرى تعاني من هذا الصلف الأمريكي ؛ بما في ذلك روسيا والصين واليابان ودول الاتحاد الأوروبي ، فما ظنك بالدول الأخرى مثل كوريا وإندونيسيا وتركيا وإيران وباقي دول العالم الإسلامي ؟!

٥ - الهيمنة على المصادر الحيوية للطاقة .

٦ - توزيع القوات العسكرية الأمريكية البحرية والبرية والجوية على مختلف القواعد العسكرية والمحيطات والأجواء ؛ لتكون تحت الجاهزية التامة لتحقيق الأهداف الأمريكية بالقوة المسلحة ، تلك الأهداف التي من أهمها تطويق العالم الإسلامي ومصادرة قدراته ومقدّراته ، والقضاء على الصحوّة الإسلامية ، وإعادة صبغته بالصبغة الأمريكية ، ولا ينفك إعلامها عن ترديد : « تأمركوا وإلا أمر كناكم بالقوة » !!

٧ - تقوم الولايات المتحدة بدعم الأنظمة الدكتاتورية في العالم ما دامت سائرة في الفلك الأمريكي ؛ بغض النظر عما تقوم به تلك الأنظمة من قمع لشعوبها، ومصادرة حرية الرأي فيها، وإهمال لخدماتها العلمية والعملية، وسرقة لثرواتها. فإذا ما خرجت تلك الأنظمة قيد أملة عن ذلك الصلف الأمريكي انفتحت لها الحديقة الأمريكية الحمراء كي تعيدها إلى صوابها، وإلا اتهمتها بالدكتاتورية والتسلطية. . وهلمَّ جراً من الأوصاف المعروفة!!

٨ - لا تقبل الولايات المتحدة قيام أي نظام إسلامي حقيقي في أي منطقة من العالم، وضربت لمن يفكر في مثل ذلك مثلاً له في أفغانستان.

٩ - إذا أخفق أي نظام حكم في أي بلد إسلامي في تحقيق الغايات القصوى التي تطلبها الولايات المتحدة منه؛ فإنها لا تتردد في محاولة إسقاطه وإن كان علمانياً، والعراق مثال شاخص لذلك.

١٠ - تريد الولايات المتحدة الاستخفاء بالرداء الديمقراطي لتحقيق أهدافها؛ على الرغم من أنها قد انقلبت على الديمقراطية في بلادها، وصارت تمارس جميع أنواع التمييز العنصري والاجتماعي والثقافي والعنصري في داخل حدودها وخارجها.

١١ - ضربت الولايات المتحدة بحقوق الإنسان عرض الحائط، وأصبح انتهاكها لتلك الحقوق عرفاً دولياً، إلى درجة أنها خرجت من اللجنة الدولية لحقوق الإنسان، وأصرت على موقفها المعلن في دعمها لانتهاكات تلك الحقوق في فلسطين. وما قامت هي به بالفعل في أفغانستان، ومن قبل في فيتنام والصومال وغيرها من الدول. . خير دليل على ذلك.

١٢ - مشروع باول المسمى «مبادرة من أجل شراكة أمريكية شرق أوسطية في التنمية والديمقراطية» هو مشروع خطير، ذكرت تفاصيله في دراسة منفصلة.

١٣ - استراتيجية «القوة من أجل السلام» التي وضعها الجنرال هنري شلتون

بعنوان : التقييم الاستراتيجي في عام ١٩٩٨م ، والقوة من أجل السلام - وقد أشرت إليها سابقاً ، وعناصرها الرئيسة هي :

أ - على الولايات المتحدة أن توجه كل جهدها العسكري خلال العشرين عاماً القادمة لمواجهة تهديدات من دول تمر بمرحلة انتقالية مثل الصين وروسيا ، أو مناوئة مثل إيران وكوريا الشمالية .

ب - احتمالات انهيار دول مثل أفغانستان والبوسنة (فعلاً انهارت أفغانستان ولكن لمصلحة الولايات المتحدة) .

ج - احتمال زوال التهديد الذي يمثله الإرهاب غير المرتبط بدول معينة (أحداث ١١ سبتمبر ألغت هذا الاحتمال) .

د - أن يركز التخطيط المستقبلي على التهديدات المتباينة التي ستواجهها القوات الأمريكية في ظروف سيئة أو غابات كثيفة أو مناطق وعرة أو مدن مزدحمة ، وهذه التهديدات لن تكون لها حدود واضحة .

هـ - أن الولايات المتحدة بميزانية دفاع تبلغ ٢٥٠ مليار دولار لا تستطيع أن تُعد نفسها لأسوأ السيناريوهات في كل محور ، ومن ثمَّ لا بد من زيادة الميزانية حتى تصل على الأقل إلى ٣٠٠ مليار دولار (تمت الموافقة على زيادتها إلى حوالي ٤٥٠ مليار دولار) .

و - يجب أن تعتمد الولايات المتحدة على حلفائها في الناتو ، وعلى إسرائيل واليابان ؛ من أجل تخفيف الأعباء الجديدة ؛ لأن الهدف أن تكون الولايات المتحدة في عام ٢٠١٨م قادرة على تشكيل قوة من كل الوحدات خلال يوم ، وأنه كلما استطاعت الولايات المتحدة توظيف حلفائها قلَّت الأعمال التي يجب أن تتولاها بنفسها ، وكذلك الأخطار .

١٤ - استراتيجية بوش المسماة بـ «الحرب الاستباقية» ، وفحواها قيام الولايات المتحدة بشن الحرب على أية دولة تعتقد أن شن الحرب عليها يحقق الأهداف والأطماع الأمريكية . وتقوم الأجهزة الأمريكية بإعداد الذرائع وافتعال

المواقف لتسويغ شنّ هذه الحرب ، وكانت أفغانستان والعراق أولى ضحايا هذا المخطط اليهودي الصليبي الإجرامي (سبق الإشارة إليها في فصل العولمة السابق) .

٤ - التدافع ودور التكتل الجديد :

قلنا إن التكتل الجديد يضم كلاً من روسيا والصين وألمانيا وفرنسا ، إن جميع هذه الدول لها رؤى واحدة بخصوص عدم تمكين المسلمين من استعادة أمجادهم التاريخية ، إن النزاع بين هذا التكتل وبين الولايات المتحدة هو نزاع على بسط النفوذ على العالم الإسلامي ، ومن الناحية العقدية فهذه الدول تجمع بين النصرانية (روسيا ، ألمانيا ، فرنسا) والشيعية (الصين) ، وهما وإن كانا على كفي نقيض من هذه الوجهة ؛ غير أنهما على رأي موحد بشأن معاداة الإسلام . وعلى هذا الأساس فإن هذا التكتل له مشاركته الفعالة في محاولة طمس الهوية الإسلامية من خلال ركوبه موجة العولمة ، وذلك عن طريق الإعلام والاقتصاد والثقافة ؛ غير أن إصرار الولايات المتحدة على الاستئثار بالهيمنة على العالم الإسلامي ؛ سيجعل منه ساحة صراع مع هذا التكتل على مدى السنوات القادمة ، وهذا يعني أن العالم الإسلامي سيكون مثل الحوض الذي تصبّ فيه شلالات العولمة ذات الألوان المتنوعة ، وسيزيد صاحب كل شلال من قوة تدفق شلاله ليحظى بأكبر مساحة مائية تعبر عن لونه !!

التدافع بين عالمية الإسلام والعولمة المعاصرة إلى أين؟

عندما نقول «عالمية الإسلام» ؛ فإن ذلك يتضمن فيما يتضمنه انتشار الإسلام في العالم ؛ غير أن هذا الانتشار منوط بما يقدمه المسلمون من جهد ، وما يبذلونه من عطاء . صحيح أن واقع المسلمين على ضوء شعب الإيمان في وضع متدهور كما أسلفنا ، ولكن صحيح أيضاً أن حال المسلمين اليوم هو أفضل مما كان عليه قبل أربعين عاماً ، لكنه أدنى بكثير مما ينبغي أن يكون عليه ليخوضوا غمار التدافع بكفاءة ، إن العمل الإسلامي اليوم فيه إيجابيات وفيه سلبيات .

فمن إيجابياته : النهضة العلمية بالعلوم الشرعية ، والدراسات البحثية لواقع المسلمين ، وإنشاء المراكز الدعوية والثقافية في مختلف بقاع العالم ، وتأسيس اللجان الخيرية ، والاهتمام بالجوانب الاقتصادية كانتشار الشركات والبنوك ، وارتفاع رايات الجهاد في عدد من مناطق المسلمين التي سيطر عليها الكفار كالشيشان وكشمير والفليين ، وأخيراً أفغانستان والعراق ، واندلاع الانتفاضة الفلسطينية الثانية ، والاهتمام بالجوانب الدعوية الإعلامية من نشر للكتب والصحف والمجلات الإسلامية ، وكذلك الإذاعات والقنوات الفضائية وغير ذلك من مظاهر الصحوة . كل ذلك يتم رغماً عن المدافعة الشديدة لهذه الأعمال من قبل القوى الداخلية والخارجية .

وأما السلبيات : فتتمثل بشكل أساس في تقاطع استراتيجيات العمل الإسلامي بين الجماعات الإسلامية ، وعدم القدرة على تحديد طبيعة المرحلة وموقعها أو مواقعها من اللوحة الشاملة للسيرة النبوية ، وإخفاقها في استيعاب قدرات أفراد وجماعات المسلمين لتوظيفها في الصراع مع أعداء الإسلام ، وبعدم الإلمام بمخططات واستراتيجيات أولئك الأعداء .

ومن أبرز السلبيات أيضاً : أخذ معظم الجماعات الإسلامية بمناهج الغرب في إحداث التغيير الذي يرمون إليه ، ومن أبرز تلك المناهج الديمقراطية ، وهي من أقوى أسلحة العولمة وأفتكها .

ومن السلبيات أيضاً : محاولة التصدي لأنظمة الحكم التي لا تحكم بما أنزل الله في البلاد الإسلامية باستعمال القوة المسلحة ، وهو خطأ فادح ناجم عن تغليب العاطفة على مقاييس الموازنة بين المصالح والمفاسد ، وينم عن الجهل بمقاصد الشرع من جهة ، وفقه الواقع من جهة ثانية .

ومن السلبيات : ارتفاع رايات الطوائف البدعية باسم الإسلام ، وتمكنها من جذب استعطاف كثير من المسلمين ؛ لكونها ترفع شعارات تتبنى مطالبهم وتدافع عن حقوقهم .

ومن السلبيات أيضاً: تميع مفهومات الولاء والبراء تميعاً شديداً؛ إلى درجة أن بعض المسلمين يؤيدون ويقفون صفاً واحداً مع اليهود والنصارى ضد إخوانهم المسلمين، وذلك انطلاقاً من مفهومات وطنية وإقليمية ضيقة، جاء الإسلام لاجتثاثها وبترها من جذورها.

وسلبيات أخرى يستطيع القارئ المتابع أن يتبينها ويضيفها إلى ما ذكرت . فإذا ما لاحظنا الإيجابيات والسلبيات في الواقع الإسلامي حسبما ذكرنا، وضممنا إلى ذلك العوامل التي ذكرناها تحت عنوان «واقع المسلمين على ضوء شعب الإيمان»؛ سيتبين لنا أن المرحلة الحالية فيها نوعان من التدافع، وكلاهما شديد، وكل منهما على مستويات العقائد والمقاصد والوسائل .

هذان التدافعان هما :

- تدافع في داخل الساحة الإسلامية .
- وتدافع مع أعداء الإسلام من اليهود والنصارى والمشركين في الخارج .
- وإذا ابتعدنا عن العواطف لدى تقييمنا لهذا التدافع؛ فإننا نقول إن تغيير هذه الحال التي نحن عليها الآن يحتاج إلى عدة أمور؛ منها :
- إيجاد علماء على مستوى التدافع يشكّلون مرجعية حقيقية تقود العمل الإسلامي .
- ومنها السير على منهاج أهل السنة والجماعة علماً وعملاً .
- ومنها استجماع القوى الإسلامية وتوظيف طاقاتها بما يناسب مقتضيات المرحلة .

وهذه الأمور الثلاثة سهلة الكتابة عزيزة المنال !

وبناءً على ذلك؛ فإن محصلة التدافع في وقتنا المعاصر ستستمر في مصلحة أعداء الإسلام إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً؛ بحيث تنهياً ظروف وعوامل

تساعد على إعادة كفة الميزان إلى وضعها الصحيح . إن الوصول إلى تلك الغاية يستوجب من العلماء العاملين ، ومن الدعاة الصادقين ، ومن طلبة العلم المثابرين ؛ استفراغ جهودهم واستنهاض هممهم للسير بالدعوة عبر الطريق الشاق والوعر والطويل إلى أن يوافوا سنن النصر والتمكين .

إن الذي ذكرته من خصائص التدافع في العهد النبوي ، بشقيه المكي والمدني ، يعد كشف إنارة لهذا الدرب ونبراس توجيهه للسير في انحناءاته ومنعطفاته .

المشروع الإسلامي ضد العولمة في سياق التدافع:

يجب أن نعترف ابتداءً أنه لا يوجد مشروع إسلامي حضاري لمقابلة العولمة ، لكن توجد محاولات متفرقة ؛ هذه بعضها :

- إعداد دراسات ومقالات عن العولمة ، وهي كثيرة ؛ منها :

* دراسة قدمها الدكتور جاسم بن مهلهل الياسين ، ونُشرت في صحيفة الأنباء الكويتية على حلقات : ابتداءً من ٢٠ / ١٢ / ١٩٩٨ م .

ودراسات أخرى نشرها في صحيفة الوطن في ٢١ / ١١ / ١٩٩٨ م ؛ بعنوان «العولمة .. نوع من الغزو الجديد» ، وهي دراسة قيّمة .

* دراسة لنجيب عبد الله الشامي ، نائب رئيس جمعية التجاريين والاقتصاديين - أبوظبي - ؛ بعنوان : «العولمة أهداف خفية وآثار سلبية» .

* دراسة بقلم ذياب عبد الكريم ؛ بعنوان «العولمة ومستقبل العالم الإسلامي» .

* دراسة بعنوان «ضغط العولمة على مديونية الدول الفقيرة» ، د . نجاح كاظم .

* دراسة بعنوان «العولمة الاقتصادية ما زالت بعيدة عن الاستقرار» ، للدكتور

جلال نيجيري ، الأستاذ بجامعة مرمرية - إسطنبول .

* دراسة بعنوان «العولمة . . ذراع جديدة لأخطبوط الغزو الفكري» ، بقلم عبد الناصر محمد مغنم .

* بحث قدمه الشيخ يوسف جاسم الحجي رئيس الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية في الكويت ؛ للمؤتمر العاشر للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - القاهرة ١٩٩٨ م ؛ تحت شعار «موقف الإسلام من العولمة في المجال الاقتصادي» ، عنوان البحث «العولمة الحديثة تعتمد التقدم التكنولوجي والسباق على امتلاكه» .

* دراسة بقلم سامي عبد المحسن الرويشد ؛ بعنوان : «العولمة أغنية العالم الجديدة» .

- عقد مؤتمرات بخصوص «العولمة» :

* مؤتمر «موقف الإسلام من العولمة في المجال الاقتصادي» القاهرة ١٩٩٨ م .

* مؤتمر «موقف الإسلام والقرن القادم» ١٩٩٨ م .

* مؤتمر مديري العمليات والاستثمار في البنوك الإسلامية ، والذي نظمه بنك دبي الإسلامي بالتعاون مع البنك الإسلامي للتنمية ، واستمر ثلاثة أيام ؛ من ٣٠ / ١ / ١٩٩٩ م إلى ١ / ٢ / ١٩٩٩ م ، حضره ٤٩ شخصية ، مثلث ٣١ مصرفاً ومؤسسة مالية إسلامية من مختلف دول العالم .

* مؤتمر «التعريب والعولمة . . رؤية مستقبلية» القاهرة ١٩٩٩ م .

- مؤسسات إسلامية تخترق العولمة :

* بنوك إسلامية وعددها كبير ، وقد وافقت الحكومة السويسرية مؤخراً على افتتاح أول بنك عربي إسلامي في سويسرا ؛ باعتباره بنكاً دولياً تجارياً خاصاً ،

باسم «كنز بنك»، ورأس ماله ١٠٠ مليون فرنك سويسري (٨٠ مليون دولار) قابل للزيادة مستقبلاً إلى الضعف.

* مؤسسات إعلامية متنوعة.

* مراكز إسلامية في مختلف دول العالم.

* مؤسسات دعوية متعددة.

وغيرها من المؤسسات، لكنها إما «فردية» وإما «رسمية»، وبشكل غير منسق أو متناسق على الأغلب، وهي من ثم لا تمثل «مشروعاً للعالمية الإسلامية».

اقتراحات قدمت لمواجهة العولمة المعاصرة:

أعرض اقتراحين بهذا الصدد - سبق أن تم عرضهما -:

الأول: «تبني أوراق عمل قدمت في الاجتماع الرابع والعشرين لمديري العمليات والاستثمار في البنوك الإسلامية»، وهي كالآتي:

الورقة الأولى: «تأثير العولمة على البنوك الإسلامية»، الدكتور بشير عمل فضل الله، البنك الإسلامي للتنمية.

الورقة الثانية: «العولمة وانعكاساتها على نشاطات المصارف الإسلامية»، الدكتور محمد حسن عبد المجيد - بنك البركة الإسلامي - البحرين.

الورقة الثالثة: «رؤية استراتيجية لعمل البنوك الإسلامية في ظل العولمة»، الدكتور عبد الفتاح محمد فرح - بنك دبي الإسلامي.

الورقة الرابعة: «ترويج صناديق الوقف النقدي في الأمة الإسلامية»، د. م أمنان. بنك الاستثمار الاجتماعي - بنجلادش.

الورقة الخامسة: «المتأخرات في البنوك الإسلامية»، للأستاذ إسماعيل إسماعيل خفاجي، بنك قطر الدولي الإسلامي.

إن الأوراق الأربعة الأولى تتعلق بالعملة بشكل مباشر، وحبذا لو عُقدت مؤتمرات تخصصية أخرى في إطارات الإعلام والثقافة والفكر السياسي والتقدم العلمي وغيرها، وتطرح فيها أوراق تتعلق بقضية تدافع عالمية الإسلام في تلك المجالات مع العملة المعاصرة.

الثاني: نشر في مجلة الاقتصاد الإسلامي - عدد أغسطس ١٩٩٨م رقم ٢٠٩ - بحث يرى فيه الدكتور حسين شحاتة أستاذ المحاسبة بجامعة الأزهر: أن النظام الاقتصادي العالمي (العملة الاقتصادية) كله شريووجب المواجهة (لم يقره على ذلك بعض المفكرين العرب).

ويضع النقاط الآتية لـ «كيفية المواجهة» (باختصار):

- ١ - لا بد من العمل والإنتاج وتحسين الجودة.
 - ٢ - التعاون والتكامل والتنسيق بين رجال الأعمال العرب والمسلمين.
 - ٣ - يجب على المستهلك تفضيل المنتجات الوطنية على الأجنبية.
 - ٤ - تحقيق التكامل والتنسيق بين الدول العربية والإسلامية كخطوة أساسية نحو إنشاء السوق العربية المشتركة.
 - ٥ - الولاء والانتماء والحب للوطن العربي والأمة الإسلامية.
- وقد عارضه الدكتور محمد عبد الحليم عمر أستاذ المحاسبة ومدير مركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامي بجامعة الأزهر، حيث يقرر:
- ١ - لا نستطيع العيش بمعزل عن العالم.
 - ٢ - التعامل مع نظام العملة على أنه تطوير للعلاقات بين الدول.
 - ٣ - يجب العمل على امتلاك أدوات وآليات العملة وحسن استعمالها.

٤ - الإسراع باستكمال خطوات التكامل الاقتصادي بين الدول الإسلامية، وتفعيل دور المؤسسات الإسلامية؛ مثل منظمة المؤتمر الإسلامي، والبنك الإسلامي للتنمية.

٥ - زيادة حركة التجارة البيئية والاستثمارات المشتركة بين الدول الإسلامية. والذي يُلاحظ في هذين الاقتراحين أنهما اقتصرتا على الجانب الاقتصادي في الأغلب، ولا يمثلان مواجهة شاملة مع تحديات العولمة.

اقتراح مشروع متكامل للعمل المؤسسي الإسلامي لمداخلة ومواجهة العولمة العصرية؛

ها هنا أذكر اقتراحي الخاص بشأن ما ورد في العنوان أعلاه.

إن أي مشروع دعوي تغييري ينبغي أن ينطلق من أسس شرعية، وإن الأسس التي بنيت عليها المشروع المقترح هي ما يأتي:

١ - المرجعية: الكتاب والسنة.

٢ - الإطار: العالمية؛ مع الاستفادة من الخصوصية وتوظيفها لخدمة العالمية، وبالعكس.

٣ - الموائمة: الاستفادة من الإفرازات الصالحة أو المحايدة (مثل الإنترنت وبنوك المعلومات ووسائل الاتصالات) في هذا العصر، والتواءم مع مقتضياتها.

٤ - المحتوى: شمولية احتياجات التغيير والمواجهة.

فهذا المشروع يجمع بين:

- الأصالة.

- والمعاصرة.

وينطلق من كون العمل الدعوي التغييري.

- توقيفياً من حيث الأصول.

- اجتهادياً من حيث الوسائل .
 - شورياً من حيث اختيار الأمثل والأولى .
 - عالمياً من حيث مساحة الدعوة وامتدادها .
- وقد جاءت الدراسة الخاصة بهذا المشروع في بابين :
- الباب الأول : القواعد التأسيسية للعمل المؤسسي الإسلامي (محلياً وعالمياً).
 - الباب الثاني : المؤسسات هي مسالك التغيير الشمولي (محلياً وعالمياً).
- وسوف تصدر هذه الدراسة في كتاب منفصل إن شاء الله تعالى .
- هذا وقد وضعت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم الثقافية (إيسيسكو) عدداً من الاستراتيجيات لتطوير التربية في البلاد الإسلامية ، يمكن أن نعتبرها لوناً من ألوان الرد على العولمة الثقافية .
- وفي إطار إقرار تلك الاستراتيجيات عقدت المنظمة المؤتمرات الآتية :
- ١ - استراتيجية تطوير التربية في البلاد الإسلامية (اعتمدها المؤتمر العام الثالث للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة المنعقد في عمان عام ١٩٨٨م).
 - ٢ - الاستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي (اعتمدها مؤتمر القمة الإسلامي السادس المنعقد في داكار عام ١٩٩١م).
 - ٣ - استراتيجية تطوير العلوم والتكنولوجيا في البلدان الإسلامية (اعتمدها مؤتمر القمة الإسلامي الثامن المنعقد في طهران عام ١٩٧٧م).
 - ٤ - استراتيجية العمل الثقافي الإسلامي في الغرب (اعتمدها مؤتمر القمة الإسلامي التاسع المنعقد في الدوحة عام ٢٠٠٠م).

٥ - استراتيجية الاستفادة من العقول المهاجرة في الغرب (اعتمدها المؤتمر الإسلامي التاسع والعشرون لوزراء الخارجية المنعقد في الخرطوم عام ٢٠٠٢م).

٦ - استراتيجية التقريب بين المذاهب الإسلامية (اعتمدها المؤتمر الإسلامي الثلاثون لوزراء الخارجية المنعقد في ماليزيا عام ٢٠٠٣م)^(١).

التحصن الذاتي ضد العولمة:

هل من المستطاع إيجاد وسائل للتحصن الذاتي ضد العولمة؟! الجواب: نعم، إذا أخذت الأمور بالجدية المناسبة، وأعطيت حقها من القرار السياسي. ولعله من المؤسف أن نجد ضالتنا في ضرب المثال على ذلك من الكيان اليهودي، إن مثالنا يتعلق بنموذج التحصن اللغوي.

يقول الدكتور محمد عباس عبد الحق - الأستاذ بجامعة بيرزيت بفلسطين في (مؤتمر التعريب والعولمة رؤية مستقبلية) - الذي عقد في القاهرة ١٩٩٩م -: «إسرائيل المزعومة استطاعت تذويب ١٢٠ لغة وأكثر من ثلاثين قومية، وتم مزج هذا المجتمع المهلهل في كل المناشط، وفي الجيش والبوليس والبحث العلمي، وأحيوا لغة ميتة هي اللغة العبرية، وهي الآن لغة العلم في أحدث صوره. . نعم! هم لصوص ولكنهم يعملون.

إن هذه العبرية الميتة أصبحت الآن لغة الأبحاث الذرية في معهد وايزمان، ومن قبل أصبحت لغة التدريس في جامعات حيفا وتل أبيب والنقب وبار إيلات، وهذا لم ينشأ من فراغ، فقد سبقه تخطيط كامل، وعمل متواصل لعبنة التعليم بالمدارس والجامعات الصهيونية؛ لبعث العبرية من خلال الرؤى الدينية العبرانية بين اليهود في أنحاء الأرض عبر شتاتهم وحاراتهم وأزقتهم، هذه الحركة النشيطة التي قادها الصهيوني «العزار بني يهودا» الذي وضع خطة من سبع

(١) العالم الإسلامي والعولمة، عبد العزيز التويجري، بحث نشر في كتاب «رسالة المسلم في حقبة العولمة»، ص ٣٢، حاشية رقم (١).

مراحل لإعادة استعمال العبرية، وتم تطبيقها بكل دقة . . فمتى نتعلم؟! .

التدافع مع العولمة من خلال الكتب المنشورة :

لقد نُشرت كتب كثيرة في إطار التدافع مع العولمة، وهي كتب منوعة، بعضها يؤيد العولمة، وبعضها الآخر يعارضها، وبعضها يفصل في ذلك . وأسرّد تحت هذا العنوان أسماء مجموعة من الكتب لإثراء معلومات الباحثين والدارسين، وهي كالآتي :

عنوان الكتاب	اسم المؤلف
فخ العولمة	هانس بيتر مارتين وهارالد
العولمة	شومان مصطفى الطحان
نذر العولمة	عبد الحي زلوم
العولمة والطريق الثالث	سيد بيسن
اتفاقيات الجات وآثارها على دول الخليج العربي	محمد سليم
الآثار الاقتصادية لاتفاقية الجات	محمد علي إبراهيم
اتجاهات العولمة : إشكاليات الألفية الجديدة	السيد ولد اباه
الإنسان العالمي : العولمة والعالمية والنظام العالمي العادل	فضل أبو النصر
انعكاسات العولمة على الوطن العربي	أحمد مجدولاي
تداعيات عاصفة الأبراج : عصر العولمة	ثامر كامل محمد
الثقافة والعولمة والنظام العالمي	كينج ، أنطوني
الخروج من فخ العولمة	كمال الدين المرسي
الديمقراطية هي الحل لخاطر العولمة	بطرس غالي
صراع الأمم بين العولمة والديمقراطية	أسعد السحمراي

عنوان الكتاب	اسم المؤلف
العالمية والعولمة	السيد ياسين
العلمانية والعولمة والأزهر	كمال الدين عبد الغني مرسي
العولمة : وحدة وصراع النقيضين	سعاد خيرى
العولمة اقتصادياً	يونس كامل ديب
العولمة بعيون ديمقراطية	سليم محمد غضبان
العولمة بين الأنصار والخصوم	رجب بودبوس
العولمة التجارية والإدارية والقانونية : رؤية إسلامية جديدة	كامل أبو صقر
العولمة : دراسة في المفهوم والظاهرة والأبعاد	ممدوح محمود منصور
العولمة - رؤية إسلامية -	كامل أبو صقر
عولمة السيادة - حال الأمة العربية -	حسن البزاز
عولمة الفقر	تشوسو دوفيسكي ، مشيل
عولمة الفقر	إسماعيل قيره
عولمة القهر	جلال أمين
العولمة ليست الخيار الوحيد	منير الحميش
العولمة .. مفهومها ، مظاهرها	ماجد محمود شذود
العولمة الناقصة	يزيد صايغ
العولمة واقتصاديات البنوك	عبد المطلب عبد الحميد
العولمة والإقليمية	أسامة المجدوب

عنوان الكتاب	اسم المؤلف
العولمة والديمقراطية	كمال مجيد
العولمة وقضايا الاقتصاد السياسي	بدري يونس
العولمة وقضايا اقتصادية معاصرة	عمر صقر
العولمة وآثارها في العالم الثالث : التحدي والاستجابة	علاء الدين ناطورية
العولمة وأثرها في المجتمع الإسلامي	عصام نور
العولمة والتنمية الاقتصادية	وداد أحمد
العولمة والدولة - الوطن والمجتمع العالمي	غسان منير حمزة سنو
العولمة والهوية الوطنية	غازي عبد الرحمن القصيبي
فرنسا ومسار العولمة	فيدرين ، هوبير
العولمة والمجتمع المدني	شوقي جلال
إدارة العولمة	جورج لودج
انهيار العولمة	رضا عبد السلام
أيديولوجية العولمة	عبد الله عثمان عبد الله
بينات ترهقها العولمة	زكريا طاحون
حقيقة العولمة	أحمد العربي المشرقي
خيبات العولمة	ستعليتز جوزيف أ
الدول النامية والعولمة	محمد صفوت قابل
مخاطر العولمة على التنمية المستدامة	باقر محمد وردم

عنوان الكتاب	اسم المؤلف
العلوم السياسية بين الأقلمة والعولمة	محمد محمد جاب الله عمارة
العولمة أفق وإرث يثير المخاوف	صالح السنوسي
العولمة الديناميكية الداخلية	كير كبرايد، ورد، كارين
العولمة : الضغوط الخارجية	كير كبرايد، بول
العولمة في إدارة المنظمات العالمية	صلاح عباس
عولمة الكراهية	أحمد طحان
العولمة المالية ومستقبل الأسواق العربية	شذا جمال خطيب، صعفق أكربي
العولمة من تحت : قوة التضامن	برشر، جيرمي / كوستيلو، تيم
عولمة النظام الاقتصادي العالمي	عادل المهدي
العولمة والإرهاب، حرب أمريكا على العالم	نعوم تشومسكي وآخرون
العولمة وتحولات العالم	محمد محفوظ
العولمة والمجتمع، التحديات الجديدة	محمد الموسوي
قضايا العولمة والمعلوماتية	مفيد الزبيدي
القفز فوق العولمة	محمد رؤوف حامد
المرأة والعولمة	فيشتريش، كريستا
عالمية الإسلام ومادية العولمة	سميح عاطف الزين
ظاهرة العولمة، رؤية نقدية	بركات محمد مراد
العولمة والتربية	أحمد عبد الله العلي

النصر المبين للإسلام عاقبة تدافعه مع العولمة:

سنة جارية، أمضاها الله - تعالى - لينصر بها دينه ويعلي بها كلمته، تلك السنة هي سنة استبدال الأجيال، فأما جيل يتوانى عن القيام بواجبه في سنة التدافع؛ فإن الله - تعالى - يعاقبه بسبب توانيه، ثم يستبدل جيلاً غيرهم يقومون بالواجب ويؤدون المهمة، قال - تعالى -: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٩]، وقال - تعالى -: ﴿وَأِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]، فالتولي وعدم النفير لا يستوقفان مضاء سنة الله - تعالى - في نصر دينه، بل يستوجبان تغيير هذه الأجيال التي وقع عليها الوصف، والإتيان بأجيال أخرى مخالفة لجيل أو أجيال التولي والقعود، فتنهض بالأمر وتحمل المسؤولية وترفع الراية وتغذي السير نحو موعود الله. وإنه من مدعاة الأسف حقاً أن أقول إن أجيالنا - منذ حوالي قرن - قد انطبق عليها وصف التولي وعدم النفير؛ إلا من رحم الله، وأقصد بهم الذين شرعوا ببدء عملية التغيير التي بدأت منذ حوالي ثلاثين عاماً، والتي ذكرنا إيجابياتها سابقاً، والذين قدحوا ومضات الجهاد المتوزعة هنا وهناك، وعزائم فلسطيني الانتفاضة.

لقد منَّ الله - تعالى - على هذه الأمة بأن بين لها أن العاقبة في النصر النهائي ستكون من نصيبها وهو قدرها، وذلك لكيلا ييأس أهل العزائم وأصحاب الدعوة مما ينتظرهم في نهاية المطاف، وليعلموا أن عليهم أن يشقوا سبيلهم بالحكمة، ولا يستوحشوا من طبيعة الطريق ولا من طول امتداده، فإن النبي ﷺ قد بشرهم بقوله: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك» (هذا لفظ مسلم من رواية ثوبان)^(١). وإن الله - تعالى - قد وعد أهل الإسلام بأن عاقبة التدافع ستكون لهم، قال

(١) صحيح مسلم، (٣ / ١٥٢٣)، رقم ١٩٢٠.

- عز وجل -: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ [التوبة: ٣٢ - ٣٣] ، وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : «إن الله زوى لي الأرض مشارقها ومغاربها ، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها»^(١) . وعن تميم الداري - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين ، يعز عزيزاً ويذل ذليلاً ، عزاً يعز الله به الإسلام ، وذللاً يذل الله به الكفر»^(٢) . وأخرج أحمد والدارمي وابن أبي شيبة والحاكم وغيرهم عن أبي قبيل قال : «كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص ، وسئل : أي المدينتين تفتح أولاً : القسطنطينية أو رومية ؟ فدعا عبد الله بصندوق له حلق ، قال : فأخرج منه كتاباً ، قال : فقال عبد الله : بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب ؛ إذ سئل : أي المدينتين تفتح أولاً : القسطنطينية أو رومية ؟ فقال رسول الله ﷺ : مدينة هرقل تفتح أولاً . يعني قسطنطينية»^(٣) . و«رومية» هي روما عاصمة إيطاليا ، وفي الحديث بشرى بفتحها . وروى حذيفة مرفوعاً : «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكاً عاضاً ، فيكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها ، ثم تكون ملكاً جبرياً ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة . ثم سكت»^(٤) .

ها نحن الآن في مرحلة الملك الجبري الذي ساده من أمسكوا بزمام السلطة

(١) صحيح مسلم ، (٤ / ٢٢١٥) ، رقم ٢٨٨٩ .

(٢) رواه أحمد والطبراني ، وصححه الألباني ، انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة ، رقم ٣ .

(٣) انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة ، رقم ٨ .

(٤) رواه أحمد والبخاري والطبراني ، انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة ، رقم ١ .

بالقوة والبطش والإرهاب، ونسأل العلي القدير أن يكون هذا الليل في آخر ساعاته ليبزغ بعده فجر الخلافة على منهاج النبوة، فيتجدد للناس أمر دينهم.

إن العلماء العاملين والدعاة الصادقين في أي عصر من العصور؛ باستطاعتهم أن يقودوا جموع المسلمين تحت راية التجديد إذا انتبهوا لأهمية النقاط الآتية؛ ليحسنوا من خلالها إدارة صراع التدافع مع أعداء الله تعالى:

١ - الحقائق الوصفية التي عليها حال المجتمع المسلم من حيث قربه أو بعده عن الامتثال للإسلام كما هو مفهوم عند أهل السنة والجماعة: وفي هذه النقطة يُؤخذ بعين الاعتبار تنوع البيئات واختلاف الظروف التي تحكم كل بقعة إسلامية، ومن ثم فإن الحقائق الوصفية تتناول الخطوط العريضة الإجمالية التي تشمل مجمل المجتمع المسلم، وكذلك الخطوط الدقيقة التفصيلية التي تخص كل بقعة منفصلة.

٢ - إلحاق كل حقيقة وصفية بما يقابل نوعها من جهة التوصيف الشرعي:

فتنقسم عندها الحقائق الوصفية بحسب الكليات الخمس: إلى حقائق وصفية تتعلق بالدين، وأخرى بالنفس، وثالثة بالنسل، ورابعة بالمال، وخامسة بالعقل. ثم تقسم الحقائق الوصفية الملحقه بكل كلية إلى ما تدرج تحته من مستويات الضرورة أو الحاجة أو التحسين؛ مع مراعاة ما يمكن أن يحصل من تداخل في هذه المسألة، حيث يمكن أن تتعلق الحقيقة الوصفية الواحدة بأكثر من كلية، ويمكن أن تدرج في أكثر من مستوى.

٣ - ثم يُنظر في كل حقيقة وصفية بحسب موقعها في الكليات والمستويات: فيقال: ما سنة الله - تعالى - الجارية التي تدرج تلك الحقيقة الوصفية ضمنها؛ بمعنى ما النص الشرعي من كتاب أو سنة الذي يعمل به فيما يتعلق بتلك الحقيقة الوصفية؟

٤ - ثم يُنظر بعد ذلك، فيقال: ما سنّة الله - تعالى - الجارية في كيفية تطبيق ذلك النص بشأن الحقيقة الوصفية التي ألحقناها به؟

مثال مبسط: الجهاد في سبيل الله:

١ - نأخذ للتطبيق العملي إحدى البلاد الإسلامية، ولتكن (....). إن الحقيقة الوصفية للجهاد في سبيل الله في تلك البلاد أنه معطل.

٢ - هذه الحقيقة الوصفية معلوم أنها ملحقة بكلية «حفظ الدين»، وذلك من حيث درء الخطر عنه من جهة العدم، ومن حيث نشره في العالم من جهة الوجود.

٣ - لقد جاءت النصوص الشرعية الكثيرة في الكتاب والسنة بخصوص وجوب الجهاد في سبيل الله لنشر الدين ودرء الخطر عنه، فعلم أن سنّة الله - تعالى - جارية بأن إعزاز الدين لا يكون إلا بالجهاد في سبيل الله تعالى.

٤ - فهذه البلاد التي فيها الجهاد معطل؛ ما سنّة الله - تعالى - الجارية في إزالة تعطليه؟! فعندها يُنظر في سبب التعطيل، ثم يُنظر في سنّة الله - تعالى - الجارية لإزالة سبب التعطيل.

إن الذين يقومون بهذه المهمة هم العلماء العاملون، وقد جرت سنّة الله - تعالى - ألا يخلو منهم عصر، فبشرى للمسلمين! إن المستقبل لهذا الدين، ولو بعد حين.

الفصل الرابع

المدافعة الحضارية وبناء المشترك الإنساني بين العالمية والعولمة

- الرصيد .
- المكّي والمدني في المدافعة الحضارية .
- مقومات المدافعة الحضارية في المجتمع الإسلامي .
- انهيار التيارات القومية والاشتراكية والليبرالية والعلمانية أمام المدافعة الإسلامية الحضارية .
- تدافعات وتقاطعات المصالح الحضارية في المشترك الإنساني في ظل العولمة .
- العالمية والعولمة والمعادلة الحضارية الصعبة .
- رائدة العولمة (أمريكا) والتدافع الحضاري (رؤية من الداخل) .

المدافعة الحضارية وبناء المشترك الإنساني بين العالمية والعولمة(*)

الرصيد :

دخلت الأمة الإسلامية القرن العشرين الميلادي (أي قبل حوالي قرن من الآن)؛ وهي مكتنزة لرصيد حضاري عظيم في جميع المجالات وعلى كل المستويات؛ غير أن هذا الرصيد كان قد تحولَّ معظمه إلى تراث علاه الغبار، وأصبح قصائد يتغنى بها الشعراء، وأوراقاً صفراء على شكل مخطوطات موزعة في المكتبات في شتى بقاع العالم. ويوم أن كان هذا الرصيد حقيقة حية كانت أرجاء العالم الإسلامي تضج بالعلماء وطلبة العلم، وكانت جيوش الإسلام تفتتح الأقاليم والبلدان، وتطيح بعروش الطغاة والمشركين، وتنشر العدل والقسط في كل مكان.

وعلى الرغم من أن التتار سودوا ماء دجلة بمداد ملايين الكتب؛ فإن المكتبات العربية وغير العربية لا تزال تحتفظ بمعاجم تراجم العلماء في العقيدة والحديث والتفسير والأصول والسيرة واللغة والجبر والحساب والمثلثات والضوء والكيمياء والفلك والطب والصيدلة والفيزياء والهندسة والزخرفة والبناء، وقادة الجيوش والفلاسفة والمفكرين والصناعيين والمهنيين، وسوى ذلك كثير مما يشكّل لبنات البناء في أية حضارة. ويوم كان الظلام يخيم على أم الأرض، سواء في أقاصي آسيا أو أوروبا أو إفريقيا، كان نور العلم وضياؤه يشع بإبهار على ربوع البلاد الإسلامية قاطبة. ويوم كان الفقر يعيش في تلك البلاد كان أمراء المسلمين

(*) نشر المؤلف بعضاً من هذا الفصل في كتاب: (رسالة المسلم في حقبة العولمة)، إعداد وإصدار مركز البحوث والدراسات في قطر.

يوزعون المال فلا يجدون من يأخذه!! وهل مرَّ على البشرية يوم كذاك اليوم الذي يخاطب فيه الخليفة السحابة قائلاً: «أمطري حيث شئتني فإن خراجك سيرجع إلي»؟!!

لقد نعمت الشعوب قروناً طويلة بسيادة المسلمين في أقاليم الأرض وإمساكهم بزمام مقاليد الحضارة، ولكن يوم أن بدأ حظ الدنيا يسيطر على القلوب ويأخذ بالأفئدة، وأخذ حسّ الآخرة يخبو في الصدور شيئاً فشيئاً، واختلف المسلمون على اللعاعات فبرزت دول الطوائف، وتمكن الصليبيون من غزو المسلمين في عقر دارهم على مدى قرون متعددة؛ يوم أن حصل هذا آل الأمر إلى ما آل إليه، وأصبحت تلك الحضارة المشيدة مجرد ذكريات يُحلي بها الكتاب صحائفهم، ويوشون بها كتاباتهم، فآلت إلى مجرد تراث وذكريات، ودخلت في حسابات «الرصيد» تنتظر من يستخرج كنوزها من جديد.

ورغم ما اندس في طيات هذا الموروث العظيم من أفكار وعقائد وافدات، ورغم ما حصل من تمازج وتداخل مع شعوب متنوعة الأجناس؛ فإن ذلك لم يتمكن من طمس الأصول المرجعية لهذا الدين، فالمحجة البيضاء التي تركها لنا النبي ﷺ، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك^(١)، وهي الكتاب والسنة، لا يزالان على حالهما، بل ما زاد تتابع السنين هذين المرجعين إلا مزيداً من التفسير والشرح؛ بما بذله علماء الأمة على مرّ العصور من جهود عظيمة، ولا تزال الجهود العلمية على مستويات التخصص تصبُّ في لجة تنقية السنّة، حتى أضحى بين أيدينا كم عظيم من المجلدات الحديثية التي فرزت الصحيح من الضعيف. إذّا؛ فإن مادة إعادة الانطلاق الحضاري الإسلامي لا تزال راسية القواعد بين

(١) أصل الحديث أخرجه أحمد والحاكم وابن ماجه، وهو في السلسلة الصحيحة للألباني، رقم

ظهرانينا، ولكن ينقصنا الذين يحملونها بحقها. وسنعرض هذا الموضوع لاحقاً.

المكي والمدني في المدافعة الحضارية:

واقعنا مكي أم مدني؟!

برز هذا السؤال لدى كثير من الجماعات الإسلامية والدعاة الإسلاميين، وكان السبب وراء إبرازه هو: من أين ننطلق في المدافعة الحضارية المعاصرة؟! وما المشترك الإنساني القابل للتداول بين المتدافعين؟

إن ساحة البلدان الإسلامية من حيث هي؛ ليست الآن ساحة متحدة، بل هي كيانات سياسية مستقلة بعضها عن بعض، ولكل كيان سياسي خصائصه من حيث اللغات والأجناس والقبائل والعادات والأعراف، ولكل حكومته وأحزابه وإعلامه وعلمائه وجماعاته ومفكره ومثقفوه وجيشه وشرطته وثرواته وعلاقاته مع الدول، وغير ذلك مما يعتبر لبنة في بنائه الذاتي.

وبناءً على ذلك؛ فإنه من المتعذر التعامل مع هذا الواقع من خلال كياناته المتنوعة والمختلفة من منظور واحد. إن هذه الكيانات، وإن كان واقعها كما ذكرت، لكنها جميعاً تتحد، أو توشك أن تتحد، في خصائص بالغة الأهمية والخطورة، ومن أهمها:

* أنها لا تحكم بما أنزل الله تعالى؛ أي أن مرجعيتها خارج الكتاب والسنة.

* أنها تعادي العمل الإسلامي، وبعضها يعادي الإسلام علناً.

* أن صبغة علاقاتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها علماني اللون.

* أنها توالي الغرب الصليبي.

* أن معاداتها لدولة الكيان اليهودي المعلنة لا تعبر عن الحقيقة المبطنة.

* أنها تشجّع نشر الفساد العقدي والسلوكي ؛ أي أن أبواب الشبهات والشهوات فيها مُشرعة .

إن هؤلاء (أي الكثير من الجماعات الإسلامية والدعاة الإسلاميين) ؛ بعد أن اتفقوا على أن تلك الخصائص هي من مكونات تشخيص الواقع ؛ اختلفوا في منطلق التعامل معه ، فبرزت ثلاثة توجهات :

التوجه الأول : قال أصحابه : إن واقعنا أشبه ما يكون بحال العهد النبوي المكي ، وذلك :

١ - أن الأنظمة الحاكمة بغير ما أنزل الله ما هي إلا مثل المأل الذين وقفوا ضد دعوة الرسول ﷺ في مكة ، ومثل المأل الذين كانوا يضادون دعوات الأنبياء والرسل السابقين ، فما تفعله تلك الأنظمة ضد الإسلام والعلماء والدعاة لا يخرج في جوهره عن ذلك .

٢ - أن الحركة الإسلامية في ظل هذه الأنظمة لا تستطيع أن تمارس حرية الدعوة إلى الإسلام بكماله وشموليته التي نزل بها من الله تعالى ، وإن حالهم مع هذه الأنظمة لا يخرج في جوهره عن حال النبي ﷺ وصحابته مع ملأ قريش .

وبهذين الوصفين ؛ فإن «التدافع» له مواصفات «التدافع» نفسها التي ذكرناها في العهد المكي . وعليه ؛ فإنهم يقولون إن ما يجب أن نأخذه من حضارة اليوم هو فقط ما يخدم ويصبّ في بحيرة هذا التدافع ، وما عدا ذلك فإننا نرده ونرفضه وندافعه ، وكما قاوم الرسول ﷺ ملأ قريش بالصبر والعمل الدعوي (وليس الجهاد) ؛ فكذلك فإننا نقاوم هذه الأنظمة بالصبر والعمل الدعوي . ثم إنهم اختلفوا في مفهوم وكيفية العمل الدعوي ؛ هل هو تجمع سري أو حزب معلن؟ وهل المساهمة في بنية النظام الحاكم جائزة أو لا؟ وإذا كانت جائزة هل هذا يقتصر على المساهمة في وظائف الدولة أو يتعداه إلى المساهمة في النيابة (أي المجلس النيابي) والوزارة؟ إلى غير ذلك من التوجهات والمفهومات . غير أن الذي يهمنا

في هذا هو أن الاستغراق في كل ذلك قد فوت شمولية النظرة في معنى التدافع الحضاري المعاصر ومقوماته وآلياته؛ سواء ما تعلق منها بالمناهج أو الوسائل .

التوجه الثاني : قال أصحابه : إن واقعنا الآن أشبه ما يكون بالواقع المدني، وذلك :

- ١ - أننا مخاطبون بالشريعة كلها ، وليس فقط بما أنزل منها في العهد المكي .
- ٢ - أن القائمين على الأنظمة الحاكمة فيها (أي في البلدان الإسلامية) مسلمون من حيث الجملة ، وليسوا كفاراً كما هو حال أفراد الملة . والخصائص التي ذكرت لتلك الأنظمة ، وإن كانت صحيحة مع بعض التفاصيل ، لكن الموقف منها داخل في إطار مفهوم المدافعة عن طريق «الحسبة» و «النصيحة» (وبعضهم قال أن تكون سراً للحاكم!!)، وليس في إطار مفهوم المدافعة عن طريق «التكفير» و «الإخراج من الملة» .

وبناءً على ذلك ؛ فإن المدافعة الحضارية عند هذا الفريق تكون من خلال محاولة عدم التحيز ؛ أي عدم الانفصال عن الجماهير ، بل العمل على البقاء في داخل إطار عموم الحركة الجماهيرية للشعوب الإسلامية ؛ بمعنى أن تكون الحركة الإسلامية ممتزجة مع عموم الشعوب الإسلامية وتشكل معها نسيجاً واحداً ، يتعامل مع الحضارة من منطلق «وحدة الكيان الانتمائي» ، وليس من منطلق التمييز الإسلامي . ولم يستطع هذا الفريق البرهنة على كيفية احتفاظه بالتمييز الإسلامي وعدم انصهاره في المفهوم العام للحضارة الحالية ، إلا إذا كان هذا الفريق لا يهتم كثيراً بهذا التمييز ، أو كان يرى ، أو بعضه يرى ، أن هذا التمييز لا ينبغي أن يكون أصلاً لأنه من معوقات الانطلاقة الحضارية . وأكثر ما يعبرون عنه في نظرتهم تلك ؛ هو مساهمتهم في المتاح الديمقراطي ؛ رغم أنهم يعرفون أن المساحة المتاحة محسوبة بعناية فائقة .

وأما التوجه الثالث فقال أصحابه : إن واقعنا ليس مكياً محضاً وليس مدنياً

محضاً، وذلك :

- ١ - أننا مخاطبون بالشرعية كلها ، وقد تعبّدنا الله - تعالى - بكامل دينه ، قال - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ [البقرة: ٢٠٨] ، وليس فقط ببعضه الذي نزل في العهد المكي (وهذا ما انتهى إليه الأمر في العهد المدني) .
- ٢ - أن حال الأنظمة الحاكمة المعادية للإسلام هو كحال الملأ الذين وقفوا ضد دعوة التوحيد التي جاء بها الأنبياء ، وخاتمهم الرسول ﷺ (وهذا أشبه بالواقع المكي) .

قالوا : ولذلك فإن المسلم الآن يعيش في تناقض واضح ، فهو مطالب من الله - تعالى - بطاعة ربه ؛ أي باتباع الكتاب والسنة ، ومطالب من النظام الحاكم بطاعة الحاكم ؛ أي باتباع دستوره وقوانينه . وهذا يعارض هذا ؛ أي الدستور والقوانين تعارض الكتاب والسنة ، فماذا يفعل ؟ ! إن أراد طاعة ربه خرج على طاعة النظام الحاكم فسجنه وعذبه أو أعدمه ، وإن أراد طاعة النظام الحاكم أسخط ربه وأغضبه فاستحق عقابه !

فقال أصحاب هذا التوجه إن تعاملنا مع الواقع يحمل نوعين من المواصفات في المدافعة : نوعاً يستقى من مواصفات التدافع في العهد المكي ، ونوعاً يستقى من مواصفات التدافع في العهد المدني . ولما كان معنى هذا الكلام هو مد البساط إلى مداه في مفهوم ومتطلبات المدافعة الحضارية ومفهوم المشترك الإنساني ؛ فإن الرؤى والأفكار والتنظيرات قد كثرت في هذه المساحة وأوجدت لها مدارس عدة في طريقة التعامل مع هذا الواقع .

ومن أبرز تلك المدارس ثلاث :

المدرسة الأولى : مدرسة المدافعة بالجهاد : وهي التي ابتدأت باستعمال القوة ضد النظام الحاكم ، ثم تطورت بعد أن حصل الاحتلال السوفيتي لأفغانستان ،

فأعطائها بعداً دولياً، ثم جاءت حرب تحرير الكويت والتي بسببها حصل الوجود الصليبي الأوروبي الأمريكي في الخليج، فتوسعت الدائرة، ونجم عن هذا التوسع أحداث الحادي عشر من سبتمبر، والتي بدورها أعطت المسوغ للصليبيين بقيادة الولايات المتحدة لاحتلال أفغانستان (وقد كان ذلك مقررّاً بالأصل بغضّ النظر عن أحداث سبتمبر)، فأصبحت دائرة المدافعة عالمية، ثم جاء احتلال العراق فعزز هذا التوجه وقوّاه ودعمه بقوة، فانفرزت الصفوف، وتمايزت الخنادق، وتوضحت الرايات.

وفي مثل هذه الأجواء المكفهرة والأحداث المتلاحقة، تعززت لدى هذه المدرسة مفهومات المفاصلة الحضارية، وضعفت في أحاسيسها مفهومات المشترك الإنساني؛ خاصة أنها قد أُلجئت إلى المخابئ والكهوف وشعاب الجبال، وصارت تحت حماية القبائل والعشائر؛ مع شعورها بالاستهداف الاستتصالي والاجتثاث الجذري بعد أن استعملت ضدها الحضارة الغربية، من خلال القوى الصليبية وعملائها، جميع أنواع الأسلحة الفتاكة ذات الدمار الهائل وأحياناً الشامل؛ غير أبهة بقتل المدنيين من الرجال والنساء والأطفال والعجزة والكهول، وغير موقرة في تدميرها المستطير المساجد والمدارس والمستشفيات والجسور والملاجئ والأسواق، بل وجميع مقومات البنى التحتية من منشآت للمياه والكهرباء والطاقة وسوى ذلك. وقد ولّد هذا التصرف لدى هذه المدرسة نظرة إلى الحضارة الصليبية ملؤها الكراهية والمقت والبغض، وقد أدّى ذلك إلى رفض كثير مما لدى تلك الحضارة إلا ما كان ممكناً توظيفه لخدمة برامج ومناهج تلك المدرسة؛ من مثل الحاسوب، والشبكة العالمية (الإنترنت)، والأجهزة الإلكترونية التي تخدم الجهاد، وما كان في حكم ذلك.

إن هذه المدرسة، وهي تمارس عملية الجهاد، لم تطرح مشروعاً يتعلق ببناء دولة إسلامية تملك مقومات المدافعة الحضارية، ولا هي تملك من الطاقات

البشرية المتخصصة ما يمكن أن تقيم بهم دولة على وفق المنهاج الإسلامي الذي تتبناه، ولذلك فإن أخذها بالأسباب المادية للنصر في المدافعة مع الحضارة الغربية الصليبية ضعيف وهزيل، وفي بعض النواحي معدوم. وقد فطن أعداء الإسلام لهذه الحقيقة، وعرفوا هذه الثغرة، فاستغلوها أبشع استغلال، وكانت أفغانستان الطالبان محطتهم الأولى في استغلال الفارق العظيم والكبير بين طرفي التدافع. لقد كانت دولة الطالبان (التي كانت ثمرة الجهاد) تسابق الزمن لمحاولة سد جزء ولو يسير من هذه الثغرة؛ إذ هي في الأصل لم تكن مستعدة لها من قبل؛ بسبب انتقالها فوراً من الخنادق إلى الإمساك بزمام دولة مهترئة ممزقة متلاشية المقومات، ولم تكن تملك تصوراً لإدارتها ولا طاقات بشرية للقيام بأعبائها، وكان قدرها أن تكون مدافعتها الأولى مع أعظم تجمع صليبي شهده التاريخ، فحصل انهيارها بأسرع من المتوقع.

لقد كان ذلك عبرة كبيرة لهذه المدرسة، وكانت أحداثها دروساً بليغة لها؛ غير أن الأحداث التي تبعت سقوط دولة الطالبان الإسلامية دلّت على أن هذه المدرسة لم تحسن تقييمها بعمق. وقد آل الحال بها الآن إلى الانتقال إلى محاولة إبقاء الحياة فيها وبين صفوفها؛ على أمل إعادة ترتيب الأوراق مع التسليح بالصبر على العوائق والمشاق، وهم يرون أن شعلة الجهاد شعلة مباركة تضيء ظلمات الواقع الحالي، وأنهم وإن لم يكن لهم من المغنم إلا تحقيق حديث الرسول ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس»^(١) لكان ذلك كافياً لهم. وإذا كانت الحضارة الغربية تدوس بقدميها على المشترك الإنساني، وتضرب به عرض الحائط؛ فلماذا هم يحافظون عليه؟!

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٤٩٩، رقم ١٢٤٩، واللفظ لمسلم، صحيح مسلم، (٣ / ١٥٢٤)، رقم ١٠٣٧.

بعد هذا العرض لاحظنا كيف أن هذه المدرسة قد حاولت الجمع بين كون المسلمين مخاطبين بالشريعة كلها، وبين مجاهدة الأنظمة الحاكمة الراضية لتطبيقها؛ فهل أدركت أنها قد أصابت في بعض وأخطأت في بعض؟!

المدرسة الثانية: إن أصحاب هذه المدرسة يرون أن الجهاد ضد اليهود والصليبيين إذا كان واضح المعالم، كما في الشيشان وأفغانستان وكشمير والفلبين وإريتريا والعراق، فهو يخدم مشروعه في الجملة، لكنه ليس هو مشروعه. وأما استعمال القوة ضد الأنظمة الحاكمة في العالم الإسلامي باسم الجهاد؛ فإن ذلك لا يخدم مشروعه، بل يعوقه ويعرقل مسيرته، وذلك لأنه يؤلب تلك الأنظمة على الإسلاميين ومشاريعهم، ويحرضها على الاصطدام بهم واعتقالهم وإغلاق مؤسساتهم وطردهم من أعمالهم ووظائفهم، وأحياناً سجنهم وتعذيبهم، إلى آخر ما هو معروف ومعلوم من تلك المواقف البالغة الحدة والشدة ضدهم. ولذلك فإن أصحاب هذه المدرسة لا يؤيدون الخروج بالقوة على الأنظمة الحاكمة؛ لأن المفاصد في ذلك راجحة بكثير على المصالح، لكنهم يؤيدون الجهاد الأول ويدعمونه مع احتفاظهم بالملاحظات عليه ومحاولة ترشيده قدر الإمكان. إن هذه المدرسة تحاول أن تخوض غمار المدافعة الحضارية وبيان ألوان المشترك الإنساني بجميع الطرق المشروعة، ومن أهمها:

١- التركيز على بيان الأبعاد الإنسانية في أصل العقيدة الإسلامية، وذلك من جهتين:

الأولى: أن الإسلام في جميع تشريعاته وأحكامه ربط الإنسان بربه وخالقه من زاويتي التوحيد وإخلاص العبودية له وحده، قال - سبحانه -: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ويتضمن ذلك العقيدة والشريعة.

والجهة الثانية: أنه أطلق للإنسان حرية الاختيار في الامتثال لذلك: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وبين له ماذا يترتب على هذا الاختيار في حالة

القبول أو الرفض في الدنيا وفي الآخرة.

٢ - الدخول في المسار الحضاري العالمي من حيث الوسائل وليس الأفكار؛ مع إخضاع ذلك لموازين الشرع. وترتب على ذلك من حيث القبول، على سبيل المثال لا الحصر، عدم المنع من إكمال الدراسات العليا في التخصصات العلمية في بلاد الغرب إن لم تتوفر الفرص المناسبة في العالم الإسلامي، وعدم المنع من المساهمة في مشاريع الإغاثة الإنسانية، والمساهمة في الدفاع عن حقوق الإنسان من وجهة نظر إسلامية، وحضور المؤتمرات العلمية، والانتفاع بالمخترعات والابتكارات التي تخدم كل المجالات الحياتية، والمساهمة في دعم متطلبات الانتماء الإسلامي للجاليات الإسلامية في مختلف بقاع العالم، وتطوير العلوم في جميع الاختصاصات. وترتب عليه من حيث الرد والرفض: ما عليه الغرب من أخلاق فاسدة، وعلاقات دنيئة، وارتباطات غير مشروعة، وتعاملات مالية محرمة، وتعاط للخمور والمخدرات، وتعرف فاضح، واختلاط منكر، وليال حمراء...، إلى غير ذلك من سبى الممارسات وبذى الشهوات.

٣ - تأكيد القيم الإسلامية وبيان حيويتها الحركية؛ بحيث تستوعب الوجود الإنساني بكل انتماءاته الاثنية والدينية والجغرافية. ويتضمن هذا الاستيعاب متطلبات البلاغ على مستوى أمة الدعوة بالمعنى العام، وأمة الاستجابة بالمعنى الخاص. كما يتضمن تبني الإجراءات الداعية إلى رفع الظلم عن المجتمع الإنساني وإقرار العدل وإطلاق الحريات وأداء الحقوق والقيام بالواجبات؛ مع مراعاة الخصوصيات للرجال والنساء والأطفال، كل ذلك يتم منبعثاً ومؤطراً بالتعاليم الإسلامية.

٤ - الوقوف بحزم ضد قوى فرض العولمة، ويتضمن ذلك فضح خططها وبرامجها؛ مع اتخاذ الإجراءات اللازمة لإحباطها، على كل المستويات السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية والسلوكية والإعلامية وغيرها،

وفحواه هو التصدي لخطط الغرب والشرق بهذا الخصوص؛ مع ما تحويه كلمة التصدي من متطلبات وتبعات.

٥ - اعتبار ما تقوم به الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها، وما تقوم به دولة الكيان اليهودي؛ من اعتماد أسلوب «هيمنة العولمة بالقوة وبفرض الاحتلال»؛ كما هو حاصل في فلسطين وأفغانستان والعراق؛ هو مشروع خطير للغاية، ويكشف القناع بوضوح عن الخلفية المكتنزة للمخططات النصرانية اليهودية الصهيونية فيما يتعلق بالموقف من العالم الإسلامي (انظر ما ذكرناه بهذا الخصوص في فصل المدافعة). وإن عمليات الإبادة الشاملة وسياسة الأرض المحروقة التي تتبعها هذه القوى الغاشمة الظالمة الطاغية؛ قد أطاحت بجميع قيم مفهومات الحضارية البشرية والمشارك الإنساني. ومع ذلك فإن ما انتهت إليه هذه القوى من بطش وعنف وإرهاب لا يخرج المسلمين عن التزام مناهجهم، ولا يلوي أعناقهم ليتنكروا للقيم العامة التي جاء بها الإسلام، ولا يخرجهم عن جعلها معيناً لا ينضب للمشارك الإنساني وبناء الحضارة.

إن هذه المدرسة تحاول أن تختط طريقها من خلال الاستفادة من خصوصيات المرحلة المكية والمدنية على حد سواء، كل فيما يتعلق بالشأن الخاص به، وهي معادلة تتضمن النظرة الشمولية، حيث يرى أصحاب هذه المدرسة أن توظيف طاقات المسلمين كافة - بغض النظر عن انتماءاتهم الحزبية الخاصة - في هذا السبيل مهم جداً لمواصلة المسيرة. وبناءً عليه؛ فإنهم يرون أن العمل المؤسسي هو أنجح وسيلة للوصول إلى تلك الغايات الشاملة؛ بما في ذلك ما يتعلق بـ «التربية» و «التصفية» و «التنمية».

ولذلك فإن مشروع هذه المدرسة مبني على قواعد التعامل مع كل المتطلبات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها؛ من منطلق الالتزام باستعمال أدوات المنهج الإسلامي فقط، وعدم اعتماد أي أساليب منهجية أخرى، وخاصة

إذا كانت تتعارض أو لا تتماشى بشكل كامل مع العقيدة الإسلامية، وخاصة ما يتعلق منها بالمفاهيم الشاملة لمصطلح الولاء والبراء؛ بحسب ما جاءت به نصوص الشرع. ولذلك فإن المدافعة الحضارية التي تتبناها هذه المدرسة لها خصوصيتها المتميزة على مستوى المنطلقات العامة ومستوى خطوطها التفصيلية.

المدرسة الثالثة: أصحاب هذه المدرسة يرون أن عموم الجهاد الموجود حالياً في الساحة الإسلامية أو الدولية لا مشروعية له، ومرفوض كله ولا ينبغي دعمه أو الوقوف معه أو تأييده؛ سواء ما كان في فلسطين أو الشيشان أو أفغانستان أو كشمير أو الفلبين أو إريتريا، أو ما كان ضد الأنظمة الحاكمة في العالم الإسلامي، فأصحاب هذه المدرسة لا يفرقون بين الحالتين، ويرون أن ذلك الجهاد ضار بالقضية الإسلامية، وأنه مناهض للتوجه الحضاري العالمي، ومناقض لمفاهيم المشترك الإنساني، وبناءً عليه تنبغي محاربته وإيقافه، ولا مانع أحياناً من دعم القوى الأجنبية التي تريد اجتثاثه؛ حيث إن بعضاً من أصحاب هذه المدرسة كان مؤيداً للولايات المتحدة في انقضاضها على أفغانستان واجتثاثها لدولة الطالبان لتحكيمها الإسلام ولموقفها الداعم لتوجهات العرب الأفغان.

وفيما عدا قضية الجهاد؛ فإن هذه المدرسة تتحد مع المدرسة التي قبلها في كثير من النقاط الأخرى من حيث عموم الأفكار والتوجهات، ولكنها تختلف معها في كثير من الوسائل؛ إذ ترى هذه المدرسة أن المدرسة السابقة تتشدد في الأخذ بالعزائم وتمسك بحرفيات المنهج، ولذلك فإن أصحاب هذه المدرسة واضح التساهل لديهم في كثير من الشؤون الشخصية والدعوية؛ مما ميع لديهم بشدة الخصوصيات الحضارية ومفاهيم المشترك الإنساني؛ إلى الدرجة التي جعلتهم قد لا يستطيعون تبيين خطوط الغزل بينها بوضوح.

ومع ملاحظة أن فريق هذه المدرسة يرى محاولة التميز في الشؤون المؤسسية على المستويات كافة؛ لكنه نسي هذا التميز بشكل لافت في القضية السياسية، فهو يتبنى المفاهيم الغربية نفسها في طريقته في الممارسة السياسية، وهي

الديمقراطية؛ بما تتضمنه من مفهومات التعددية الحزبية، والتحالفات السياسية، والإقرار بالدستور، والقسم على اتباعه، والتصويت على قضايا معلومة من الدين بالضرورة.. إلى غير ذلك من هذه الأمور؛ معتبراً ذلك أمراً طبيعياً متماشياً مع مقتضيات الحضارة ما دام أنه قد أصبح عرفاً بشرياً، ولا يهم إن كان ذلك العرف حقيقياً نابعاً من ذاته ومحيطه، أو كان مطلباً يهودياً نصرانياً تدعو إليه أبواقهما ليل نهار، وتضعان لإقراره بالقوة الخطط العسكرية والبرامج التنفيذية.

ومن خلال هذا الاستعراض السريع نرى أنه لا توجد نظرة موحدة للإسلاميين بخصوص كيفية التعاطي مع الحضارة الحالية ومشاركتها الإنساني، لكن يتبين أن المدرسة الثانية من الفريق الثالث هي التي تقدم نظرة أوسع شمولية، وأعظم تماسكاً، وأبعد نظراً، وألصق واقعية، وأكثر تعبيراً عن المنهج الإسلامي.

مقومات المدافعة الحضارية في المجتمع الإسلامي:

يملك المجتمع الإسلامي مقومات أساسية تجعله في موقع التأثير ومركز الثقل في عالم التدافع الحضاري؛ أذكر منها على سبيل المثال ما يأتي:

١ - الرصيد: وهو مكتنز التراكم الحضاري الإسلامي على مدى أكثر من أربعة عشر قرناً - سبق ذكره في أول هذا الفصل -.

٢ - المرجعية: وهما الكتاب والسنة، حيث يمثلان المنهاج في تشييد الصرح الحضاري العالمي، حيث ينعم العالم بالسلام والأمن والعدل والرخاء والسعادة. إن هذه المرجعية لا تتمثل بالنصوص فحسب، بل بكيفية إعمال هذه النصوص في صياغة اللبنة الأساسية للحضارة البهيجة؛ ألا وهي الإنسان، إنها تصيغه صياغة ربانية تجعله ينسجم في حركته وعطائه مع مجمل الحركة الكونية.

٣ - الثروات: لا يتدعم الصرح الحضاري إلا بتوفير ما يغذي نماءه؛ ألا وهي الثروات. إن خريطة العالم الإسلامي الاقتصادية تكاد ألا تترك ثروة من الثروات في باطن الأرض وظاهرها إلا وتحوز فيها قصب السبق كماً ونوعاً. ولا نريد هنا

تعداد هذه الثروات من بترول ومعادن ومياه وسواها، فإن ذلك يربو عن الحصر، لكن حسبنا ذكر ذلك لمجرد التنويه عن هذه المسألة. ولكن ما يحزن الفؤاد أن هذه الثروات تتراوح بين الإهمال في الاستغلال وبين سيطرة الأجنبي عليها؛ إما مباشرة وإما استثماراً.

٤ - التماسك الاجتماعي: وهو ميزة من أهم ميزات المجتمعات الإسلامية، حيث إن الروابط التي أحكم وثاقها الشارع الحكيم لإبقاء اللحمة الأسرية في أشد تماسكها؛ قد جعلت من المجتمع المسلم مجتمعاً متجانساً ومتكاتفاً ومتعاوناً ومتحاباً؛ على خلاف المجتمعات الغربية التي يسودها التفكك الأسري بشدة؛ مما يهدد إمكانية استمرار عطائها التنموي في الركب الحضاري.

٥ - الطاقة البشرية: يبلغ عدد المسلمين في العالم حوالي مليار ومائتي مليون مسلم؛ أي حوالي ٢٠٪ من مجموع سكان البسيطة، وهي طاقة بشرية عظيمة فيما لو تم تفعيلها في العطاء الإنساني الحضاري؛ خاصة أن طيفها التكويني يضم مختلف الأجناس والقوميات والاثنيات؛ بما يعطي مؤشراً واضحاً ودعماً غنياً لتغذية التكامل الذي تحتاج إليه البنية الحضارية.

٦ - العقول الفاعلة والعبقرية: إن العالم الإسلامي يزخر بالعقول الفذة ذات الإمكانيات الموسوعية، ومن المؤسف أننا نفتقد إلى الإحصاءات المتعلقة بهذا الخصوص، لكن معظم هذه العقول العبقرية لم تشعر بالأمان في ظل الأنظمة الحاكمة في العالم الإسلامي؛ فأثرت الهجرة إلى بلاد الغرب، وأصبحت في أوضاع اضطررتها إلى أن تكون لبنات في صرح الحضارة الغربية التي تؤول إلى الأفل؛ بدلاً من أن تكون لبنات في مشروع البناء الحضاري الإسلامي الذي يتجه نحو النهوض.

٧ - الاختصاصات: إن المتمعن في مكونات الشرائح التخصصية في العالم الإسلامي؛ يرى أنه يكاد ألا يوجد علم من العلوم أو اختصاص من

الاختصاصات إلا وله من رجال المسلمين ونسائهم نصيب؛ سواء ما تعلق منها بالطب أو الهندسة أو الفيزياء أو الكيمياء أو الفلك أو الرياضيات أو الأدب أو الاقتصاد.. إلى آخر ما يكون العجينة الحضارية الحديثة. إن العلماء المتخصصين من المسلمين قد أثبتوا قدرتهم الذاتية ومواكبتهم لتطورات العلم الحديث في كل المجالات والخبرات العلمية؛ سواء على المستويات المحلية أو المحافل الدولية، ونالوا في ذلك أعلى الدرجات العلمية، وفرضوا تفوقهم بما لا يحتاجون معه إلى تزكية من أحد (أي من أحد من الغربيين).

٨ - المناعة الذاتية مع القدرة على الانفتاح: وهي خاصية عجيبة في طبيعة هذا الدين؛ ذلك أن منهاجه قد وفر للمسلمين مناعة وحصانة ذاتيتين، تمكنهم من دخول سوق التعاطي الحضاري بمفهوم «العطاء بانفتاح والأخذ بالغرلة»؛ أي يغربلون ما يأخذونه من الآخر، فلا يأخذون منه إلا ما ينسجم مع دينهم وما لا يعكر صفاءه في عقولهم ونفوسهم. صحيح أن بعض الأفراد لا يتمتعون بهذه القدرة، ولا يتحلون بهذه الصفة؛ إلا أننا نتكلم عن الحركة المجتمعية الإسلامية الشاملة، فإن زخمها العام يغطي على شذوذ بعض الناس عن الركب وانكفائهم خارج خط المسيرة.

٩ - الموقع الاستراتيجي: إن العالم الإسلامي يطل على كل المحيطات ومعظم البحار؛ بما يجعله متمكناً من زمام المواصلات التجارية البحرية، وكذا العسكرية. كما أن فيه جميع التضاريس الجغرافية من جبال ووديان وسهول وصحاري. جميع ذلك يوفر له دوراً عظيماً في الهيمنة الاستراتيجية التي تقتضيها المدافعات بأنواعها السلمية والحربية، ولا شك أن الموقع الاستراتيجي الذي يوفر حالة آمنة لسير العمليات الحياتية، حتى في أثناء اندلاع الأعمال الحربية، يشكل بطبيعة الحال مقوماً رئيساً للحفاظ على المعاني الرفيعة المتجلية في الحركة الحضارية.

١٠ - وجود حافز التحدي: لا شك أن الأمة الإسلامية تمر في عصرنا الحالي بأزمة كبيرة، طابعها العام هو التخلف، ودولها تصنف ضمن منظومة العالم الثالث؛ في الوقت الذي تتمتع دول الغرب والولايات المتحدة بميزات التطور العلمي المذهل. إن هذا الفارق الشاسع بين المستويين قد وُلد، أو أوشك أن يُولد، حالة تحفيزية لدى كثير من المسلمين لتحصيل مقومات القوة التي لدى الغرب؛ بغية إثبات الذات والتفوق على العقبات. هذا الحافز الذي تولد من احتدام الصراع قد كشف، رغم عدم انقشاع الغبار، عن نحو حافز التحدي لدى الأمة الإسلامية، وهو حافز مهم ولا بد من وجوده لأجل النهضة.

١١ - وجود حافز التصدي: وهو، وإن كان نتاجاً طبيعياً من وجود حافز التحدي، غير أن عوامل إضافية مهمة طورت ذاك التنازع الطبيعي وسرّعت من حركته؛ ألا وهو إصرار الغرب والولايات المتحدة على تجديد الكرة الصليبية التاريخية بإعادة الاحتلال العسكري للدول الإسلامية؛ رغم أن بعضاً منها أو من بقاعها لم تنسم هواء الحرية بعد، كالشيشان وعموم الولايات الإسلامية في روسيا، والجمهوريات التي استقلت عن ربة الاتحاد السوفيتي السابق، وكشمير والفلبين وغيرها. إن إعادة احتلال أفغانستان والعراق قد نغى بقوة حافز التصدي؛ ليس على المستوى العسكري فحسب بل على المستوى الحضاري كذلك. كل ذلك جاء عاملاً مضافاً إلى وجود حافز التحدي والتصدي الناتج عن وجود الكيان اليهودي على أرض فلسطين المباركة، والتي تعبّر الانتفاضة الفلسطينية عن شدة تأججه وقوة اشتعاله.

١٢ - وجود حافز البلاغ وإرادة الخير للبشرية: وهو من طبيعة هذا الدين، فإنه ما نزل إلا لذلك، قال - تعالى -: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فلا يزال المسلم ساعياً لإخراج الناس من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد، الذي به تتلأأ الحضارات وتضيء مناراتها.

فتلك اثنا عشر مقوماً من المقومات الإيجابية في المدافعة الحضارية التي يتمتع بها العالم الإسلامي .

غير أن تلك المقومات لم تأخذ فاعليتها العملية على أرض الواقع بسبب مجموعة من المعوقات من أهمها :

- ١ - طبيعة الأنظمة الحاكمة في العالم الإسلامي .
 - ٢ - قوة النفوذ الصليبي واليهودي في العالم الإسلامي .
 - ٣ - وجود دولة الكيان اليهودي في قلب العالم الإسلامي ، وسيطرتها على بيت المقدس .
 - ٤ - الهزيمة النفسية التي لا تزال أعاصيرها تعصف بالشعوب الإسلامية ؛ مع استمرار تغلغل حالة الانبهار بما عليه الغرب في النفوس والأفئدة .
 - ٥ - غياب خطط التنمية الجادة في العالم الإسلامي .
 - ٦ - اختلاف وافتراق الإسلاميين ، وعدم قدرتهم على استيعاب طريقة التعامل مع الواقع ، وتخلفهم عن فقه مكوناته وعناصره .
 - ٧ - هجرة العقول الإسلامية إلى بلاد الغرب (سبق التنويه عنها) .
 - ٨ - انتشار الجهل والفقر في كثير من الأصقاع الإسلامية .
 - ٩ - استغلال الثروات الإسلامية للمصالح الخاصة ؛ شخصية أو حزبية .
 - ١٠ - العجز والشلل في الحركة الجماهيرية الإسلامية ، حتى عن مجرد رد فعل لما يحصل لبلدانها ؛ كاحتلال أفغانستان والعراق .
 - ١١ - فاعلية القوى السلبية التي تنخر في البنى العقدية للعالم الإسلامي ، كالأحزاب العلمانية والقومية ومن على شاكلتها .
- وعلى القارئ الآن أن يتصور حجم التدافع بين المقومات والمعوقات التي

ذكرناها؛ ليستنتج دون عناء الإجابة عن السؤال المهم، وهو: لماذا حالنا هكذا؟!

إن مجمل ما ذكرناه يفسر لماذا الأمة الإسلامية اليوم، فيما يتعلق بالتدافع الحضاري، هي في حالة اقتباس وتقليد أكثر بكثير مما هي في حالة ضغط وتأثير، وهذا يجعلها ساحة مفتوحة أمام أعاصير العولمة. إن بعض الحركات الإسلامية رأت - بحسب تحليلاتها الخاصة بها - أن معظم المعوقات التي ذكرتها ما هي إلا مظهر لشيء واحد، وهو السيطرة والهيمنة - أو قل العولمة - الصليبية اليهودية، والتي تنزعمها حالياً الولايات المتحدة وبريطانيا وحلفاؤهما، وبناءً عليه؛ فإنه بدلاً من أن تشتت الجهود لتتوزع للتخلص من تلك المعوقات واحداً إثر واحد - وهذا برأيها مستحيل -؛ فإن الأولى أن تجمع تلك الجهود وتُحشد في اتجاه تقويض مركز انطلاق تلك السيطرة والهيمنة، وذلك بضربها في عقر دارها بتوجيه ضربات قاصمة لعمودها الفقري وهو الاقتصاد والأمن. وإن هذا السبيل سيؤدي إلى تهوي تلك المعوقات وبروز تلك المقومات؛ مما يؤدي إلى إعادة العزة والشعور بالعلو الإيماني للذات الإسلامية؛ بما يجعلها مؤهلة فعلاً للريادة الحضارية المعاصرة تحت شعار العالمية، وعندها ستنهار دعاوى العولمة وتصبح مجرد وصمة في كتاب التاريخ!!

انهيار التيارات القومية والاشتراكية والليبرالية والعلمانية أمام المدافعة الإسلامية الحضارية:

يقال إذا سقط الجمل كثرت سكاكينه!! لكنني - ولله الحمد - كان لي رأي واضح منذ سنين عديدة في هذه التيارات؛ أي قبل الشروع بمسلسل سقوطها، فما سأقوله ليس من السكاكين اللاحقة؛ بل هي من تلك السابقة!! إن التيارات القومية والاشتراكية والليبرالية والعلمانية طرحت نفسها كمنقذ للأمة العربية من حالات السقوط والتردي، والتي كانت معاهدة «سايكس - بيكو» مجرد واحدة

من إفرازاتها .

لقد تمثلت تلك التيارات بأشخاص منظرين ومفكرين ، كان لهم دور بارز في صياغة الساحة السياسية والثقافية العربية ؛ من أبرزهم : إدوارد سعيد ، أكرم الحواري ، أحمد بهاء الدين ، أنطوان مسرة ، ألبرت حوراني ، أحمد بن بيللا ، تركي الحمد ، برهان غليون ، جبر إبراهيم ، جلال أمين ، جورج حبش ، جوزيف مغيزل ، زكي الأرسوزي ، ساطع الحصري ، صلاح البيطار ، ميشيل عفلق ، منير الرزاز ، محمد الرميحي ، محمود أمين ، عبد الرحمن منيف ، عبد الله الريمائي ، جورج قرم ، جاسم القطامي ، عبد الله عبد الدايم ، فؤاد زكريا ، أحمد الخطيب ، لويس عوض ، محمد حسنين هيكل ، ميلاد حنا ، نوال السعداوي ، شبلي العيسمي ، رثيف خوري ، خير الدين حسيب ، حبيب حداد ، طه حسين ، عبد الرحمن منيف . . وأسماء أخرى كثيرة جداً . كما تمثلت في أحزاب وحركات ، ومن أبرزها : حزب البعث العربي الاشتراكي ، وحركة القوميين العرب ، والناصريون ، والاشتراكيون ، وحزب المؤتمر ، والحزب الوطني ، والجهة الشعبية ، وحركة فتح ، وجهة تحرير فلسطين ، وأسماء أخرى كثيرة تعج بها الأقطار العربية .

كما تمثلت في زعماء تربعوا على كراسي الحكم ، وقادوا شعوبهم إلى الهاوية التي لا تزال الأمة العربية تتردى في اتجاه قعرها ؛ من أمثال جمال عبد الناصر ، وعبد الكريم قاسم ، وعبد الله السلال ، وأحمد بن بيللا ، ومن على شاكلتهم . كما تمثلت في مراكز أبحاث ودراسات ، ومن أشهرها : مركز دراسات الوحدة العربية ، ودار الملايين ، والمؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ودار قرطاس ، وهلمّ جراً . كما تمثلت في مئات من الصحف والمجلات ، وآلاف من الكتب والدراسات ، وأعداد من مراكز البث الإعلامي المقروء والمنظور والمسموع .

فعلاً لقد سادت هذه التيارات الساحة العربية ، وكان من نتائجها أن جميع

هزائم العرب في القرن العشرين قد تمت تحت ظلال هيمنتها وحكمها، وكان الأبرز في كل ذلك إنشاء الدولة اليهودية على أرض فلسطين عام ١٩٤٧م (التقسيم) وعام ١٩٤٨م (الاعتراف الدولي)، ثم ما تلا ذلك من انهيارات وكوارث ونكسات: عام ١٩٥٦م العدوان الثلاثي على مصر، والذي انتهى باستيلاء اليهود على مضائق تيران، عام ١٩٦٧م احتلال الضفة الغربية وسيناء والجولان، ١٩٧٣م حرب أكتوبر، والتي انتهت بتقدم القوات اليهودية إلى منطقة «سعسع» التي تبعد من دمشق ٤٥ كم، وبمrapطة القوات الأمريكية على مسافة قريبة من قناة السويس تحت مظلة علم الأمم المتحدة لأجل مراقبة تطبيق الاتفاقات التي أعقبت الحرب وخاصة ماتم في خيمة الـ ١٠١، ثم الحرب الأهلية اللبنانية، ثم توقيع اتفاقات كامب ديفيد ١٩٧٨م التي فتحت بوابة الاعتراف العربي بدولة اليهود، ثم الحرب العراقية الإيرانية التي امتدت حوالي عشر سنوات - ١٩٧٩م إلى ١٩٨٨م -، ثم احتلال جنوب لبنان عام ١٩٨٢م، ثم احتلال العراق للكويت عام ١٩٩٠م، ثم حرب الخليج الثانية ١٩٩١م، ثم اتفاقيات أوسلو عام ١٩٩٣م، ثم احتلال العراق عام ٢٠٠٣م، إنها مجموعة كبيرة من الهزائم الكارثية.

وكان أيضاً من نتاج سيادة هذه التيارات المحاولات المستميتة لإبعاد الشعوب العربية عن دينها الإسلامي الذي تنتمي إليه، فتم حسر الشريعة الإسلامية عن الحكم ومواقع التأثير، وراجت سوق اضطهاد العلماء والدعاة وطلبة العلم، واستعمال أشد أنواع القسوة والتعذيب ضدهم؛ بما في ذلك الإعدام والأعمال الشاقة المؤبدة؛ وكان من نتائجها أيضاً انتشار الفساد وسوء الأخلاق وانحطاط السلوك، وكان من نتائجها أشياء كثيرة تفوق الحصر.

لقد ساد الظلام الشعوب العربية والإسلامية خلال هذه الحقبة من الزمن ولا يزال سائداً، إن هذه الحصيلة مثلت الانهيار الحقيقي لتلك التيارات أمام الزخم الحضاري المعاصر، والذي زحف بخيره وشره على هذه الشعوب،

فترسخت فيها منه معظم جوانب الشر، وطاشت عنها معظم جوانب الخير، وذلك لأن هذه التيارات قد نجحت في نزع الحصانة الذاتية الإسلامية من هذه الشعوب، فأضحت في العراق بغير ستر ولا غطاء!!

لقد كتب أحد القوميين الذين تخلّوا عن قوميتهم لمصلحة الانتماء إلى اللاشيء قائلاً: «إن الخطاب القومي قد استنزف الطاقات والجهود والأموال سعيًا للوصول إلى شعار ليس له مقومات التحقيق، وكل ذلك على حساب كل دولة وكل شعب وكل إنسان في العالم المسمّى في العالم العربي»^(١). وقال آخر في خضم تقييم المرحلة: «من إيجابيات الحرب ضد نظام صدام حسين أنها أتاحَت الفرصة لطرح أفكار بديلة عن فكرة القومية العربية وهي الفكرة التي تحكمت في العمل السياسي العربي لمدة تزيد على خمسين عاماً...»، ويقول: «بعد تولي الزعيم الراحل جمال عبد الناصر مقاليد الحكم في مصر عبر ثورة يوليو ١٩٥٢م تبلورت فكرة القومية العربية (أقول: بل هي تبلورت قبل ذلك بكثير)، وراجت أفكار الأمة الواحدة، ومنذ ذلك الحين، أي منذ حوالي خمسين عاماً، تشكلت طبقة من المثقفين والسياسيين والكتاب والصحافيين العرب من مختلف الجنسيات، أخلصوا النية في دعم فكرة الوحدة العربية، وانخرط بعضهم في العمل السياسي العربي، وصرف معظم شبابه مدافعاً عن تلك الفكرة، وهناك بالطبع من استفاد - معنوياً على الأقل - من الهتاف والردح للوحدة العربية.

الآن وبعد تجارب سياسية عديدة، مثل حرب ١٩٤٨م ونكسة ١٩٦٧م، مروراً بالغزو العراقي لدولة الكويت، وانتهاءً باحتلال الولايات المتحدة للعراق وطرده النظام البعثي فيها، ثبت بشكل قاطع أن فكرة القومية العربية هي فكرة فاشلة نظرياً وعملياً. وبالطبع فإن طبقة السياسيين والمثقفين والكتاب والصحفيين الذين مارسوا كل أنواع الردح دفاعاً عن تلك الفكرة يشعرون بالأسى والحزن،

(١) الرأي العام الكويتية، ٢٨/٤/٢٠٠٣م.

ليس لضياح ما يُسمّى بالأمة العربية، وإنما لاكتشافهم المتأخر أنهم كانوا يركضون خلف سراب...»^(١).

أقول: الكلام في هذا الموضوع يطول، والنقولات بخصوص هذه المسألة كثيرة جداً جداً، ولكن آخر ما أسجله تحت هذا العنوان هو: إن الذين أخفقوا في تمرير ما يريدون تحت مظلة القومية والليبرالية والاشتراكية وغيرها من الشعارات؛ هم أنفسهم الذين يريدون الآن تمرير ذلك من جديد، ولكن تحت شعار «العولمة»!! والموضوع لا يزال قابلاً للنقاش، ولمزيد من الاطلاع على مخلفات هذه التيارات؛ يمكنك أخي القارئ إجمالة النظر في كتاب شاكر النابلسي المعنون بـ (الفكر العربي في القرن العشرين) في ٣ مجلدات.

تدافعات وتقاطعات المصالح الحضارية في المشترك الإنساني في

ظل العولمة:

* بينما يهدف الإسلام إلى التركيز على الإنسان بغية أن يحقق الغاية من خلقه، وهو تحقيق العبودية الخالصة لله - تعالى - ليكون بذلك لبنة راسخة وقوية ومتمينة في البناء الحضاري، فتتحقق من خلال ذلك المصالح العليا للبشرية؛ فإن أعداء الإسلام من اليهود والنصارى والمشرّكين يركّزون على الإنسان ليجعلوا منه وقوداً لتحقيق غاياتهم الخاصة ومآربهم الشاذة؛ ليكون الإنسان بذلك لبنة هشة ومسحوقة في الصرح الحضاري، فتتكس من خلال ذلك المصالح العليا للبشرية.

* وبينما يؤكد الإسلام أن لبنات الحضارة «قيم»، ومن خلالها يكون التشييد والبناء؛ فإن أولئك يركّزون على أن لبنات الحضارة «اختراعات»، ومن خلالها يتم امتصاص جهود الإنسان لمصلحة المفهوم الحضاري الخاص بهم.

* وبينما يؤكد الإسلام أن المشترك الإنساني عامل سمو ودعم لمعاني

(١) الوطن الكويتية، محمد عبد القادر الجاسم، ٢٣/٤/٢٠٠٣ م.

الحضارة المفيدة للإنسان؛ فإن أولئك يعتبرون المشترك الإنساني عامل استغلال تكريس مصالحهم والوصول إلى أهدافهم.

* وبينما يهدف الإسلام إلى استجلاء واستخلاص وتوجيه الطائفتين المادية والروحية للإنسان، فيجعل منه إنساناً متناسقاً ومتوازناً في التفكير والأداء بغض النظر عن جنسه وعرقه ولونه وموطنه، مما يترك آثاره المتناغمة والبارزة في المشهد الحضاري؛ فإن أولئك لا يريدون من الإنسان إلا الجانب المادي فقط؛ مما جعل حضارتهم كمن يمشي برجل واحدة!!

فتلك هي خمس مساحات، تحصل على سطحها وتتفاعل في أعماقها تقاطعات المصالح الحضارية في المشترك الإنساني بين الإسلام في عالميته وبين أعدائه في عولمتهم.

وبما أن في كل مساحة يحصل تقاطع في المسار؛ إذن في كل منها يحصل تدافع بين المتقاطعين، فثمة خمسة تدافعات مهمة ورئيسة في قضية المصالح الحضارية فيما يتعلق بالمشارك الإنساني.

انظر كيف تعمل هذه التقاطعات في ساحة الواقع:

* فبينما النبي ﷺ كان يريد الهداية والخير لقريش، كما قال - تعالى -: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: ٦]؛ كانت قلوب كفار قريش تمتلئ عليه حقداً وكرهاً، فعندما قتلوا عمه حمزة - رضي الله عنه - في أحد؛ شقوا بطنه وجدعوا أنفه ولاكوا كبده ومثلوا به!! انظر في هذا التقاطع إلى التدافع في النظرة إلى الإنسان!

* وبينما كان المسلمون يقاتلون طاغوت الروم لإفساح المجال للروم لاختيار الدين الذي يريدون؛ ضمن مفهوم قوله - تعالى -: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]؛ كان شأن ملك الروم على خلاف ذلك، فما أن تم أسر بعض المسلمين في تلك الحرب، وكان من بينهم الصحابي الجليل عبد الله بن حذافة السهمي حتى

عرض عليه الملك التنصر أو القتل ، ثم جاء بأسير مسلم فألقاه في قدر يغلي ماؤه فإذا عظامه تلوح!! فعرض الملك عليه التنصر أو إلقاءه في هذا القدر ، فقال : «أحببت أن يكون لي بعدد كل شعرة في جسدي نفسٌ تُعَذِّبُ هذا العذاب في الله» . وفي روايات أخرى أنه منع عنه الطعام والشراب أياماً ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير فلم يقربه ، ثم استدعاه فقال : ما منعك أن تأكل؟ فقال : «أما إنه قد حلَّ لي ، ولكن لم أكن لأشمتك بي» ، ثم أطلق سراحه بعد أن وافق على تقبيل رأسه مقابل فك أسر جميع المسلمين ، فقبَّل عمر بن الخطاب رأس عبد الله ابن حذافة - رضي الله عنهما - (القصة بتمامها أوردها ابن كثير وفي التفسير)^(١) ، أمعن نظرك في هذا التدافع والتقاطع فيما يتعلق بقيمة الإنسان وقيمه!

* وبينما كانت الخلافة في بغداد تشع أنوار حضارتها فتبلغ الخافقين ؛ كان مدمرو الحضارة ومبيدو روادها من التتار ؛ يشقون طريقهم إلى حاضرتها لاجتثاثها من جذورها ، فكان المشهد في التقاطع عظيماً وفظيعاً!! وهاك بعض السطور مما ذكره ابن كثير في (البداية والنهاية) عن ذلك الحدث الجلل ، قال (. . ومالوا - أي التتار - على البلد ، فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان ، ودخل كثير من الناس في الآبار وأماكن الوحوش وقنى الوسخ ، وكمنوا كذلك أياماً لا يظهرون . وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات ويغلقون عليهم الأبواب ، فتفتحها التتار ؛ إما بالكسر وإما بالنار ، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة فيقتلونهم بالأسطحة ، حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة ، فإنا لله وإنا إليه راجعون . وكذلك في المساجد والجوامع والربط ، ولم ينج أحد منهم سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم وإلى دار الوزير ابن العلقمي الرافضي ، وطائفة من التجار أخذوا لهم أماناً ، بذلوا عليه أموالاً جزيلة حتى سلموا وسلمت أموالهم . وعادت بغداد بعدما كانت آنس المدن كلها كأنها خراب

(١) تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ، (١ / ٦١٠) ، ط دار الفكر ، ودار القلم ، لبنان ، الطبعة الثانية .

ليس فيها إلا القليل من الناس وهم في خوف وجوع وذلة وقلة . . . وقد اختلف الناس في كمية من قُتل ببغداد من المسلمين في هذه الواقعة، فقليل ثمانمائة ألف، وقليل ألف وثمانمائة ألف، وقليل بلغت القتل ألفي ألف نفس، فإننا لله وإننا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وكان دخولهم إلى بغداد في أواخر المحرم، وما زال السيف يقتل أهلها أربعين يوماً. . . وقُتل الخليفة المستعصم بالله . . . وقُتل أستاذ الخلافة . . . وشيخ الشيوخ مؤدب الخليفة والخطباء والأئمة وحملة القرآن، وتعطلت المساجد والجماعات والجمعات مدة شهور . . . وبقيت بغداد خاوية على عروشها وليس بها أحد إلا الشاذ من الناس والقتلى في الطرقات كأنها التلول، وقد سقط عليهم المطر فتغيرت صورهم، وأنتنت جيفهم البلد، وتغير الهواء، فحصل بسببه الوباء الشديد، حتى تعدى وسرى في الهواء إلى بلاد الشام، فمات خلق كثير- أي في بغداد والشام- من تغير الجو وفساد الريح، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون، فإننا لله وإننا إليه راجعون. ولما نودي ببغداد بالأمان خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقنى والمقابر كأنهم الموتى إذا نبشوا من قبورهم، وقد أنكر بعضهم بعضاً، فلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه، وأخذهم الوباء الشديد فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى، واجتمعوا تحت الثرى، بأمر الذي يعلم السر وأخفى، الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى . . . (١).

* تدافع وتقاطع مهم في المصالح الحضارية، كل بحسب مفهومه للحضارة، حصل في الأرض المباركة!! في شعبان ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م تمكن الصليبيون من اقتحام أسوار القدس بعد حصارها لمدة شهر، فاحتلوا المدينة وعاثوا فيها فساداً وتدميراً، وارتكبوا فيها أفظع الأعمال وأشنع المنكرات، وأكثروا فيها القتل حتى بلغ عدد القتلى من المسلمين سبعين ألفاً، سالت دماؤهم أنهاراً. وفي ربيع الثاني

(١) البداية والنهاية، ابن كثير، (١٣ / ٢٠٠ - ٢٠٣).

٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م دخل صلاح الدين الأيوبي القدس بعد حصار دام أسبوعاً واحداً فاتحاً ومستخلصاً لها من أيدي الصليبيين ، فأبى عليه دينه وإيمانه أن يعامل الصليبيين بالمثل ، فسمح لهم بافتداء أنفسهم مقابل ١٠ دنانير للرجل ونصفها للمرأة ، وأجلهم أربعين يوماً لدفع الفداء!! فكان هذا المشهد تعبيراً واقعياً عن مفهوم الحضارة لدى المسلمين ومفهومها لدى الصليبيين . انظر كيف أن المصلحة الحضارية لدى الصليبيين قادتهم إلى قتل الإنسان!! وانظر أيضاً كيف أن المصلحة الحضارية لدى المسلمين قادتهم إلى إحياء الإنسان!! ذلك أن المصلحة الحضارية الصليبية رائدها الطغيان والتجبر ، وأن المصلحة الحضارية الإسلامية رائدها العدل والحرية وفق الكتاب والسنة ، فكان لا بد أن يحصل التدافع والتقاطع .

* يقال إن قمة الحضارة الغربية هي في العقود المعاصرة ، ومعنى ذلك في العرف الحضاري الصليبي اليهودي أن قمة ممارسة القتل وتعذيب الإنسان هي في هذه العقود . لقد خلّف الإعمار الحضاري الصليبي اليهودي وراءه ٥٤ مليون قتيل في الحرب العالمية الثانية ، ثم ملايين أخرى من القتلى فيما تلاها من الحروب . وزاحمت أرقام الفظائع بعضها بعضاً في الكتب والأبحاث والدراسات ، وبين يديّ عدد كبير من الكتب التي أفردت للإرهاب الحضاري الأمريكي عن باقي سلسلة الإرهاب . إن الذي أحدثته ماكينة القتل والدمار الحضارية الغربية الأمريكية اليهودية الصهيونية في فلسطين ولبنان وأفغانستان والبوسنة والهرسك وكوسوفا وتيمور الشرقية والشيكان والعراق وغيرها؛ لتَبَيَّنَ بمجرد الحديث عنها رؤوس الولدان . ولو كان في هذه الدراسة متسع لعرضت عليك - أخي القارئ - ما يهولك سماعه ، فكيف لو رأيت!!

منذ سقوط الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤ م وإلى هذه اللحظة ؛ فإن مئات الملايين من المسلمين ، بل ومن غير المسلمين ، يعتبرون شهود عيان وحاضري ميدان لهذا التدافع الشديد في هذا التقاطع العقدي القيمي عبر التاريخ

والجغرافيا، وإنني أحسب أن هذا الحال سيطول أمدّه، وتزداد عوامل اضطرامه، فإن التدافع الشديد الحالي آخذ في التصاعد والتفاعل والتفاقم، وسيبقى الصراع مستمراً بين المسلمين الذين يريدون إخضاع حضارة المخترعات للقيم، وبين الذي يريدون استغلالها لقتل تلك القيم!

ها هي ذي العالمية الإسلامية لا تزال مصرة على إبراز المشترك الإنساني واحترامه، باعتبارها منطلقة من أصالة التكريم الإلهي للإنسان، كما قال - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠]، في حين يصّر دعاة العولمة على طمس المشترك الإنساني واحتقاره وامتهانه لينتهي الحال بالإنسان إلى أن يكون في أسفل سافلين!

فانظر إلى حصول التدافع التام والتناقض الكامل بين عالمية الإسلام وعولمة البشر!

العالمية والعولمة والمعادلة الحضارية الصعبة:

إن مسلم اليوم يقف مذهولاً أمام معادلة حضارية صعبة، ومن شدة ذهوله فإن التداعيات المتلاحقة التي تطوف بسرعة في طيات مخه؛ تخلف وراءها أكواماً من الحطام الذهني تجعله مشلولاً عقلاً وحساً! إننا نستطيع أن نعبر عن فحوى هذه المعادلة الصعبة بوضع كلمات في بضع سطور، لكن آثار مضامينها تجعل الحليم حيران.

ما المعادلة؟ اقرأ معي:

إن معظم الذي قلناه في هذه الدراسة عن خصائص عالمية الإسلام مبثوث في أكداس الكتب والدراسات، وأما عولمة اليوم فإنها واقع يمشي على الأرض. إن المعادلة الصعبة لدى المسلم هي قوله: كيف أستطيع أن أشق طريقي بعالمية

الإسلام في حياة تسيطر العولمة على كلياتها ومفرداتها؟!!

لقد غزت العولمة بلادنا الإسلامية، وأطبقت عليها إطباقاً شديداً، إن فكرنا وأفكارنا تتنفس من خلال رئتين إحداهما صليبية والأخرى يهودية، إننا نلبس مثل الذي يلبسون، ونتعري أيضاً كما يتعرون!! ونأكل بالطريقة التي يأكلون، بل ونأكل الذي يأكلون، ونشرب كما يشربون، ونمشي ونلعب ونتكلم ونتحرك ونقوم ونجلس وننام بمثل الذي هم يفعلون، ونرقص ونغني ونسكر وننفق أموالنا في التفاهات وعلى السفالات على طريقة ما يعولمون، ونبني بيوتنا ونربي أطفالنا ونعاشر النساء من زوجات وخليات على نسق ما هم يعملون، ونقضي أعمارنا أمام التلفاز نتنقل بين قنوات الفضائيات أو في أحضان الشبكة العالمية (الإنترنت) حيث لا يحلو لنا منها إلا ما فيه الجرائم أو الموبقات؛ تماماً كما هم يتنقلون. . لقد استنسخناهم في أنفسنا في تلك الجوانب التي ذكرت؛ فضلاً عن نظرنا إليهم نظرة المنهزم المنبهر بالذي انتصر عليه!! ولكننا للأسف لا نرتشف العلم كما يرتشفون، ولا نصنع الآلات والأجهزة كما يصنعون، ولا نخترع كما اخترعون، ولا نكتشف كما يكتشفون، ولا نظور كما يطورون، ولا نخطط ونبرمج كما يخططون ويبرمجون، ولا ننمي بلداننا كما ينمون، ولا. . . ولا، إننا في كل ذلك عالة عليهم، نحن نعطيهم المواد الخام ثم نستورد منهم الجاهز!!

إن المسلم اليوم يتساءل، ويحق له أن يتساءل، فيقول: إذا كان هذا هو واقعنا؛ فكيف أمارس عالمية الإسلام؟ بل ما المعنى الحقيقي لعالمية الإسلام؟ وكيف سادخل عالم المدافعة الحضارية في واقع تسيطر العولمة على دفات توجيهه وتمتلك أزمته وأدواته؟

حقاً إنها معادلة صعبة، ولكن حلها ممكن مقدور عليه إذا أعدت قراءة الفصل الثالث في قضية «التدافع»، ولا تنسى موعود الله - تعالى - بنصر هذه الأمة، فكن واحداً من صنّاع ذلك النصر؛ تفرّج بعز الدنيا وجنة الخلد،

ولا يهولنك ما عليه الولايات المتحدة الأمريكية من القوة الظاهرة التي تخطف الأبصار وتأخذ بالألباب، إن قراءة متأنية لما اندرج تحت العنوان القادم سترفع روحك المعنوية، وتبث النشاط في نفسك، وتجسد الأمل أمام ناظريك.

رائدة العولمة (أمريكا) والتدافع الحضاري (رؤية من الداخل):

كما قيل؛ فإن كل إناء بما فيه ينضح، من هذا المدخل نريد أن نطل إطلالة موجزة وسريعة على أمريكا من الداخل؛ باعتبار أن العولمة المعاصرة هي في واقع الحال محاولة «أمركة العالم»، ثم نستنتج من هذا المبحث ما يلقي الضوء على العنوان، وسأكتفي بالتعرض السريع إلى أمرين فقط:

الأول: عوامل القوة الذاتية:

لن أتكلم هنا عن النظام السياسي الأمريكي؛ باعتبار أن هذا النظام قد أخذ طريقه على هذا الوجه منذ أمد بعيد، ولكن سأعرض إلى مقومات أخرى، ومن أهمها:

١ - الاقتصاد:

تبذل الولايات المتحدة جهوداً كبيرة لتعزيز اقتصادها الإمبراطوري، ورغم أن عجز ميزانيتها لعام ٢٠٠٣م قد بلغ حوالي ٤٥٠ مليار دولار؛ فإنها تطمع أن تعوّض ذلك من خلال قطف الثمرة من احتلالها لأفغانستان والعراق؛ إذ إن كلاهما منهما يشكّل مخزوناً عظيماً من الثروات، ومن أهمها الغاز والنفط؛ فضلاً عن أن إعادة الإعمار لكلا البلدين، والذي استحوذت الولايات المتحدة منه على حصة الأسد، سييث الحياة في الشركات الأمريكية قاطبة، بل إن شركات جديدة قد أنشئت خصيصاً للاستفادة من هذه الفرصة الابتزازية؛ إضافة إلى الشركات الكبيرة لتصنيع الأسلحة التي قد انتعش سوقها بشكل غير مسبوق؛ إذ إن كل أسلحة الجيش الأمريكي التي شاركت في هاتين الحربين المدمرتين - فضلاً عن الحروب التي في قائمة المشروع الأمريكي - سيتم تحديثها أو استبدالها، وهذا هو

الأغلب (أي استبدالها)، ولهذا فليس من المستغرب أن تبلغ ميزانية وزارة الدفاع الأمريكية وحدها حوالي ٤٠٠ مليار دولار، ولا يدخل في هذا الرقم المبلغ الذي وافق عليه الكونجرس الأمريكي تحت مسمى إعادة إعمار العراق، والذي بلغ حوالي ٨٧ مليار دولار. وتأمل الولايات المتحدة أن مشروعاتها المعلن للحروب الاستباقية والذي سيمتد إلى عام ٢٠١٣م؛ سيحقق لها تفوقاً اقتصادياً عظيماً سيساهم في تقليل نسبة البطالة إلى أقل ما يمكن، وأن يرفع معدل الدخل الفردي إلى أعلى ما يمكن، وأن يحافظ على قيمة الدولار.

ولكن هل ستنجح الولايات المتحدة في تحقيق هذه الآمال إذا ما استمر الاستنزاف المالي الكبير في النفقات العسكرية على وتيرته الحاضرة؟! إن الولايات المتحدة ستحاول معادلة ذلك من خلال تطوير مشاريعها الزراعية والصناعية والتكنولوجية؛ علماً أن هذه المشاريع تُعدُّ حالياً في أحسن حالاتها وأعلى معدلات إنتاجها وتطويرها. وقد ظهر ذلك جلياً من خلال موازنة عام ٢٠٠٣م التي عرضها الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش على الكونجرس بتاريخ ٤ فبراير ٢٠٠٢م، حيث بلغ حجم الموازنة المجل ٢١٢٨ مليار دولار؛ منها ٣٧٩ مليار دولار للدفاع، و ٤٠ ملياراً للأمن الداخلي، و ٧٤٦ مليار دولار للضمان الاجتماعي والرعاية الصحية. وهذه الأرقام تدل على عائد مرتفع جداً من المشاريع الزراعية والصناعية والتكنولوجية (حيث قدّرت بـ ٢٠٥٠ مليار دولار)^(١).

٢ - القوة العسكرية :

انفردت الولايات المتحدة بعد انهيار الاتحاد السوفيتي بوصفها أقوى إمبراطورية عسكرية شهدتها التاريخ؛ خاصة في مجال تطوير التكنولوجيا الفائقة في خدمة أدق مكونات الآلة العسكرية؛ غير أن طموح الولايات المتحدة في إحكام السيطرة الفعلية على العالم في إطار مفهوم العولمة (أو الأمركة)؛ يحتاج (١) أمركة الأمم وصدام الحضارات، الشيخ جعفر حسن عتريس، ص ٤١٩، ٤٢٠.

إلى مزيد من التطوير العسكري في إطار استراتيجية واضحة المعالم، وضمن هذه النظرة التحليلية؛ فإن الولايات المتحدة قامت بالإجراءات الآتية:

١ - تقوية منظومة حلف الناتو؛ سواء بإضافة دول جديدة إلى عضويته، أو بواسطة دعمه عسكرياً وتكنولوجياً.

٢ - التمهيد لإيجاد ظروف مناسبة لجعل روسيا واحدة من الدول التنفيذية للمخطط الاستراتيجي الأمريكي. وسيتحدد هذا التوجه بشكل أجلى إذا أُعيد انتخاب الرئيس الروسي الحالي بوتين رئيساً لروسيا.

٣ - تقييد الصين وإبعادها عن أن تكون طرفاً مناوئاً للولايات المتحدة في أي نزاع عسكري مقبل، وخاصة مع كوريا الشمالية.

٤ - تعزيز علاقاتها مع الهند بغية الاستفادة منها في الضغط على باكستان لتبقي منصاعة للسياسة الأمريكية، ولإحكام إدارة منطقة جنوب شرق آسيا.

مع ضمان تحقيق النقاط الأربع المذكورة؛ فإن الولايات المتحدة ستواصل دعم قدرتها العسكرية على مستوى الإعداد والإمداد لتواصل نشر هذه القوات في أرجاء مختلفة من العالم، وخاصة العالم الإسلامي؛ إذ إن نجاحها في احتلال أفغانستان والعراق سيضعها على إكمال مخططاتها، والذي يتناول دولاً عربية وإسلامية أخرى من مثل سوريا وليبيا والسودان وإيران، وربما السعودية كذلك ثم مصر، كل ذلك في إطار المفهوم الأمريكي للعولمة!!

٣ - الإعلام:

من يسيطر على الإعلام يسيطر على الرأي العام، من هذه المقولة تولي الولايات المتحدة اهتماماً كبيراً بالتوجيه الإعلامي على كل المستويات؛ خاصة إذا علمنا أن الإعلام المفتوح هو السمة الرئيسة في ذلك البلد المترامي الأطراف، يقول جوزيف س. ني - عضو سابق في البنتاجون، والرئيس الحالي لمدرسة كيندي في هارفارد -: «إن أمريكا، بفضل قدرتها المذهلة على دمج الأنظمة

المعقدة في الإعلام؛ سوف تعزز في مستقبل منظور هيمنتها السياسية العالمية^(١). ويقول ميشال بوغنون-موردان: «إن الحاسوب والهاتف والتلفزيون - من جهة -، والكابل والفيبرات البصرية والموجات والأقمار (الساتلايت) الوسائل المتنوعة - من جهة أخرى -، وأخيراً استديوهات السينما والإعلان والصحافة والتأهيل (المضمون)؛ تشكل مجمعاً مذهلاً. والهدف الوحيد هو استملاك الإنتاج والتوزيع، وإقامة احتكارات عملاقة»^(٢).

إن وقفة سريعة مع وسائل الإعلام المتوفرة في الولايات المتحدة تغني عن كثير من الكلام والتحليل:

١ - مصادر الأخبار: تدفع المطابع ١٧٠٠٠ صحيفة يومية، وما لا يقل عن ١١٠٠٠ مجلة. ويوجد فيها أكثر من ١٠٠٠٠ محطة إذاعية، و ١٥٠٠ محطة تلفزيونية، و ٢٥٠٠ دار نشر للكتب. ويقرأ ما يزيد على ١٠٠ مليون أمريكي (أي ٨٠٪ من السكان الراشدين) صحيفة يومية بانتظام. وتعتبر صحيفة -USA TODAY وصحيفة «نيويورك تايمز» و«ول ستريت جورنال» من أشهر الصحف، حيث تبلغ مبيعات الـ USA TODAY مليوناً ونصف المليون صحيفة يومياً، ومبيعات «نيويورك تايمز» و«لوس أنجلوس تايمز»، وواشنطن بوست؛ مجتمعة حالياً ثلاثة ملايين نسخة. وعلى مستوى المجلات الخيرية الأمريكية؛ فإن مبيعات مجلة «تايم» و«نيوزويك» و«يو. إس نيوز أند وورلد ريبورت» تبلغ ما مجموعه ١٠ ملايين مجلة^(٣).

٢ - مصادر البث: إما عن طريق الشبكات، وإما بواسطة المحطات المحلية، الشبكات التلفزيونية الرئيسة ثلاث هي: (إيه بي سي)، و(سي بي إس)، و(إن بي سي)، حيث يشاهد كلاً منها ما لا يقل عن ٥٠ مليون مشاهد^(٤).

(١) أمركة التوتاليتارية، ميشال بوغنون-موردان، ص ٢٠٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٠٤.

(٣) لعبة وسائط الإعلام، ستيفن إينزلايبر، روي بير، شانتو إينجر، ص ٤١، ٤٢.

(٤) المصدر السابق، ص ٤٤.

وفي حين أن أخبار الشبكات تتكون من مجموع التقارير الصادرة عن واشنطن ونيويورك وشيكاغو ولندن وموسكو وتل أبيب؛ فإن الأخبار المحلية تزخر بتقارير تقتصر على الولاية والمقاطعة والبلدية كمصدر لأخبارها؛ مع ملاحظة أن مشاهدي الأخبار المحلية يزيدون على مشاهدي الشبكات في الجملة^(١).

وأما على المستوى العالمي فإن «تيد تورنر» عن طريق شبكته العالمية (C.N.N) يطر أكثر من ٨٠ مليون بيت في ١٤٢ بلداً بمعلومات هي صوت أمريكا وعيونها، وبواسطة محطاته ASTRA و CARTON NETWORK اللتين تبثان على مدى ٢٤ ساعة؛ فإنه يطر كل البلدان التي تتلقاهما برسوم متحركة (حنة - بربرة) عن طريق قناته (T.N.T) مع أفلام (M.G.M)^(٢).

كما أن مختبرات هوغز للاتصالات توشك أن تجرب نظام ساتلايت DIRECT TV يث ١٥٠ قناة، والكونسورتيوم المكون من AT & T، سيلكون غرافيكز، تايم-ورز، يحضر مشروعاً ضخماً FULL NETWORK SERVICE، سيكون قادراً على تقديم ما يناهز ٥٠٠ فيلم مرقم، علاوة على الألعاب والمعلومات والرياضة، والشراء تلفزيونياً، والتأهيل، وشتى الخدمات بالحاسوب (تعليق: لعل هذه المشروعات قد وضعت في الخدمة منذ سنوات). وفي يوم ١٥ / ٢ / ١٩٩٧م أشرفت منظمة التجارة الدولية (O.M.C) على اتفاقية حول الاتصالات، ستقدم عشرات الأسواق لمحركي الاتصال من العمالقة الأمريكيين، فمن أصل الخمسة عشر محركاً عالمياً الأوائل؛ هناك ١٠ محركات اتصال أمريكية هي: ATT، بلساوث، GTE، نينكس، بل أتلانتيك، MCI، أميرتيك، سيبرينت، ساوتون بل، -US WEST^(٣).

(١) المصدر السابق، ص ٥٠.

(٢) أمركة التوتاليتارية، ميشال بوغندن-موردن، ص ٢٠٧.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٠٨، ٢٠٩.

٣ - وكالات الأنباء، ومن أهمها :

- وكالة الأسوشيتدبرس (أ.ب.): حيث تأسست في مايو ١٨٤٨م على يد ستة ناشرين، يبلغ عدد جهازها الإخباري ١٦٠٠ فرد ما بين مراسل ومحرر ومصور، يعملون على مدار الساعة في داخل الولايات المتحدة وخارجها، وتقدم الوكالة خدماتها لحوالي ٦٠٠٠ محطة إذاعة وتلفزيون، وقرابة ١٥٠٠ صحيفة، يضاف إليها ما يزيد على ١٠٠٠٠ جريدة ومحطة إذاعة وتلفزيون فيما وراء البحار.

- يونائتدبرس إنترناشونال (يو بي آي): تأسست في يونيو ١٩٠٧م، يبلغ عدد العاملين فيها ٢٠٠٠ موظف بدوام كامل، وآلاف غيرهم مكلفون. وتقدم خدماتها إلى ٧٠٠٠ مشترك في ١٠٠ دولة، وتبث ١٤ مليون كلمة يومياً.

- فيوتشر نيوز سيرفس (إف إن إس): تأسست في مارس ١٩٢٤م، تبث بالإنكليزية والفرنسية والألمانية واليابانية والصينية وغيرها. وتقدم خدماتها لحوالي ١٨٧ جريدة يومية و ٣٦ مجلة في أنحاء العالم كافة، وتقدم خدمات إخبارية كاملة وخدمات مشتركة ومقالات.

- يونائتدميديا: تأسست عام ١٩٧٧م، وهي متخصصة بكتابة أعمدة سياسية وعامة، ولقطات هزلية، وأحاج، ومقالات، وخدمات أخبار، وتبث باللغة الإنكليزية، وموضوعات مختارة بالإسبانية^(١).

وقبل مغادرة هذه المحطة لا بد من الإشارة إلى تسخير القوى الدينية في الولايات المتحدة لوسائل الإعلام لخدمة برامجها، والتي ترمي إلى تفعيل الروح الدينية في المجتمع الأمريكي؛ بما يجعله متقبلاً للدعم المطلق للكيان اليهودي

(١) دليل وكالات الأنباء، وكالة كونا الكويتية، ص ١٣٤ - ١٣٩.

باعتبار أن عودة المسيح مرتبطة بهذا المفهوم^(١).

٤ - التعليم والإدارة:

إنه مرتكز أساسي ودعامة راسخة من عوامل القوة الذاتية الأمريكية، وبحسب إحصائية منذ ٢٠ عاماً تقريباً بلغ عدد المدارس في الولايات المتحدة ٨٣٦٨٨ مدرسة، وعدد المعاهد والجامعات ٣٢٥٣ جامعة ومعهد، وعدد الطلبة ٦٠,٨ مليون طالب، وقد حصل حوالي ٢٤ ٪ منهم على شهادة البكالوريوس، و ٨ ٪ على شهادة الماجستير، و ١ ٪ على شهادة الدكتوراه. وصل عدد المكتبات عام ١٩٨٢م إلى ٣٢١٣٦ مكتبة، تحوي ما يزيد على ٥١٧ مليون كتاب، ومن أكبر تلك المكتبات مكتبة جامعة هارفارد؛ إذ تحوي حوالي ١٠ ملايين كتاب، ويعمل فيها حوالي ٨٠٠ موظف^(٢). إن هذه الأرقام تعطي دلالة على متانة القاعدة العلمية التي تستند إليها الولايات المتحدة في أمركة العالم. وأما على المستوى الإداري؛ فإن الولايات المتحدة تعدُّ من أبرز الدول في تقدمها الإداري والاستفادة بأقصى ما يمكن من التقدم التكنولوجي في عالمي المعلومات والاتصالات.

الثاني : عوامل الضعف الذاتية:

إن الولايات المتحدة، رغم ما تبدو عليه من القوة والمنعة، إلا أن عوامل ضعف

(١) تفصيل هذه النقطة ذكرته في كتابي «الوميض» - غير مطبوع -، ولمزيد من التوسع يمكن الاطلاع على الكتب الآتية:

- القطاع الخيري ودعائى الإرهاب، د. محمد عبد الله السلومي.
- النبوة والسياسة، غريس هالسل.
- الحقيقة بين النبوة والسياسة، محمد نضال الحافظ.
- الاستغلال الديني في الصراع السياسي، محمد السماك.
- الدين في القرار الأمريكي، محمد السماك.
- الصهيونية المسيحية، محمد السماك.

(٢) حقيقة أمريكا، د. محمد عمر الحاجي، ص ٥٦، ٥٧.

مهمة تنخر في بنيتها، ومن أبرزها :

أولاً: تخلخل عوامل القوة الذاتية :

رغم ما تبذله الولايات المتحدة من جهد بالغ للاحتفاظ بقدراتها الاقتصادية بحيث تكون الرائدة والضاغطة ؛ فإن منافسة عارمة من جهة اليابان والاتحاد الأوروبي تنغص على الولايات المتحدة شعورها بالاعتداد الاقتصادي الذاتي، يقول «إيمانويل تورد» في كتابه (ما بعد الإمبراطورية، دراسة في تفكك النظام الأمريكي) : «إن نقاشاً أكثر منهجية بين الأوروبيين واليابانيين الذين يواجهون جميعاً محاولة أمريكا السيطرة على مصادر تموينهم بالطاقة يبدو حتمياً، ولا يمكن للتشابه بين الاقتصادات الأوروبية واليابانية الصناعية إلا أن يقود إلى التقارب بين الطرفين، هذا هو ما تكشف عنه بوجه خاص حركة الاستثمارات المباشرة اليابانية في الخارج، كسواء أو تأسيس المنشآت، ففي عام ١٩٩٣م وظفت اليابان ١٧٥٠٠ مليار «ين» في أمريكا، ولم توظف في أوروبا إلا ٩٢٠٠ مليار «ين». وانقلبت النسبة عام ٢٠٠٠م؛ إذ وظفت اليابان في أوروبا ٢٧٠٠٠ مليار «ين»، واكتفت بتوظيف ١٣٥٠٠ مليار «ين» في أمريكا»^(١).

وأما عامل القوة العسكرية ؛ فإن النظرة الاستراتيجية تفيد أن السيطرة على العالم عسكرياً أكبر من المقاس الأمريكي ؛ إذ كلما دخلت حرباً واحتلت بلداً زاد عبئها العسكري وتعددت مشكلاتها الإمدادية (اللوجستية). إن الخسائر الفادحة التي تتكبدها الولايات المتحدة عسكرياً في كل من أفغانستان والعراق لا يمكن التكتّم عليها إلى الأبد، وإن التعتيم الإعلامي على ذلك لا يغير من الحقيقة شيئاً.

وأما الإعلام الأمريكي ؛ فرغم أن جلّه تحت الهيمنة اليهودية ؛ إلا أن الحرية المتاحة للكلمة والصورة قد أتاححت للأصوات الحرة نوافذ متعددة لإظهار الحقائق

(١) ما بعد الإمبراطورية، إيمانويل تود، ص ٢١٦، ٢١٧.

للشعب الأمريكي، وخاصة بعد أن أصبحت الشبكة العالمية (الإنترنت) في متناول الجميع؛ مع ملاحظة أن كثيراً من ذلك الشعب يركز معظم اهتمامه على ما يثقل كاهله من الضرائب، وما يتعلق بحركة البورصة؛ أكثر بكثير مما يجري في مختلف بقاع المعمورة، وهذا ما يبين سبب زيادة مشاهدي المحطات التلفزيونية الداخلية على مشاهدي الشبكات التلفزيونية العالمية.

ثانياً: هاجس الإرهاب الدولي وتفاقم الرعب الداخلي :

لقد أصابت أحداث ١١/٩/٢٠٠١م الاستقرار الأمني الداخلي في الصميم، ولأول مرة تُستحدث وزارة للأمن الداخلي، ولأول مرة دخل الرعب إلى قلوب الأمريكيان في عقر دارهم، وأصبح الهاجس الأمني لدى الإدارة الأمريكية كالكابوس الذي وضع له عرشاً على قبة البيت الأبيض. واستحدثت الولايات المتحدة نظام إنذار واستنفار مكون من خمس درجات، لكل درجة لون، وأعلها الأحمر وما قبله البرتقالي والذي قبله الأصفر، وأضحت جميع وسائل النقل وخاصة الجوي تخضع إلى أساليب قاسية في التفتيش على المسافرين بأشخاصهم وبأمتعتهم، وأضحت المحصلة النهائية أن كل أمريكي يدفع الآن من أمنه واستقراره ضريبة رعاية حكومته للإرهاب العالمي، وخاصة رعايتها لدولة الكيان اليهودي وللأنظمة المستبدة التي أرهبت شعوبها وغلّتها بالحديد وكوتها بالنار. إن عدم شعور الأمريكي بالأمن وهو في بلده هو المسمار الحقيقي الذي يدق في نعش الإمبراطورية العظمى، لقد وقّع الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش في ٢٦/١٠/٢٠٠١م في البيت الأبيض وسط حشد من إدارته والكونجرس والزعماء الأمريكيين (قانون الإرهاب)، ومما جاء في عناوينه :

١ - التوقيف .

٢ - التجسس .

- ٣ - مراقبة المكالمات والرسائل البريدية والإلكترونية .
- ٤ - مراقبة المنازل .
- ٥ - مراقبة خصوصيات الأشخاص .
- ٦ - الحجز دون محاكمة أو لسبب محدد للأجانب كما غيرهم .
- ٧ - شموله لقانون الأدلة السرية ، ارتباطه به .
- ٨ - صلاحيات الإدارة بتجميد الأموال والأرصدة والمصادرة .
- ٩ - حق الإدارة بانتهاك مبدأ السرية المصرفية .
- ١٠ - حق الاستخبارات بالقيام بكل أمر يحفظ الأمن الأمريكي ^(١) .

ثالثاً: الانهيار الاجتماعي :

إن المتمعن في الدافع الاجتماعي الأمريكي يصاب بالذهول وتأخذه الدهشة ، وسيعمل عقله بكامل طاقته في محاولة - ربما تكون يائسة - لتسوُّغ بقاء الولايات المتحدة دولة ذات كيان متماسك ، ولعلي أسوق بشكل مختصر ومختزل جداً بعضاً من مظاهر الانهيار ، والذي سيكون مقدمة لانهيار الدولة كلها :

١ - التمييز العنصري :

ألوان التمييز العنصري في الولايات المتحدة كثيرة ومتعددة ، ولكن من أبرزها :

- التمييز العنصري ضد السكان الأصليين (الهنود الحمر) : حيث تمت إبادةهم عبر الحروب التي شنها البيض الأوروبيون الغزاة عليهم ، فلم يبق منهم

(١) أمركة الأمم وصدام الحضارات ، الشيخ جعفر حسن عتريس ، ص ٣٨٠-٣٨٢ .

إلا ما يتجاوز المليونين بعد أن كان عددهم عشرات الملايين . وكان التعامل معهم باعتبارهم طريدة صيد؛ تُسلخ جلودهم الحمراء فتباع بأثمان مرتفعة، وكذا تباع جماجمهم إلى أرقى متاحف أمريكا، ولذا فإن الهنود الأمريكيون يصرون على أن كل ما في مدافنهم قد تمت سرقة للتجار به .

- التمييز العنصري ضد السود: وهو لا يزال قائماً إلى الآن، ولكن بشكل أخفى مما كان معلناً في السابق . يبلغ عدد السود الأمريكيان حوالي ٤, ٣٣ مليون نسمة، أي ٨, ١٢٪ من مجمل السكان، ويتعرضون لتمييز عنصري شديد على جميع المستويات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والوظيفية وغيرها، وهم الأكثرون في السجون، وهم الأكثر عقوبة في المحاكم الأمريكية بشكل تمييزي واضح، ودلت الإحصائيات على أن ٧٪ من الأطفال السود لهم أحد الوالدين في السجن!!

٢ - جرائم القتل :

جاء في تقرير صادر عن صندوق رعاية الطفولة، وهو المنظمة الرئيسة لحماية الأولاد في الولايات المتحدة، أنه بين عامي ١٩٧٩م - ١٩٩١م قُتل بالرصاص نحو ٥٠ ألف أمريكي تقل أعمارهم عن تسع عشرة سنة، و ٤٠ ألف أمريكي أعمارهم بين الخامسة عشرة والتاسعة عشرة، و ٩ آلاف تقل أعمارهم عن أربع عشرة سنة، وجاء في تقرير نشرته رويتر بتاريخ ١٤ / ١٢ / ٢٠٠٠م تحت عنوان: (العنف وباء الشباب في أمريكا، والوقاية هي الحل لا السجن) : «توجد في الولايات المتحدة أعلى معدلات لجرائم القتل والانتحار بين الشباب في الدول الست والعشرين الأكثر ثراءً في العالم؛ إذ إن واحداً من كل ثمانية قتلى يقل عمره عن ١٨ عاماً» .

٣ - الخمر والمخدرات :

تعاطي الخمر مشاع في الولايات المتحدة، ويقره القانون رغم إنه من أبرز أسباب الجرائم بأنواعها. أما المخدرات فهي رغم أن القانون يعاقب على تعاطيها؛ فإنها منتشرة على نطاق واسع. وقد ورد في النتائج التي عممها معهد الآباء الوطني للتوعية من المخدرات: أن ٥٢٪ من الطلبة من الصف السادس وحتى الصف الثاني عشر تناولوا مشروبات كحولية خلال العام الدراسي ٢٠٠٠/٢٠٠١م!! وأن نسبة تعاطي المخدرات في ذلك العام بلغت ٤١,٤٪ بين المراهقين الذين يقيمون مع أب واحد، و ٢٠,٤٪ بين المراهقين الذين يقيمون مع كلا الوالدين. ودلت الإحصاءات على أن هناك أكثر من ٢٠ مليون متعاط ظرفي للمخدرات، وأن ٣ من كل ٥ (أي ٦٠٪) يتعلقون بها ويدمنون عليها. وقد بلغت الكلفة الإجمالية لاستهلاك المخدرات في الولايات المتحدة عام ١٩٩٥م ١١٠ مليارات دولار؛ بحسب ما جاء في دراسة عن الإجرام الدولي أعدت بناءً على طلب الرئيس الأمريكي كلينتون، مؤرخة في ١٨/١٢/٢٠٠٠م، وهو رقم مخيف حقاً!!

٤ - الانتحار:

بتاريخ ٣/٥/٢٠٠١م أوردت صحيفة السفير خبر وضع خطة طوارئ أمريكية لمواجهة الانتحار المتزايد في الولايات المتحدة، والذي يحتل المركز الثامن في أسباب موت الأمريكيين. وقد جاء في تقرير الطبيب العام الأمريكي ديفيد ساتشر - وهو بدرجة وزير في الإدارة الأمريكية - أن أكثر من ٣٠ ألف أمريكي يموتون انتحاراً سنوياً. وقد سجلت محاولات الانتحار بين الأمريكيين أكثر من ٦٥٠ ألف محاولة سنوياً، وهي في تزايد مستمر.

٥ - إباحية الجنس :

تنتشر الإباحية في المجتمع الأمريكي بشكل فظيع، نزلت به إلى مستوى

الانحطاط الشنيع، ولعل الاستغلال الجنسي للأطفال يعطي مؤشراً قوياً بهذا الصدد، فقد كشفت دراسة مؤرخة في ١٢/١٢/٢٠٠١م، أعدها باحثون من جامعة بنسلفانيا: أن نحو ٣٢٥ ألف أمريكي على الأقل، وفق المعلومات الدفترية دون الحالات المبلغ عنها، تقل أعمارهم عن ١٧ عاماً، يتعرضون كل سنة للاستغلال الجنسي؛ منهم باختياره، ومنهم اغتصاباً. وقد شملت الدراسة مئات الشبان في ١٧ مدينة أمريكية. وقد ذكر الباحثون في دراستهم تلك أن ١٢٢ ألف هم من الأطفال المشردين، أو الذين تخلّى عنهم أهلهم، أو الهاربين الذين يلجؤون إلى الممارسات الجنسية لشراء الطعام وإيجاد المسكن، وأن أكثر من ٧٣ ألفاً يمارس معهم الجنس لكسب المال من أجل امتلاك ثياب أفضل وغيرها من المنتجات الاستهلاكية.

وقد أصبحت الشبكة العالمية (الإنترنت) من الوسائل التكنولوجية المستغلة في هذا الاتجاه، فقد جاء في تقرير لرويتز بتاريخ ١١/٩/٢٠٠١م بعنوان (غرف نوم النساء): «إن الولايات المتحدة وأوروبا وكندا وأستراليا تشهد طريقة مختلفة في استثمار غرف النوم عبر شبكة الإنترنت، تحت اسم: موقع مصور، تعتمد فيه الفتيات إلى فتح غرف نومهم على شاشة الإنترنت لمعرفة ما يجري فيها، من صور ثابتة ومتحركة، بقصد الإثارة»، وقد أدت هذه الإباحية الجنسية إلى انتشار الإيدز في الولايات المتحدة بأرقام قياسية، حيث يموت بسببه كل عام أكثر من ١٦ ألف أمريكي، و٤٠ ألفاً على الأقل يُصابون به سنوياً، والرقم في ازدياد. كما أن الشذوذ الجنسي قد اختط طريقه في الولايات المتحدة بما فاقم من انتشار فيروس الإيدز، وقد ورد في دراسة أمريكية، مؤرخة في ١٦/٨/٢٠٠١م، أن الإيدز يفتك بـ (الشواذ)، وأنه في مدينة سياتل تضاعف عدد حاملي الفيروس من ١٠٪ إلى ٢٠٪، وأنه في مدينة ميامي ١٦٪ من الشواذ- تتراوح أعمارهم بين ٢٣ و ٢٩ عاماً- حاملون للفيروس الذي أصاب ٣٤٪ ممن هم فوق ٢٩ عاماً!!

لا نعجب من هذه الأرقام إذا علمنا أن نحو ٢٥ ٪ من النساء و ٧,٥ ٪ من الرجال يتعرضون مرة واحدة على الأقل في حياتهم للاغتصاب؛ كما جاء في الدراسة التي نشرها المعهد الوطني للعدالة في الولايات المتحدة والمؤرخة في ١٧/٧/٢٠٠٠ م.

٦ - اضطهاد المرأة:

نشرت صحيفة السفير بتاريخ ١٦/١٠/٢٠٠٠ م تقريراً أمريكياً، أظهر أن أجر المرأة في الولايات المتحدة ما زال يقل عن أجر الرجل بشكل واضح مقابل القيام بالعمل نفسه، كما أظهرت مجموعة إحصائية صدرت في عام ٢٠٠٠ م أن المرأة تشكو اضطهاداً سياسياً واجتماعياً وتميزاً عنصرياً اقتصادياً بشكل كبير، وقال معهد بحوث سياسة المرأة: «إن الفجوة بين أجر المرأة والرجل تتراوح بين ١٤ سنتاً للدولار في واشنطن إلى ٢٧ سنتاً»، وفي المتوسط تحصل المرأة العاملة على ٧٤ سنتاً مقابل كل دولار يحصل عليه الرجل عن العمل نفسه.

وأيضاً فإن المرأة الأمريكية تتعرض لبطش الرجل بصورة وحشية، فقد أظهرت الدراسة الحكومية الأولى عن العنف الأسري؛ أن ١٤ ٪ من الزوجات اللاتي شملتهن الدراسة تعرضن لضرب مبرح يحتاج إلى علاج طبي. وأن أقل من ٥ ٪ يتعرضن لاعتداءات تهدد حياتهن، وأن أكثر من ١٧ ٪ يشكون من إجبارهن على الجماع بطريقة شاذة لا توافق العلاقات الزوجية. وأفادت دراسة نشرها المعهد الوطني للعدالة في الولايات المتحدة بتاريخ ١٧/٧/٢٠٠٠ م؛ أن العنف المنزلي في أمريكي يصيب ربع النساء خلال حياتهن. ومن اللافت للنظر أن الوضع العام في الولايات المتحدة قد أوجد تغييراً سيكولوجياً في خصائص المرأة، فقد كشفت دراسة أجريت عام ١٩٩٧ م بإشراف الطبيبة مارسيا هرمان- غيدنز، وشملت ١٧ ألف فتاة أمريكية بين سن ٣ سنوات و ١٣ سنة؛ أن أكثر من ربع الفتيات السوداوات و ٧ ٪ من الفتيات البيضوات في الولايات المتحدة تظهر

لديهن أعراض سن البلوغ منذ السابعة من عمرهن، وأظهرت الدراسة أن ٣٢٪ من الفتيات البيضاوات و ٦٢٪ من السوداوات تبرز نهودهن وينبت لديهن الشعر الزائد لدى بلوغهن التاسعة؛ أي قبل سنتين من السن الطبيعية.

٧ - التفاوت الطبقي:

يوجد في الولايات المتحدة ٩ ملايين أسرة فقيرة؛ في حين يملك أقل من ٨٪ أكثر من ٨٠٪ من الثروة الأمريكية؛ منهم ١١ غنياً يملكون ما مجموعه ٣٣١ مليار دولار أمريكي؛ على قمتهم بيل جيتس صاحب شركة مايكروسوفت، حيث بلغت ثروته ٦٣ مليار دولار بعد صدور حكم تقسيم شركته إلى شركتين. كما أن ١٠٠ ملياردير أمريكي يملكون ثروة أكثر من ثروة ٨٠ دولة من أصل ١٩٠ دولة في العالم. وعلى مستوى الشركات؛ فقد ذكرت وكالة رويتر بتاريخ ١٩/٩/٢٠٠٠م أن ٧ شركات، هي الكبرى في العالم في المجال النفطي، جنت خلال النصف الأول من عام ٢٠٠٠م أرباحاً صافية تربو على ٢٧ مليار دولار، أي ما يعادل قيمة مجمل إنتاج أوبك مجتمعة لمدة ٤٠ يوماً؛ منها أكثر من ٤٥٪ هي حصة أرباح الشركات الأمريكية الأربعة: أكسون-موبيل (٨ مليارات دولار)، شيفرون (١, ٢ مليار دولار)، تكساكو (٢, ١ مليار دولار)، إيسول (١ مليار دولار). إن هذه الأرقام تفسّر بشكل واضح المظاهرات الصاخبة التي تندلع ضد العولمة في أرجاء مختلفة كما حصل في سياتل وغيرها، ولا شك أن هذا التفاوت الطبقي الخطير يترك آثاره الحادة في خلخلة البيئة الاجتماعية الأمريكية؛ خاصة أن الفقراء يعتبرون أنفسهم محرومين ومضطهدين إزاء ما يتعلق بأساس المعيشة؛ في الوقت الذي ترى أعينهم وسائل الترفيه الكثيرة، والتي لا يتمتعون منها بشيء؛ إذ قد بلغ رقم الإنفاق على الترفيه في عام ٢٠٠٠م ٢٦٥ مليار دولار مقابل ١٣٩ مليار دولار عام ١٩٩٢م، وكذا ارتفع الإنفاق على خدمات «الرعاية الشخصية» إلى ٧٧ مليار دولار عام ٢٠٠٠م مقابل ٤٧ مليار

دولار عام ١٩٩٢ م. هذا فضلاً عن مبالغ تبييض الأموال، والتي بغلت حوالي ١٠٠٠ مليار دولار سنوياً؛ منها ٣٠٠ إلى ٥٠٠ مليار دولار تأتي عن طريق تهريب المخدرات، حيث بلغت الكلفة الإجمالية لاستهلاك المخدرات عام ١٩٩٥ م ١١٠ مليار دولار.

٨ - الاكتئاب والانهيار العصبي:

وهما ضريبة فقدان الأمن والشعور بالخوف من الاعتداء والاعتصاب والسطو والقتل وتناول المخدرات وإدمان الخمر، كما يقول الشيخ جعفر حسن عتريس صاحب كتاب (أمركة الأمم وصدام الحضارات)، والذي اعتمدت على ما جاء فيه من إحصاءات في جل ما أوردته تحت عنوان (الانهيار الاجتماعي). لقد أفادت دراسة، بتاريخ ١١ / ١ / ٢٠٠٢ م نشرتها صحيفة الجمعية الأمريكية الطبية، أن عدد الأمريكيين الذين عُولجوا من الانهيار العصبي ارتفع ٣ مرات في العقد الأخير. ويُعدُّ الانهيار العصبي والاكتئاب هما مرض الأمريكيين خلال عشر سنوات، كما أن عدد المرضى الذين عُولجوا من الانهيار العصبي ارتفع من ٧٣,٠ ٪ عام ١٩٨٧ م إلى ٣٣,٢ ٪ في عام ١٩٩٧ م، وأن نسبة الأشخاص الذين عُولجوا واستخدموا مضادات الاكتئاب ارتفع من ٣,٣٧ ٪ إلى ٥,٧٤ ٪.

٩ - الجثث نفايات نووية:

إن أحد أوجه الانهيار الاجتماعي هو الانهيار الأخلاقي، حيث تندثر القيم الفطرية، وتُهان الذوات البشرية، وتصبح جثة الإنسان نفاية نووية!! لقد كشفت صحيفة الأوبزيرفر الأسبوعية البريطانية بتاريخ ٧ / ٧ / ٢٠٠١ م، نقلاً عن وثائق بريطانية محفوظة سرياً، عن أن الآلاف من جثث الأطفال الذين ولدوا ميتين كانت تستخدم بدون علم ذويهم لإجراء تجارب نووية عليهم في الولايات المتحدة، ثم يرمون بعد التلف كنفايات نووية، وذلك اعتباراً من الخمسينيات!!

وذكرت الصحيفة أن حوالي ٦ آلاف جثة على الأقل أُحضرت من هونغ كونغ وأستراليا وبريطانيا وكندا وأمريكا الجنوبية إلى الولايات المتحدة. وأن الجثث الصغيرة أرسلت بهدف استخدامها في تجارب تقوم بها وزارة الطاقة الأمريكية لمعرفة مستوى آثار النظير المشع سرونتيوم ٩٠. وأن البريطانيين تعاملوا مع مختبرات الفيزياء النووية الأمريكية في هذا المشروع الذي كان يعرف بـ (project sunshin).

١٠ - المسجونون :

إن عدد المسجونين يعكس الحالة الأمنية الاجتماعية استقراراً أو اضطراباً، وما سأذكره من أعداد المسجونين يوضح المستنقع الكبير للجرائم التي تودي بأصحابها إلى السجن؛ مما يدل على شدة اضطراب المجتمع الأمريكي. لقد اعتبرت أمريكا منذ عام ١٩٩٥ م الأولى في العالم من حيث عدد المساجين وإصدار الأحكام القضائية الجنائية، ففي ٢٥ / ٨ / ١٩٩٩ م أعلنت وزارة العدل الأمريكية أن عدد البالغين المسجونين أو من هم خارج القضبان بكفالة لعام ١٩٩٨ م؛ قد بلغ عددهم ٦ ملايين سجين، وأن أمريكياً واحداً من كل ٣٤ أمريكياً كان مع نهاية عام ١٩٩٨ م إما داخل السجن وإما خارج القضبان بكفالة وإما تحت مراقبة الشرطة بأمر قضائي. وتعج السجون الأمريكية بأنواع من القهر البدني والمعنوي، ففي تاريخ ١٢ / ٥ / ٢٠٠٠ م أدانت منظمة العفو الدولية التعذيب الجسدي والنفسي الذي يمارس بوحشية في سجون الولايات المتحدة الأمريكية، وأكدت عبر الوثائق أن سجون الولايات المتحدة الأمريكية هي عالمياً الأكثر استعمالاً للتعذيب الجسدي والاعتداء على حقوق المواطن في ظروف تعتبر الأكثر سوءاً.

وأشار التقرير إلى أن الموقوفين لعام ٢٠٠٠ م تجاوزوا حدود مليوني شخص، كما أن الضرب من أجل انتزاع الإقرار يعتبر وضعاً معتاداً من دون أن

يؤثر في مجرى المحاكمة ، كما أن نظام السجون والممارسات فيه تقوم على أساس استعمال الزنانات المنفردة لمدة طويلة ؛ مما يؤثر بشكل مثير في الحالة العقلية والعصبية لدى الأفراد ، وإن حالات تعتبر كثيرة نسبياً أدت إلى خلل عقلي وعصبي عند المساجين بسبب نظام الزنانة المنفردة الأكثر سوءاً وتأثيراً ، كما تستعمل السجون الأمريكية نظام الخصر الكهربائي ، وهو عبارة عن جهاز يُربط على الخصر ، موصول بالكهرباء ، يعتمد نظام السجون الأمريكية من أجل التعذيب الحاد ، وهو مشاع الاستعمال في حق المساجين^(١) . ومما يؤكد ذلك ما يلاقه فضيلة العالم الشيخ عمر عبد الرحمن وأسرى جوانتينامو في الزنازين المنفردة مما أصبح معلوماً لكل أحد ، حيث يجري ذلك تحت سمع وبصر كل الناس بما تنقله إليهم أجهزة الإعلام المتنوعة .

١١ - الميليشيات المسلحة :

إنها القنبلة الداخلية الموقوتة التي تقبع بين تلافيف أردية المجتمع الأمريكي ، متى ستنفجر هذه القنبلة ؟ لا ندري ، ومن سيفجرها ؟ أيضاً لا ندري ، ولكنها موجودة . لقد كان نصف المجمع التجاري في أوكلاهوما بتاريخ ١٩ / ٤ / ١٩٩٥ م عن طريق «تيموثي ماكفاي» هو مجرد عملية واحدة ، لكنها ذات وزن مؤثر . إن هذه الجماعة هي واحدة من مئات الجماعات والميليشيات المنظمة في الولايات المتحدة ، والذين يُقدر عددهم بما يزيد عن مائة ألف أمريكي ، ويؤكد تقرير صدر عام ١٩٩٨ م - عن مركز «ساوثرن بوفرتي لوسانتر» الأمريكي المستقل والمتخصص في مراقبة التحركات المعادية للسلطة - أن المجموعات التي تحرض على الحقد ، وتحمل أسماء مثل : (النازية الجديدة ، فروة الرأس ، المدافعون عن العرق الأبيض ، الهوية النصرانية) ؛ ارتفع عددها ما بين عام ١٩٩٦ م و ١٩٩٧ م بنسبة ٢٠ ٪ ليصل إلى ٥٠٠ مجموعة ، تضاف إلى ٨٥٠ مجموعة أخرى ؛ منها ٤٠٠

(١) ما جاء تحت عنوان (الانهيار الاجتماعي) من ١ إلى ١٠ ؛ مصدره كتاب (أمركة الأمم وصدام الحضارات) ، الشيخ جعفر حسن عتريس .

ميليشيا مسلحة منتشرة في أرجاء البلاد . ويقول التقرير إن عدد التحقيقات التي أجراها جهاز الاستخبارات الفيدرالي (F.B.I) خلال ثلاث سنوات في عمليات الإرهاب الداخلي؛ ارتفع من ١٠٠ إلى أكثر من ٩٠٠ تحقيق، ويؤكد «مارك بوتوك» مسؤول المركز المذكور أن معدل المؤامرات الإرهابية الجوية يبلغ واحدة كل شهر، وتتعلم هذه المؤامرات بعمليات نسف جسور أو مبان أو اغتيال شخصيات رسمية أو اقتحام قواعد عسكرية أو سرقة مصارف . وفي ١٨/٣/١٩٩٨م ألقت قوات الأمن القبض على ثلاثة أشخاص تابعين لميليشيا ميشيجان - أخطر الميليشيات المسلحة - وهم يخططون لتفجير مبان فيدرالية ومحطة تلفزيون وأحد الجسور الكبيرة، وخلال الأسبوع نفسه أعلنت السلطات الفيدرالية عن سرقة طن كامل من المتفجرات في مدينة سليجو شمال شرق بنسلفانيا . ويقول «ميتشيل هايمرز» أحد خبراء الجامعة الأمريكية في واشنطن: «إن الإرهاب الداخلي يشكل تهديداً متزايداً، وهو أكثر تنظيماً في أوساط الميليشيا . إنهم لا يستعملون فقط قنابل بسيطة كتلك التي استخدمت في أوكلاهوما سيتي، ولكن مخازنهم تتضمن أسلحة دمار أكثر تطوراً من الأسلحة الكيماوية أو البيولوجية»^(١). وقد أشار مفرح سعود النومس - صاحب كتاب (التهديد النووي في الإرهاب المستقبلي) إلى ما قاله «جون نوكلز» الرئيس السابق للمختبر الوطني الأمريكي الشهير (لورنس ليفرمول)، في حديث له أمام لجنة الدفاع في الكونغرس الأمريكي - إلى أنه باستطاعة الإرهابيين شراء رأس نووي من السوق السوداء، والتي اتسعت بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، ووضعه في سيارة متوقفة قرب مركز التجارة العالمي (وورلد ترید سنتر) في نيويورك مع جهاز توقيت لغرض إرهاب نووي . وقد أيدته في تلك الأفكار «روبرت كوبر»، من

(١) انظر: «الموساد هل يزج الولايات المتحدة في أتون حرب عالمية؟»، د. سامي محمد صالح الدلال، مجلة البيان شعبان ١٤٢٢ هـ الموافق نوفمبر ٢٠٠١م، ص ١٦٩، ١٧٠؛ نقلاً عن مجلة المجتمع ٢٧ جمادى الآخرة ١٤٢٢ هـ الموافق ١٥ سبتمبر ٢٠٠١ عدد رقم ١٤٦٨ .

المتخصصين في السلاح النووي، والعامل في المختبر المنافس (لوس ألاموس)، وقد استوحى المؤلف غلاف الكتاب من هذه المعلومة، حيث يمثل مشهداً من مناهن يختفي فيه برجا مركز التجارة العالمي بخلفية انفجارية^(١). اللافت للنظر أن هذه الميليشيات تكتسب وضعاً قانونياً، حيث ينص الدستور الأمريكي في تعديله الثاني على أن «وجود ميليشيا منظمة أمر ضروري لتأمين حرية كل ولاية».

وقد ذكر د. محمد السلومي في كتابه القيم (القطاع الخيري ودعائى الإرهاب) أسماء ثمان من الميليشيات هي: ميليشيات ولايات أريزونا وكولورادو وفلوريدا وأيداهو وإنديانا وميشيجان وميسوري وأوهايو. وذكر نبذة عن كل منها^(٢). إضافة إلى ذلك فإن هناك منظمات إرهابية تنشط في داخل الولايات المتحدة؛ من أشهرها ما يُسمّى مركز ويسك (S.O.A سابقاً)، ومنظمة بني بريث اليهودية الأمريكية، ومنظمة ميجا الأمريكية الإرهابية، ومنظمة الأغلبية الأخلاقية، ومؤسسات بات روبرتسون، والمنظمة النصرانية للقدس^(٣). لقد أدرجت تلك الميليشيات وهذه المنظمات ضمن الانهيار الاجتماعي؛ باعتبار أنها واحدة من المحاضن الرئيسة التي يتساقط في سلالها المدمنون على الخمر والمخدرات، والمقترفون للجرائم والموبقات، كما أنها بذور ملوثة يمكن أن تتحصل لها في المستقبل أسباب النمو والتمدد، فتصبح أشجاراً ذات ثمار مرّة وقاتلة.

الموازنة بين عوامل القوة وعوامل الضعف الذاتيتين؛

إن التماسك الاجتماعي يُعدُّ الأساس الذي تُشيد على قواعده دعائم بناء

(١) المصدر السابق، مجلة القبس ٣ رجب ١٤٢٢هـ، الموافق ٢٠ سبتمبر ٢٠٠١م؛ نقلاً عن كتاب

«التهديد النووي في الإرهاب المستقبلي»، ص ١٨٣.

(٢) القطاع الخيري ودعائى الإرهاب، د. محمد عبد الله السلومي، ص ١٦٣ - ١٧٣.

(٣) المصدر السابق، ص ١٤٨ - ١٦٢.

الدولة، وأما الاقتصاد والقوى العسكرية والإعلام والتعليم والإدارة والتكنولوجيا وغيرها؛ فهي الدعائم المستندة على تلك القاعدة الأساسية. وهناك نوع ما من اللحمة التي تشد بها تلك الدعائم إلى تلك القاعدة. إن المهام التي تقوم بها دعائم البناء منوعة، وكل دعامة لها من المواصفات ما يناسب وظيفتها، ومن ثم فإن التخلخل الذي يصيب أي دعامة منها؛ فإنه بالإضافة لتأثيره فيهما يؤثر في البناء كله بحسب وظيفة تلك الدعامة. أما إذا أصاب التخلخل أساس البناء وقاعدته التي استندت إليه تلك الدعائم؛ فإن البناء بأكمله سيتعرض للتخلخل، وربما تداعى وانهار إذا بلغت الخلخلة في القاعدة مستوى خطيراً ومؤثراً.

وإذا أمعنا النظر جيداً في عوامل القوة وعوامل الضعف الذاتيتين في الولايات المتحدة، وبحسب الأرقام التي ذكرناها، فإننا نلاحظ أن القاعدة الرئيسة للمجتمع الأمريكي، وهي التماسك الاجتماعي، قد تسرب إليها الضعف والوهن بشكل واضح ومؤثر؛ مما يؤول إلى أن الكيان البنيوي للولايات المتحدة بدأت أساساته تتزعزع بما يجعله على وشك احتضان الخطر الكبير بعد عدة أجيال، وإن ما تقوم به الولايات المتحدة من محاولة تفعيل دعائمها لدعم الامتداد الأفقي عبر قارات العالم بغية عولمتها أمريكياً؛ لا يعبر بشكل واقعي ودقيق عن قوة البناء كله، بل يعبر عن قوة بعض دعائمه، وربما بشكل ظاهري على الأقل.

التدافع الذاتي في البنية الأمريكية:

لم أكن متمكناً من الحديث ضمن هذا العنوان لولا سوقي للأرقام التي انضوت تحت كل عنوان مما سبق. وبمنظرة موضوعية ثاقبة في كل عامل من عوامل القوة والضعف؛ فبإمكاننا تلمس محصلات التدافع في كل منها، وذلك على

الوجه الآتي :

أولاً: التدافع الذاتي في عوامل القوة الذاتية :

١ - التدافع الذاتي في العامل الاقتصادي :

إن دراسة محصلة التدافع تشير إلى أن حصيلتها سلبية (أي إضعاف العامل الاقتصادي)، وذلك بسبب الإنفاق الموسع الذي تتطلبه مخططات الهيمنة والعولمة الأمريكية على جميع بقاع البسيطة . ويمكن تقليل أو محاولة جبر هذا الضعف من خلال إيجاد حالة توازنية بين زيادة الإنتاج وتقليل معدلات الاستهلاك من جهة ، وبين متطلبات الأمركة من جهة ثانية ، وهذا تحد محفوف بالمخاطر !!

٢ - التدافع الذاتي في القوة العسكرية :

التدافع الذاتي في القوة العسكرية مصدره أمران :

الأول : إن المتطلبات الاستراتيجية للانتشار العسكري الذي تستدعيه مشاريع الهيمنة الأمريكية ؛ سيؤدي إلى بعثرة هذه القوة العسكرية في مختلف القارات والمحيطات ؛ بما يشئت التركيز الذي هو من أهم عناصر مركزية القيادة والتوجيه . فمصدر التدافع هنا ناشئ من محاولة تحقيق حالة التوازن بين الحالتين .

الثاني : إن تلك الاحتياجات الاستراتيجية للانتشار العسكري تفوق في متطلباتها القدرات النفسية والتوازنات العقلية للأفراد العاملين في تلك القوات ، وذلك بسبب عامل الخوف والهلع الذي يدب في نفوسهم في ساحات القتال (مثال : أعلنت القيادة العسكرية الأمريكية في العراق أن ٢١ جندياً انتحروا ، وأن حوالي ٤٠٠ إلى ٥٠٠ جندي أعيدوا للولايات المتحدة بسبب إصابتهم بخلل في قدراتهم العقلية ؛ أي أصيبوا بالجنون أو ما هو في حكمه ، وذلك لغاية نهاية عام

٢٠٠٣م)، وبناء عليه يمكن القول إن القوة العسكرية الأمريكية رغم تفوقها المطلق؛ فإنها تعاني من حالة التدافع الذاتي ذات الأثر السلبي.

٣ - التدافع الذاتي في الإعلام:

على الرغم من أن الولايات المتحدة قد سخرت الإغصار الإعلامي لخدمة مشاريعها؛ فإنها أخفقت في تحقيق الإجماع الإعلامي الأمريكي في الوصول إلى هدفها، وقد جاء الدفع الإعلامي السلبي في مخططاتها من وجهين:

الأول: عدم تمكنها من تقديم براهين قاطعة بمسؤولية القاعدة عن أحداث ١١/٩/٢٠٠١م. وقد جاء الدفع الإعلامي من جهة احتمال تورط الـ C.I.A والـ F.B.I في الحدث، سواء بشكل مباشر أو غير مباشر، بعدم اتخاذ إجراءات مناسبة للحيلولة دون حدوثه.

الثاني: عدم قدرتها على تكميم أفواه الإعلام الأمريكي بشأن ما نشره من أسبقية التخطيط لاحتلال أفغانستان والعراق (وغيرها مما هو قادم) على أحداث ١١ سبتمبر. وآخرها ما ذكره وزير الخزانة الأمريكية السابق «بول أونيل» في مقابلاته مع شبكة (سي بي إس) الأمريكية حول الأعداد المسبق لغزو العراق، وقد أذيعت المقابلة بكاملها في مساء الأحد ١١/١/٢٠٠٤م ضمن الترويج لكتاب «من الولاء» للصحفي السابق في صحيفة وول ستريت جورنال المدعو «رون سوسكيند». وقالت الشبكة إن وزير الخزانة «بول أونيل» ومسؤولين آخرين قدموا لسوسكيند وثائق تخص فترة الشهور الثلاثة الأولى من عام ٢٠٠١م (أي قبل حوالي ستة إلى تسعة أشهر من أحداث ١١ سبتمبر)، تكشف عن أن إدارة بوش كانت تبحث آنذاك الخيارات العسكرية لإزاحة صدام حسين. وكشف سوسكيند عن وثيقة لوزارة الدفاع الأمريكية تحمل اسم: «المتقدمون الأجانب لعقود في مجال النفط العراقي»، تتحدث عن شركات من ٤٠ دولة، وأنها له اهتمام بالعراق. ونقل الكتاب عن أونيل قوله: «إن الرئيس بوش كان مصراً على إيجاد

مسوّغ لشن الحرب، وإنه دُهِش لأنه ما من أحد في مجلس الأمن القومي سأل لماذا ينبغي غزو العراق؟^(١). إن الإعلام الأمريكي له اهتمام كبير بمسألة عدم تمكن القوات الأمريكية والإنكليزية من العثور على أي دليل يثبت امتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل؛ ذلك المسوّغ الذي على أساسه تم غزو العراق.

ذلكما وجهان من أوجه الدفع السلبي في العامل الإعلامي، والذي صنفته واحداً من عوامل القوة الذاتية الأمريكية.

٤ - التدافع الذاتي في التعليم والإدارة:

قد ذكرت تحت عنوان (الانهيار الاجتماعي) ما يفيد التسرب الخطير لمظاهر التداعي الاجتماعي بين الطلبة، وقد شمل ذلك كل العناوين التي ذكرتها تحت ذلك العنوان؛ بما يغني عن الإعادة. إن الدفع السلبي في العملية التعليمية قد خلخل ثبات هذه الدعامة. وأما في الإدارة؛ فإن التدافع الذاتي لا يزال يخطط طريقاً إيجابياً، ويثمر توسعاً كبيراً في مجالات علوم الإدارة وتطبيقاتها وامتداد رقعة تأثيرها، ليس فقط في داخل الولايات المتحدة؛ بل في خارجها أيضاً، وأصبحت برامج ووسائل علم الإدارة بحسب المدرسة الأمريكية مرجعاً في هذا العلم.

ثانياً: التدافع الذاتي في عوامل الضعف الذاتية:

إن التدافع الذاتي في عوامل الضعف التي ذكرتها آخذ في الازدياد، كما دلّت عليه أرقام الإحصاءات؛ أي أن التدافع الذاتي في هذه العوامل يدفع باتجاه التضخم والنمو السلبيين، وكما يظهر؛ فإن الحكومة الأمريكية عاجزة عن إيقاف هذا الدفع الخطير عند حد معين؛ مما يعني أنه بعد حوالي عشرات من العقود قد يؤدي هذا الدفع إلى حالة غير مسيطر عليها، تقود في النهاية إلى انهيار الدولة

(١) صحيفة الوطن الكويتية، ٢٠ ذو القعدة ١٤٢٤هـ الموافق ١٢ / ١ / ٢٠٠٤م.

ذاتياً؛ أي بدون حرب خارجية تشن عليها. إن ذلك لن يكون أمراً مدهشاً، بل هو سنة من سنن الله تعالى، تأخذ مجراها في كل من يتحداها ويقف ضدها زاعماً قدرته على مقاومتها أو تغيير مسارها.

وإن هذه النتيجة لن تكون مختصة بالولايات المتحدة وحدها؛ بل هي منطبقة كذلك على كل من يغير في منهج حياته سنة الله تعالى؛ سواء من الأفراد أو الجماعات أو الدول. فإذا أضفنا ما ذكرناه في الأثر السلبي للتدافع الذاتي في عوامل القوة الأمريكية إلى الأثر السلبي الكامن في عوامل الضعف الذاتية في الولايات المتحدة؛ فإن المحصلة العامة لذلك تفيد أن ما تصبو إليه الولايات المتحدة من عولمة الأمركة هو مجرد تطلع وردي تنقصه الرؤية التحليلية الدقيقة، وتنقص عليه الحقائق والوقائع التي تغطي أرجاء المعمورة. إن الولايات المتحدة، وإن كانت لا تزال تتسلق سلم الحضارة، فإن الآثار السلبية الشديدة الناشئة من التدافع الكامن في كل عامل من عوامل تكوينها؛ سيجعل رائدة العولمة (أمريكا) ضحية ذلك التدافع، وستصبح بعد عقود منكفئة على داخلها، تحاول استخراج ذاتها من بين أنقاض التداعي الحضاري (لمزيد من الاطلاع على التداعي الأمريكي الداخلي؛ اقرأ كتاب: (الولايات المتحدة طليعة الانحطاط) لمؤلفه روجيه جارودي)^(١).

(١) الولايات المتحدة طليعة الانحطاط، روجيه جارودي، ترجمة مروان حموي، طباعة دار الكتاب - سوريا.

W#9U#S

بعد أن أخذنا بالتطواف والتجوال عبر محيطات التدافع ، وما تطويه موجاتها من أسرار ، وتخفي في طياتها من أبعاد ؛ أختتم هذه الدراسة بالتوقف عند بعض المحطات المهمة فيما قررناه .

لقد بينتُ أن سنن الله - تعالى - لا تحابي أحداً ، وأن عملها جار في الكون والحياة والإنسان بكليات ذلك وجزئياته ، وأن العلم بهذه السنن مهم جداً للإنسان ليستطيع صياغة حياته وفق نسق مسيرتها فلا يصطدم بها فتحطمه . كما تبين لنا كيف أن الإسلام قد وضع كليات في مقاصده تأخذ بيد الإنسان نحو السبيل القويم ، وتحدد خطوط مساره من حيث الوجود أو العدم ، وأن عالمية الإسلام هي من طبيعته في عقيدته وأحكامه ، وأن العولمة البشرية لن تتمكن من إيقاف زحف عالمية الإسلام فضلاً عن احتوائها .

وقد بينتُ أيضاً أن التدافع بين الحق والباطل والهدى والضلال والخير والشر ؛ قد اختط مساره منذ خلق الإنسان ، وأن هذا التدافع قد أخذ منحى المواجهة منذ عهد نوح عليه السلام ؛ مروراً بجميع الرسل - عليهم السلام - الذين من بعده ، وإلى النبي محمد ﷺ ، وأن حبل ذلك التدافع ماض وممتد إلى يوم القيامة ، وقد وقع التدافع في العقائد والمقاصد والوسائل ، وكانت مجارة السنن الإلهية في ذلك أو الانحراف عنها حاسمة في نصر المؤمنين ودمار أو هزيمة الكافرين .

إن التدافع الحضاري في عصرنا الحاضر تغلب عليه هيمنة الغطرسة الصليبية واليهودية ، وإن المشترك الإنساني لا قيمة له عندهم إلا بقدر ما يحقق مآربهم ويخدم أهدافهم ؛ غير أن هذه الحال لن تدوم ؛ إذ جرت سنة الله - تعالى - بعلو

أهل الإسلام إن هم حققوا مقتضيات الإيمان ، وإن ذلك قادم إن شاء الله تعالى ، قال - تعالى - : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣٣] .

ما كان من الحق فمن الله - تعالى - وحده ، وما كان سوى ذلك فمني ومن الشيطان ، وأستغفر الله العظيم .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ،

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

كتبه

العبد الفقير إلى ربه

د . سامي محمد صالح الدلال

١٤٢٤ / ٦ / ٢٤ هـ

٢٠٠٣ / ٨ / ٢٢ م

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
الفصل الأول	
السنن	
- السنن لغة واصطلاحاً	٩
- مراتب علم السنن الربانية	١١
- ما علاقة الإنسان فرداً ثم جماعة بتلك السنن؟	١٣
- السنن والمصالح	١٨
- السنن الربانية في المسيرة البشرية	٣٣
- السنن الربانية ومقاصد الشريعة	٣٥
- السنن ومقاصد الشريعة ومستقبل الإسلام	٣٩
الفصل الثاني	
العولمة	
- تعريف العولمة	٤٧
- تاريخ العولمة	٤٩
- المشرفون على العولمة المعاصرة	٥٠
- مؤسسات العولمة	٥٠
- وسائل نشر العولمة	٥١
- قصور العولمة المعاصرة عن بلوغ غاياتها	٥٢
- مفرزات العولمة المعاصرة:	٥٣
أولاً: عقد مؤتمرات عالمية	٥٣

الموضوع	الصفحة
ثانياً: العولمة الاقتصادية	٥٤
ثالثاً: العولمة الثقافية	٦٢
رابعاً: طمس هوية الشعوب وتشويه عقائدها وثقافتها وتاريخها -	٧٠
خامساً: عولمة مناهج الحكم	٧١
سادساً: العولمة الاستراتيجية	٧٣
الفصل الثالث	
التدافع	
- التدافع في اللغة والتنزيل	٨١
- المتدافعون	٨٣
- فيم التدافع؟	٨٤
- عالمية الإسلام	٨٦
- التدافع بين عالمية الإسلام والعولمة البشرية	٨٨
- دوائر التدافع:	٨٩
أولاً: التدافع في الدائرة المحدودة	٨٩
- ما عوامل الحسم في هذا التدافع؟	٩٥
ثانياً: التدافع في الدائرة الشاملة (أو العامة)	٩٩
- التدافع الرسالي الشرطي:	١٠١
الأول: التدافع في العهد المكي:	١٠٢
أولاً: تدافع العقائد في العهد المكي:	١٠٢
ثانياً: تدافع المقاصد في العهد المكي	١٠٩
- التدافع في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	١١٤
ثالثاً: تدافع الوسائل في العهد المكي:	١١٦
أولاً: وسائل الدفع النبوي في العهد المكي	١٢٩

الصفحة

الموضوع

- ١٣٠ ————— ثانياً: وسائل الدفع الشرعي في العهد المكي
- ١٣١ ————— - وقفات مع التدافع في العهد المكي
- ١٣٢ ————— - النتيجة النهائية
- ١٣٢ ————— الثاني: التدافع في العهد المدني:
- ١٣٣ ————— أولاً: تدافع العقائد في العهد المدني:
- ١٣٥ ————— - التدافع العقدي بين العالمية والعولمة في العهد المدني
- ١٤٦ ————— ثانياً: تدافع المقاصد في العهد المدني:
- ١٥٦ ————— - التدافع في المقاصد الكلية في العهد المدني
- ١٥٨ ————— - التدافع في تطبيق تشريعات المقاصد من حيث عدم
- ١٦٠ ————— - هل حصل التدافع في المقاصد في المجتمع المدني؟
- ١٦١ ————— - التدافع في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
- ١٦٢ ————— ثالثاً: تدافع الوسائل في العهد المدني:
- ١٨٣ ————— أولاً: وسائل الدفع النبوي في العهد المدني
- ١٨٦ ————— ثانياً: وسائل الدفع الكفري والنفاقي في العهد المدني
- ١٨٧ ————— - وقفات مع التدافع في العهد المدني
- ١٩٥ ————— - السنن وحسم التدافع في العهد النبوي:
- أولاً: أعمال المشركين وأهل الكتاب التي عاكسوا أو خالفوا بها
- ١٩٦ ————— اتجاه السنن
- ٢١٨ ————— ثانياً: أعمال المؤمنين التي سايروا بها اتجاه السنن
- ٢٣٥ ————— - النتيجة النهائية:
- ٢٣٥ ————— أولاً: سنة الله - تعالى - في اندحار الكافرين
- ٢٣٧ ————— ثانياً: سنة الله - تعالى - في نصر المؤمنين
- ٢٣٩ ————— - التدافع المعاصر بين عالمية الإسلام والعولمة:

الموضوع	الصفحة
أولاً: واقع المسلمين على ضوء شعب الإيمان وموجات العولمة —	٢٤١
ثانياً: واقع أعداء الإسلام على ضوء شعب الكفر وموجات	
العولمة: —	٢٤٨
١ - التدافع ودور أوروبا الموحدة —	٢٤٩
٢ - التدافع ودور حلف الأطلسي —	٢٥٠
٣ - التدافع واستراتيجية الهيمنة الأمريكية —	٢٥٢
٤ - التدافع ودور التكتل الجديد —	٢٥٦
- التدافع بين عالمية الإسلام والعولمة المعاصرة إلى أين؟ —	٢٥٦
- المشروع الإسلامي ضد العولمة في سياق التدافع —	٢٥٩
- اقتراحات قُدمت لمواجهة العولمة المعاصرة —	٢٦١
- اقتراح مشروع متكامل للعمل المؤسسي الإسلامي لمداخلة ومواجهة	
العولمة العصرية —	٢٦٣
- التحصن الذاتي ضد العولمة —	٢٦٥
- التدافع مع العولمة من خلال الكتب المنشورة —	٢٦٦
- النصر المبين للإسلام عاقبة تدافعه مع العولمة —	٢٧٠
الفصل الرابع	
المداخلة الحضارية وبناء المشترك الإنساني بين العالمية والعولمة	
- الرصيد —	٢٧٧
- المكسي والمدني في المدافعة الحضارية —	٢٧٩
- مقومات المدافعة الحضارية في المجتمع الإسلامي —	٢٨٩
- انهيار التيارات القومية والاشتراكية والليبرالية والعلمانية أمام المدافعة	
الإسلامية الحضارية —	٢٩٤

الصفحة

الموضوع

٢٩٨	- تدافعات وتقاطعات المصالح الحضارية في المشترك الإنساني في ظل العولمة
٣٠٣	- العالمية والعولمة والمعادلة الحضارية الصعبة
٣٠٥	- رائدة العولمة (أمريكا) والتدافع الحضاري (رؤية من الداخل)
٣٣١	خاتمة
٣٣٣	الفهرس

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٧].

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِكْرًا
كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ
وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ
الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].